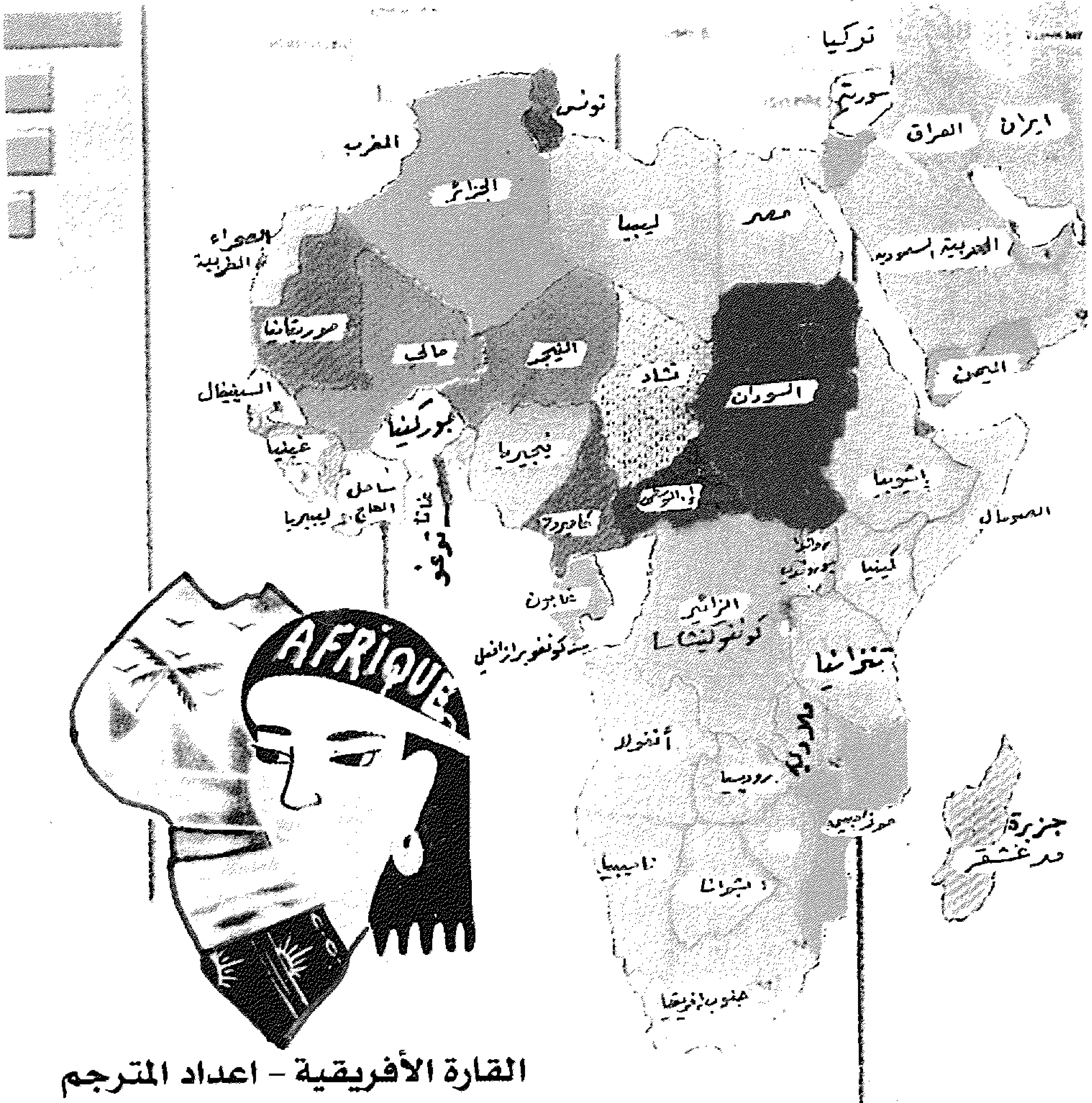
عدد من المؤلفين

أساطير وحكايات زنجية إفريقية

ترجمة

موريس جلال





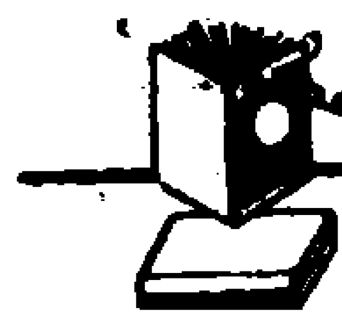
القارة الأفريقية - اعداد المترجم

الإشراف الفني زهير الحمو

عدد من المؤلفين

أساطير وحكايات زنجية إفريقية

ترجمة
موريس جلال



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

أساطير وحكايات زنجية إفريقية/ عدد من المؤلفين؛ ترجمة موريس جلال. -
دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ٢٣٩ص؛ ٢٤سم.

١- ٨٠٨٫٨٣ ج ا ل أ ٢- العنوان ٣- جلال
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ٦٠٥/ ٤/ ٢٠٠٠

مقدمة المترجم

أقدم إلى القارىء الكريم مجموعة من الاساطير والحكايات التي أستقى الأدباء الأفارقة معظمها من أدبهم التقليدي الشفوي العريق. فالحضارات الافريقية التقليدية حضارات شفوية متوارثة من جيل إلى آخر. وقد عكف بعض الأدباء الزنوج المعاصرين على تدوينها بشتى اللغات الأوروبية ومنها الانكليزية والفرنسية. وهذا ما يسر لي نقلها إلى لغتنا العربية كيما يطلع عليها المتأدبون السوريون وغيرهم من الأمة العربية وجوارها.

تتميز هذه النصوص الزنجية بنفحة بدائية تكشف لنا النقاب عن عالم متمايز عن عالمنا العربي تارة ومشابه له تارة أخرى. وقد كانت هذه الأساطير والحكايات تروى للأفارقة- ولا تزال حتى الآن- خلال سهراتهم بعد اعتدال حرارة الجو. ولذلك نجد فيها شيئاًمن التكرار يقوم به الراوي إذكاء للانتباه. وقد يتخللها شيءمن النفحات الشعرية التي تنغم على إيقاع الطبول (التمتامات الافريقية). وإيقاع أقدام الراقصين على أديم الأرض. فهنا يتجلى حقاً الطابع الشعبي لهذه الأساطير والحكايات.

تنعكس في هذا الأدب الزنجي صورة بيئة بدائية تقوم على الصيد والقنص، وعلى شريعة القوة في فرضها السلطة والحفاظ عليها والدأب على التشبث بالتقاليد المتوارثة وآراء أولي الامر ومتخذي القرار ومن يلف لفهم من شعراء سحرة وأمراء القتال وأرباب السحر والتعاويذ وأمثالهم.

هنا لا بد لنا من أن ننوه بدور رئيسي ينهض به الراوية الشاعر الساحر الذي ينطق بالحكمة المتوارثة من الجدود الأولين والمستقاة من خبرة الاجيال وتطورات التاريخ. إنه الرجل المقرب من قمة السلطة يلازمها ويسدي إليها المشورة والنصائح، ويبث فيها روح العدل والشجاعة وكرم الأخلاق ويقنعها بضرورة الإقدام على انجاز مآثر خالدة على غرار ما انجزه عظماء القوم السالفين. ويدمج في روايته ونصائحه نبذاً من تاريخ قومه القديم إعلاء لشأن ملوك القبيلة وشيوخها، وتخليداً لذكراهم في ذاكرة الانسان وخلده.

وثمة أمراء الحرب الذين يذودون عن الحمى فيستشيرهم الملوك و ذوو القرار قبل شن القتال على غيرهم. وينصب اهتمام قادة الحرب هؤلاء على إعداد المقاتلين فيحفزون هممهم ويذكون بسالتهم بشتى الطرق ومنها بذل الولائم قبل القتال، وأناشيد ينشدها الجند وإياهم قبل المعارك أو خلالها (نشيد القوس) أو عقبها (نشيد النسور). وامراء الحرب هؤلاء أسياد في بطون أقوامهم يلتزمون بالولاء المطلق لقمة السلطان ويلجأون معها إلى التوسل بالسحر والعرافين والتعاويذ لاستكشاف مصير القتال المقبل، كما يقدمون الضحايا لأرواح أجدادهم وأرواح الطبيعة، وللحيوانات الشرسة، كفاً لأذاها. ومن خفايا هذه الطبيعة ما يقطن في حواشيها من جن وعفاريت يترتب على الانسان أن يتحالف معها أو أن يناهضها.

البيئة الزنجية الافريقية بيئة أرواحية متشبثة باحترام أرواح الاقدمين خشية من أذاها إذا غضبت وتمتعاً بحمايتها إذا شفقت. فإيمانهم أن الأجداد الاولين لا يزالون أحياء في عالم الأرواح كما في الأجيال الراهنة والمقبلة. فيتوجب على هذه الأجيال قاطبةً أن تحترم هذه الأرواح بالحفاظ على كيان القبيلة وصيرورتها وتراثها.

بل تلتزم البيئة الزنجية باحترام كل قوة منتشرة في كل عنصر من عناصر الطبيعة. فلكل منها روحه الذي يندرج في تراتب متصاعد حتى الروح الأعلى (وهو الله). فمن الضرورة الحتمية استعطاف هذه الأرواح ولا سيما منها ضروب العفاريت والجن العديدة.

الامر الهام في هذا الأدب التقليدي هو أنه يتسم بطابع السذاجة والبعد عن حقيقة الأمور الواقعية. وتتجلى هذه السمة في الميل إلى التخريف الخيالي. والأديب الزنجي السينغالي "ليوبولد سيدار سنغور" الذائع الصيت ينوه بقدرة بني عرقه على إطلاق العنان لمخيلاتهم، وعلى الابتداع والتفسير للأمور الخارقة، لأن كل أمر أسطوري لا يتحلى بما هو خارق للواقع يبث الضجر في نفس الزنجي الافريقي ويغمسها في ملل عميق.

لن أطيل على القارىء الكريم هذه المقدمة. فما أتوخاه هو أن يعكف على قراءة هذه الأساطير والحكايات على ضوء ما تقدم، بل أن يتمعن في مضمونها فكل منها يشتمل على نزعة تربوية أخلاقية تمنح شيئاً من الحكمة والفطنة والحذر.

أرجو أن أكون قد وفقت في إضافة هذا الكتاب إلى المكتبة العربية. والله ولي النجاح والتوفيق

موريس جلال

دمشق / ٧/ كانون الثاني / ١٩٩٨/

الكائنان، الأعلى والأسفل [1]

من ساحل العاج

قبَل أن تُكَوَّنَ جميعُ الأشياء على الأرض وفي جلد السماء،

تزامنَ كائنان ينعم كل منهما بتمام الحَول والقوة أو يكاد ...

فكان ثمة الكائنُ الاعلى !

وفي آنٍ معاً الكائنُ الاسفل !

وذات يومٍ لم تهبّ الريح ولم تنسم النسائم. وراح الضجر يستولي على أحاسيس الكائن الأسفل، وطفق يتثاءب ويتثاءب.

وصَدَرَ غضارٌ من فمه فقال: بهذا الغضار سأصنع رجالاً ونساءَ وأسماكاً وحيوانات ونباتات ...

بالغضار كوّن رجالاً ونسوةً وأسماكاً وحيوانات ونباتات.

ثم قال: سأسيل الدم في جسد الرجال والنساء والأسماك والحيوانات والنباتات التي صنعتها من الغضار لكي تحيي على غراري وتعيش ...

---

(١) يكثر التكرار في هذه الاسطورة وكأنها تسرد على أطفال ...

ودفقَ الكائن الأسفل الدم في بدن الرجال والنسوة والأسماك والحيوانات . ولكن الحياة لم تدب في داخلها، فتأجج غضب الكائن الأسفل، وأبقى الرجال والنساء والأسماك والحيوانات والنباتات التي كونها من الغضار خارج مثواه ...

ونفد صبره فانصرف منَحِّياً تماثيل الغضار خارجاً ...

وذات يوم أمطرت السماء. وذاب في المطر العديد من رجال ونسوة الغضار. وشاهد الكائن الأسفل ما أصاب الكثير من الرجال والنسوة والأسماك والحيوانات والنباتات التي صنعها من الغضار، فقال:

-لقد ذابت في المطر لأنها من غضار ولم تتحرك الحياة في داخلها.

وتعالى صوت الضمير في قلب الكائن الأسفل. فأخذ رجالاً ونساءً وأسماكاً وحيوانات ونباتات من الغضار التي لم يلحق بها الضرر، تناولها وعزلها في كهف عامر بظلام دامس.

في هاتيك الأزمنة، كان الليل يدجن على الأرض مهيمناً دون أي منازع. وفي هاتيك الازمنة، كانت الأرض تربض في ليل لا نهاية له.

أما الكائن الأسفل فلم يكن يقتني سوى النار لكي يرى رؤية واضحة.

في هاتيك الأزمنة، كان النهار يقتصر على السماء البعيدة القصية.

وفي هاتيك الازمنة، كانت السماء النهار. أما الشمس فقد اقتناها الكائن الأعلى لكي يستنير بها دون انقطاع.

رأى الكائن الأعلى أن الكائن الأسفل كون لعباً جميلة.

فقال له: أعطني بعض رجالك ونسائك وأسماكك وحيواناتك الغضارية وسأبث فيها الحياة، أما أنت فسأمنحك ضوء شمسي وحرارتها.

أجاب الكائن الأسفل: سأعطيك الأسماك والحيوانات والنباتات الغضارية فقط، ولن أعطيك الرجال والنساء من الغضار. فردّ عليه الكائن الأعلى بقوله: أرغب أيضاً في الرجال والنسوة كما عرضت عليك.

وأجاب الكائن الأسفل: ليكن ما تريد، سوف يكونون لك، ولكنْ بثَّ الحياة أولاً فيهم جميعاً.

آنئذٍ صيّر الكائن الأعلى الحياة تسري داخل أبدان الرجال والنساء والأسماك والحيوانات وداخل النباتات.

وآنئذٍ قام الرجال والنسوة يدبون ثم يمشون وراحت الأسماك تتحرك وتسبح، وطفقت الحيوانات تطير أو تقفز، وكذا النباتات تنمو وتثمر. وقال الكائن الأعلى:

-والآن، أيها الكائن الأسفل، لزامٌ عليك الوفاء بوعدك! لقد بثثتُ الحياة في الرجال والنسوة و الأسماك والحيوانات والنباتات التي صنعتَها من غضار ومنحتُك ضوء الشمس وحرارتها. فهيا! لا بد لك أن تفي بوعدك كاملاً!

إلا أن الكائن الأسفل أخلف وعده ونقضه...

ونشب شجار مرير بين الكائنين وغضب كلاهما طوال دهر مديد، وما انفك غضبهما مُستقراً في سمته حتى هذا الحين!

لكنْ، منذئذٍ، يسعى الكائنِ الأعلى إلى استعادة الحياة التي بثّها في الأجساد الغضارية لكل من الرجال والنساء والأسماك والحيوانات والنباتات التي صنعَها الكائنُ الاسفل.

وكلما تمكّنَ الكائنُ الأعلى من استرداد الحياة التي أفاضها في الرجال والنسوة والأسماك والحيوانات والنباتات، كان يفقد الحياةَ رجل أو إمرأة أو سمكة أو حيوان أو نبات.

ولكنّ، كلّما تشاجر الكائنان في شأن الحياة التي أسكنها الكائنُ الأعلى في الكيان الغضاري لكل من الرجال والنساء والاسماك والحيوانات والنباتات، وكلما تتالت مشاجراتهما، إذاك أُصيبَ بالأمراض بضعةٌ من الرجال والنساء والأسماك والحيوانات والنباتات، وفقدت حياتها.

إذاكَ أيضاً، يحين الزمان الذي تهبّ فيه رياح السموم المحرقة وفي تلك الغضون يحين زمان الحروب والفتن الدامية

وإذاكَ أيضاً يُهيمن زمان العواصف والأعاصير الهوجاء

أمّا النجوم فهي الأحجار الكريمة التي يصيّرها الكائنُ الأعلى تتألق كيما يجتذب النسوةَ والرجال إليه.

والقمر عينُ الكائن الأعلى يرصد بها الكون بأكمله.

وبهذه العين المنفتحة نوبةً، أو تكاد نوبةً أُخرى، يُراقب الكائنُ الأعلى الكائنَ الأسفل، عدوّه- وحتى في غياهب الليل حين يستعيدُ الشمسَ من الكائن الأسفل الشمسَ التي وهبَه إياها مع الحياة لكل من الرجال والنساء والأسماك والحيوانات والنباتات التي كونّت في البدءِ من غُضارٍ انبجس من فم الكائن الأسفل.

وحدث ذلك قبل أن تُكوّنَ كافةُ الأشياء على الأرض وفي جلد السماء.

اسطورة نكوليه
أو
مغامرة الانسان
البدائي

من الكونغو- كينشاسا

في قديم الدهور البعيدة، كان ذات مرة رجل. وكان هذا الرجل يُدعى "نكوليه". وانطلق هذا الرجل إلى داخل غابة وبصحبته كلبان. والتقى في هذه الغابة "جولونجويه" الغزال. وانقضّ أحدُ الكلبين على الغزال ثم ضربه "نكوليه" ضربةً قاضية فقتله. فهوى "جولونجويه" على الأرض صريعاً. فقطّع الصيادُ الغزال... وكان يرتدي على حقويه مئزراً له قطعتان: جلدُ حيوان من قدام وجلد حيوان من خلف. وألقى على كتفه كيساً من جلد حيوان. وطفق "نكوليه" يُقطّع "جولونجويه" إرباً، أجل، قطّع الغزال إرباً.

ما أن قطّع "نكوليه" الغزال قطعاً حتى خرج من الغابة كائنان. وشاهد "نكوليه" بوضوح أن هذين الشخصين لم يكونا رجلين. وكان الشخصان عاريين تماماً، فلم يرتديا أيّ إزار، بل يحملان كيسين هنا، هكذا!! (١) ولاحظ "نكوليه" أيضاً كل الأعضاءالأخرى من جسديهما... وبعد أن قطّع الصيّادُ "جولونجويه"، الغزال، أدخل كل قطع اللحم في الكيس، وهمّ بالرحيل. هل قلتْ هذا؟لا، لم أقله: كان الشخصان امرأتين؛ ونظرتا مندهشتين "نكوليه" وهو يرتدي جلد حيوان من قدام ومن خلف. وأبصرتا الكيس، وكان من جلد حيوان. وشاهدتا

(١) يشير المؤلف إلى الصدر والنهدين.

لحم " جولونجويه " الغزال فسألتاه: ما عندك في هذا الكيس؟ فأجاب: إنه لحم «جولونجويه ...» الغزال. وأرادت المرأتان قسطاً من هذا اللحم. فقال " نكوليه ": عليّ أن أحتفظ بهذا اللحم لآكله. وسألت المرأتان: ما تريد أن تفعل بهذا اللحم؟ ... أجاب " نكوليه ": أريد أكله نيئاً. فقالت المرأتان: إذا أعطيتنا قطعةً منه، أعطيناك النار.

فأعطى " نكوليه " المرأتين قطعةَ لحمٍ. فقالت المرأتان: عُد غداً إلى هنا بنفس المكان، ونحن نعطيك النار.

في اليوم التالي، عاد " نكوليه " الصياد إلى الغابة والتقى امرأة واحدة فقط. وسألته المرأة: لماذا أتيت لوحدك ؟ أما من أمثالك إلا أنت ؟ أجاب " نكوليه " هناك الكثير من أمثالي !

وسألت المرأة: لماذا إذن لم يأتوا معك ؟ أجاب الصياد: رويت للرجال الآخرين أني رأيت كائنات لها كيسان [1] هنا هكذا، فقال لي الرجال: أنت تكذب!

ذهب " نكوليه " مع المرأة، وتوغلا في الغابة، وبلغا مكاناً كان فيه الكثير من الأشخاص بأكياس هنا، وكنّ جميعاً عاريات وكنّ كبيراتٍ أو صغيراتٍ وكنَّ بدينات أو نحيلات. وفي وسط جمعهنّ نار كبيرة. وقالت كل هذه الكائنات ذواتُ الاكياس للصياد: صباح الخير. ورأى " نكوليه " أنهن عاريات بأسرهنّ. ورأى أن جلدهنّ أملس أملط لا يعلوه أيُّ شعر فقال في نفسه: إنهن ملساوات جميعاً، وليس من شعر على بشرتهن. فالنار سبب ذلك. وليس لدينا نحنُ نار، والشعر يعلو جلدنا ونشعر بالبرد. أمّا هنّ، فيشعرن بالدفء والحرارة !

وجلبت المرأة مقعداً للصياد " نكوليه "، وكان المقعدُ حصيرةً. وجلس " نكوليه " على الحصيرة وهو ينظر النار، وفي النار قطعة اللحم التي تخلى عنها للمرأة عشية ذاك اليوم. فقال الصياد: آكل اللحم نيئاً كل يوم. وهذه الكائنات ذوات الأكياس تعرف اصلاح اللحم أفضلَ منّا. لابد أن يكون هذا اللحم طيّباً !

---

(١) يعني: النهدين.

تناول كلٌّ اللحم الذي كان في كيسه المُعلّق على كتفه وأعطى النساءَ اللحمَ لشيِّه. وقامت النساء بشيّه ونزعت المرأة الكيس عن كتفه وبسطته على الأرض ووضعت عليه اللحم المشوي وقالت: كُلْ، وسوف تصبح كائناً طيباً.

ومرةً أخرى، سألت المرأة: لماذا لم يصحبك أمثالك الآخرون؟ فأجاب "نكوليه": اعطني لحماً مشوياً، وضعيه في جعبتي وسأنقلهُ معي إلى ضيعتي وسوف يأتي رجال كثيرون معي إلى هنا.

أخذ "نكوليه" كيسه واللحم، وقفل عائداً إلى قريته. ونادى كل الرجال فاجتمعوا إليه. وبعد أن تحلّقوا حوله قال لهم: قلتم لي أني أكذب. أما الآن، فسأريكم إن كنتُ أُكذب حقاً... وأردفَ بقوله: إجلبوا لي لحمكم. وفعل الرجال ذلك. وكان لحمهم نيئاً، ودمُ لحمهم أسود...، وكان لحمهم قديماً، تسطعُ رائحته نتنةً عفنةً.

عندئذٍ، أخرج "نكوليه" من الكيس المعلّق على كتفه اللحم الذي شوته النساء وقال لهم: انظروا إلى لحمي. وإذا باللحم أسمر اللون يفوح بالرائحة الطيبة. فقال لهم: هوذا ما تعرفُ الكائنات ذوات الأكياس أن تفعله وقد حدثتكم عنها. وصاح أحد الرجال: أريد الذهاب إلى هناك، أنا أيضاً، وصاح رجل ثان: أريد الذهاب إلى هناك أنا أيضاً. وتبعه رجل ثالث... وصاح الجميع صيحةً مدويةً: هلموا كلنا إلى هناك! هيا بنا إلى هناك! وقال "نكوليه": هوذا ما هو حسن! اتبعوني إلى ربع الكائنات ذوات الأكياس. ولكني لن أعود أبداً إلى هنا، وسوف أبقى هناك عند الكائنات ذوات الأكياس. وقال الجميع له: حسناً!

وسار "نكوليه" قدامهم وتبعه الآخرون بأسرهم.

صحبه كل الرجال. ووصلوا إلى نار النساء. ودهشوا برؤية النسوة. وشاهدوا بشرتهن الملطاء وشاهدوا أثداءَهن العاريات ورأوا أنهن عاريات. وبصروا ما يستطيع المرءُ أن يبصره من امرأة عادية.

ارتفعت أنظار النساء إلى الرجال وشاهدن ما عليهم من جلد الحيوان، وأكياسهم من جلد الحيوان. واقتربت كل امرأة من رجل. وركعت كل امرأة أمام رجل، وفردت كل امرأة حصيرة للرجل الذي اختارته. وجلس كل رجل قرب النار. وأعطى كل رجل لحمه للمرأة الجاثية أمامه. وبسطت كل امرأة على الأرض كيس الرجل الذي اختارته. وأخذ كل رجل اللحم المشوي بيده. ولم يجرؤ الرجال على تناول اللحم بأفواههم. فقد أرادوا أن يروا ما كان يفعل "نكوليه". وكان الصياد يأكل. وحمل الرجال اللحم إلى أفواههم وقالوا: في الماضي كان لحمنا كل يوم دامياً أسود. في الماضي، لم يكن اللحم يوماً طيباً. ولكنْ، هوذا الآن اللحم الطيب اللذيذ.

قال "نكوليه" بعد وجبة الطعام: أريد البقاء هنا. وأربعة من بين الرجال قالوا: نريد البقاء هنا. وأقام هناك خمسة رجال قرب النساء أما الأخرون فعاذوا أدراجهم.

ذهب "نكوليه" إلى الغابة لقطع قليل من الشجر. ونظرت النسوة، فقلن: ما نفع هذا؟ فأجاب "نكوليه" والرجال اعتدنا قطع قليل من الشجر.

وانطلق "نكوليه" ليجلب قليلاً من المعترشات (١) وليبني بيتاً. وكانت النسوة ينظرنه محدّقاتٍ وقلن: ما نفع هذا؟ وأجاب الرجال: تعوّدنا بناء البيوت.

حين انتهى بناء المنازل الخمسة، قام النسوة الخمس والرجال الخمسة. بإشعال النار داخل كل منزل. وجلبت النسوة ماءً إلى المنازل. وعندما طفقت السماء تمطر، رأت النساء أن البيت كان ملجأً جيداً وأعربن عن دهشتهن. وقالت النسوة: هذا شيءٌ حسن! وكان كل ذلك يمتعهنّ.

---

(١) نبتات طويلة الساق جداً ترتكز على الأشجار لنموها وارتفاعها عالياً وتستخدم سوقها حبالاً. (عارشة، معترشة).

أما أولئك الرجال الذين عادوا إلى قريتهم، فقد شعروا كلُّهم، بعد مضي بضعة أيام، بالغم يتسرّب إلى قلوبهم ! فعادوا إلى ربع النساء وبنوا ثمة بيوتاً ومكثوا فيها.

كان "نكوليه" قد أنهى بناء منزله. وأشعلت إمرأته ناراً في المنزل، وجلبت قليلاً من الحطب. وأتى المساء. ونزع "نكوليه" عن حقويه قطعة جلد الحيوان الموضوعة على عجزه وبسطها على الأرض وفي بيته، قريباً جداً من النار. وكان على قطعة جلده الحيواني أن تستخدم سريراً لزوجته. ونزع "نكوليه" قطعة جلد الحيوان التي تستر عورة جسده. ومدّها بين سرير زوجته والجدار، على الارض في منزله. واضّجع "نكوليه" ونام. وصاح الديك صباحاً. وإذ كان متعباً، لبث نائماً. وخرجت المرأة واستحمت وعادت إلى المنزل وقالت "لنكوليه" : لماذا تنام حتى الآن ؟ اجابها: لقد تعبت لأني كنت معك ... ولكن الصباح قد أتى. وذهب الرجال إلى الصيد. غير أن "نكوليه" كان منهكاً ولم يمضِ إلى الصيد. وبعد قليل، عاد الرجال من الصيد حاملين طريدتهم. وشوت النسوة لحم الغنيمة وطعم جميعهم.

قالت المرأة "لنكوليه" حين تغيب الشمس تبيت الدجاجات في القن. وخلال الليل، علينا أن نفعل مرتين ما فعلنا في نهاية الليلة الاخيرة. هذا ما ارتأته المرأة. وصنعا كما قالت المرأة. وكانت المرأة حسناء جميلة. وكانت المرأة بارعة الجمال.

لبث "نكوليه" وزوجته يقومان بما سبق لهما أن قررا صنعه. أما النسوة الأخريات والرجال الآخرون فكانوا يقضون سواد الليل نياماً ولا يفعلون شيئاً خلال هجعات لياليهم.

كانت زوجة "نكوليه" تغدو أوفر قوة وثرّ جسمها وامتلأ. وطفق ثديا زوجة "نكوليه" يتفاخمان. وراح الرجال يتساءلون: ما الذي سيحدث من هذا؟ وكانت النسوة يتساءلن: ما الذي سيحدث من هذا ؟

وجمع "نكوليه" كافة الرجال في منزله وقال لهم: نحن الرجال نختلف عن هذه الكائنات ذوات الأكياس. وأجاب الرجال المجتمعون في بيت: نكوليه" قائلين: هذا واضح وضوح الشمس.

وقال "نكوليه" اقتربوا ليلاً من نسوتكم وسترون أن كائناً آخر سيأتي من كل إمرأة لكل واحد منكم.

مضى أحد الرجال المجتمعين في بيت "نكوليه" إلى إمرأته لكي ينجز كلَّ ما قيل له. وعاد إلى منزل "نكوليه" حيث كان الرجال مجتمعين ليتلقنوا هذا الأمر. وصاح الرجل قائلاً: هذه العملية حسنة وجيدة جيدة!

لقّن «نكوليه» الرجال هذا الأمر. وانطلق الرجال إلى نسوتهم وقالوا لهن: لماذا لم تقلن هذا لنا من قبل؟

فأجابت النساء: إِيْه! ألستم رجالاً؟

ولم تبق زوجةُ «نكوليه» حاملاً سوى شهر واحد.

عقب الشهر، ولدت ابناً.

وكانت القرية مزدهرة. وكانت النساء يتمتّعن بصحة جيدة. وتوفّر ثمّةَ كل ما يتوجب لقوت الجميع وميرتهم. وازدهرت صحةُ الجميع ازدهاراً مُطمئناً.

ذهب «نكولِيه» مُتنزّهاً على ضفة الماء، والتصق تُرابُ الغُضار بقدميه. وكانت الشمس مشعشعة، فقَسِيَ الغُضار عليهما. وعاد «نكوليه» إلى النهر وأخذ غضاراً وعجن موقدَ «عود» (غليون». ووضع عشباً في موقد الغليون وأخذ يدخّن.

ذاتَ يومٍ ملَصَ غليونُه من يده فسقط ولم ينكسر. وأسقط غليونه على الأرض عمداً، فلم ينكسر... فانتابته دهشةٌ عظيمة. وقال: النار صالحة لهذه التربة. ونزل «نكوليه» مع زوجته حتى ضفة النهر وجلبا منها الكثير من الغضار. ومدّ الغضار وملّسهُ وحناه وكوّره وملّسه مستعيناً بضلع حيوان، وصنَعَ فخارةً.

ثم، كدّس حطباً حول الفخارة وأشعله. وقطع خشباً من شجرة «مونانغو» قطعاً صغيرةً ووضعَها في الماء. وعندما تم طبخ الإناء رشّه بماء خشب «مونانغو». وهكذا وُلدت جرّةُ الإنسان الأولى. وانبرى «نكوليه» يعجن كل أنواع الصلصال ويصنع الفخار.

وذهب «نكوليه» إلى الغابة متنزّهاً. فعثر فيها على شجرة نخيل «رافية»[1]. ورأى أن ألياف هذه الشجرة كانت جيدة. فأخذ الألياف وتركها تجف خلال ثلاثة أيام في الشمس. ثم تناول قطعةً من لحاءِ نخلةٍ وربط بها ألياف «الرافية». وصنع «نكوليه» أداةً للنسيج، فيما جهل الناس كيف ينسجون. أما «نكوليه» فسبق له أن عرف النسْجَ والحياكة. وخِلالَ يومَيْن حاك شريطين من النسيج. وقطع هُدُبُهما، وخاط أشرطة النسيج وأعطاها لزوجته لتلبسها رداءً لها. ورأتَ كل النسوة زوجة «نكوليه» وقلن: كم هذا جميل!. وشاهد كلُّ الرجال زوجة «نكوليه». وتَطمّعت النساءُ الأخريات إلى أنسجةٍ شبيهةٍ بما ترتديه زوجة «نكوليه»، فقلن لأزواجهنّ: نريد أن نرتدي ثياباً من النسيج نفسه.

وفد الرجال إلى «نكوليه» فقال لهم: ما لكم عيون! وما ترون شيئاً! جعلتكم في الماضي ترون أموراً كثيرة. والآن عليكم أن تجلبوا لي لحماً... وأتى الصيادون بغزالين. وأعطى «نكوليه» قطعتَيْ نسيجٍ لقاءَ غزالٍ واحد. ولقاءَ الغزال الثاني، علّم «نكوليه» الرجال أن يستخدموا مِنول الحياكة. وفي نهاية المطاف قال «نكوليه» لربعه المتحلقين حوله:

- والآن، أيها الناس! جعلتكم ترون وتعلمون ما يكفي، فها أنا الأن سيّدكم!

(١) رافية: جنس من النخيل الافريقي تُستخدم أليافه في الصناعة.

«شاكا» أو المُسَارَّة(١)

من جنوب افريقيا

أسطورة «الزولو» : الإنسان النازل من السماء

الممسوح (بالزيت)

ذات صباح، نَهضَ «شاكا» بُكرةً كي يذهب إلى النهر، وقد أزف الوقت، بالنسبة إليه، ليقوم بوضوئه الشعائري. وكان الليل في غَبَش نهايته. وصَحبته والدتهُ إلى النهر، لأنها كانت تعلم أن سكان القرية يحقدون عليه ويترصّدون لَه، فهي ترفض دوماً أن تدعهَ يمضي بمفرده إلى أي مكانٍ ما.

ما كان أحد يعرف أن ثمّة فترةً ثابتةً يترتّب عليه أن يشخص فيها إلى النهر، حالما تحينُ آونة السَّحرَ. وما أن بلغ ضفاف النهر المجاورة للمحلّة التي يقطنُ فيها، حتى لبثت والدة «شاكا» منعزلةً على الضفة، ولكنْ، في مشاهدة الموضع الذي يستحمّ فيه ولدُها. وعلى القارئ أن لا ينسى أنه ليس من غيْر اللائق في ربوع «الكَفْر»(٢) أن تشهد الأمُّ ابنها وهو يغتسل، ولئن كان عارياً بكامله، فأهالي «الكفْر» يعيشون عُراةً تماماً في حياتهم اليومية.

---

(١) المُسارّة: احتفال يُوقَف فيه إنسانٌ على أسرار دينية أو غيرها.

(٢) اسم من جذر عربي أطلقه جغرافيو القرنين ١٧ و١٨ على الجزء الأفريقي الواقع تحت خط الاستواء وهو موطن قبائل البانتو (معجم لاروس).

كان «شاكا» قد انتهى من اغتساله، وطفق يتهيأ للخروج من الماء، حين شعر فجأة بأن طُرّةَ شَعْرٍ بيأفوخ رأسه طفقت تضطرب، إذ كانت نفحةٌ دافئة تجتاح جلدَ قمّة جمجمته حتى إنها استتبعت له الشعورَ بحرقٍ. ثم، فجأةً، زال هذا الانطباع وعاد كل شيءٍ إلى الهدوء والسَّكينة.

كان الصباح عند انبثاقه، قبل أن تبزغ الشمس بكثير. أما الموضعُ حيث يستحم «شاكا» فكانت رؤيته تُخلّف أثراً في النفس شديداً: فالنهر من جهة المنبع يتدفّق شلالاً عظيماً يندفق في حوض فسيحِ النطاق، هناك حيث كان «شاكا». ويُشكّل هذا الحوضُ هُوةً حقيقيّة اصطبغت مياهُه بِحُوّةٍ مُعتمة، وكأنها غدت سوداء حيث يبلغ القعرُ أقصى أعماقه. وعلى العدوة الأخرى من النهر كان جدار الصخر يتقدّم شاقُولياً بمنحى المياه فيشكل هناك غاراً وسيعاً، ينفتح في أعماق صَدْعٍ غيهبيّ السواد يفور متحولاً حتى أقصى الهوّة. وتعجز العين عن تمييزها الحدودَ التي تُفضي إليها لُجَجُ المياه العميقة: فصوبَ الانحدار مباشرةً، كان رُكامُ القصب الكثيف النابت على الضفّتين يُخفي جُزئياً هذه المياه السحيقة. وعلى الضفة الأخرى، أخيراً، انتصبت الغابة تحجبُ تماماً منحدرات التلّ، وتنحدرُ بكثافة شديدة حتى أديم المياه، مع جُملةٍ من النباتات الأثيثة، بِحيث أنها تُكوّن دغلاً مُلْتفّ التشاجُن والتشابُك.

وكان هذا الموضع، في وَضَح النهار، يُخلّف انطباع شؤمٍ وخشية، فهو رُكنٌ لا بد للمرءِ أن يتجنّبَهُ لكي يستحمّ فيه وحيداً، فلا جرم أن هذا الموقع موطنُ «تيكولوشي» وهو قزمٌ شرّير يقطن بقُرب المياه. ورغُماً عن هذا كله، كان «شاكا» يغتسل فيه لوحده، أجل، إنه «شاكا» وعلى حين غرة، حدث الأمرُ، في اللحظة نفسها التي اغترف الرجلُ الشابُّ لتوه، براحة يده، قليلاً من الماء، رافعاً يده حتى شفتيه: بغتةً، طفقت مياهُ النهر - على اتساع أرجائه في ذاك المكان - تضطرب بسَوْرةٍ ضارية تتصاعد من أعماق الهوّة، متفاخمةً وهاويةً بدوامات متعرّجات، تتقاذف هنا وهناك مُنبجسةً في الهواء ومتعاليةً دونما حدودٍ حتى إن «شاكا» أدرك

أنّها تُوشك على إزلاق موطئ قدميه. فانبرى يتشبّث بالعودة إلى الضفة. وما أن بلغها حتى شعر بنفحة ريحٍ دفيئة. فارتعشت قصباتُ الضفة، ثم انتفضت بضراوة، وفجأةً، انقلب كل شيءٍ هادئاً وادعاً، كما استعادت القصباتُ قرارها وسكينتها وكأنّ شيئاً من الريح لم يكنْ من قبلُ. والمياه هي أيضاً عاودت إلى هدوئها، وقرّت الريحُ واستكانت.

في ذاك الأوان، هناك باتجاه الهوّة، تحرّكت دوّامةُ ماءٍ بهدوءٍ وصمت، وارتسمت غضونٌ على أديم المياه وانبجس منها كائنٌ هائل الخِلْقه وطفق يتحرك فيها.

أما الوالدة «ناندي» فقد قُيِّض لها، من حيث بقيت مُنزوية، أن تعاين المشهد بتمامه، فذُعرت وارتعدت فرائصُها، وأوشكت أن تهرع إلى «شاكا»، بيد أنها استذكرت في الحين المناسب إيعاز الساحر القاطع: «لا تذهبي إليه بأية حجةٍ كانت، اللهمّ إن طلب منك ذهابك إليه»، فلم يكن بوسعها سوى النحيب بصوت خفيت، مع رغبتها الجامحة في أن تسمع نداءَه يستنجد بها.

وجحظت عينا «شاكا» مُحدِّقةً بالهوة المُفعمة المزبدة وأبصر إذاك الرأسَ الهائل لثعبانٍ متُفاخم مخيف يتصاعد من لُجج الأمواج بمحاذاته. وكان للوحش أذنان تماثلان بطولهما أُذُنَي أرنبٍ بريّة، وبشكلهما أذُني فأرة الحقل... أمّا كلتَا عينيْه فتذكّران بتلك الحجارة المتطاولة القاسية التي تُطرَقُ بها الرحى لتصيّرها صالحةً لطحن الحبوب. وكانت العينان بحُوَّتِهما المُعتمة تُرعِدانِ قلبَ من يراهما فيجيشُ خوفاً وذعراً.

ودنت الأفعى من «شاكا» ناهضةً برأسها وعنقها خارج المياه. أمّا هو، الرجل الغنيّ بردّات فعلٍ سريعة فشعر بارتعاش جسده حين أبصر الأفعى تمخر المياه إليه. وابتدرته فكرةٌ أولى بأن يتناول هراوته ومزراقه[1] لكي يذود عن ذاته إلا أنه استذكر بغتةً السؤال الذي كان الطبيبُ - الساحرُ التيميّ، قد طرحه عليه

(١) مزراق: نوع من الرماح القصيرة.

مرتين: «هل سبق لك أن شاهدت شيئاً في النهر حين تستحمّ فيه؟» آنئذٍ، ترك الأمورَ تجري وهو يُناجي نفسهَ بأن الحيوان كانت تجتذبه بلا شك العقاقيرُ الطبيّة التي عُرِك جسدهُ بها، وأنه، من جرّاء ذلك، قد طُرِحَ السؤالُ عليه من قبلُ، أي منذُ ماضٍ ليس بالبعيد. فبقي حيثُ كان، وقد جمّده الهَلعُ وشُلَّت أعضاؤه، وهو يحملقُ بعيني سيّد المياه العميقة، ويا له من مشهدِ هولٍ يخلع القلوب ويُرعش المفاصل.

ما أن وصلت الأفعى إلى «شاكا» حتى سدّدت إليه لسانها المشعوب برأسين ذَرِبَيْن، وكأنّها توخت تماماً اختطافه ثمّ اجترارِه إلى داخل هوّة شدقها الفاغر الفسيح، بحيثُ لا يتعذّر أن يغورَ فيه الرجلُ الشابُ. . . وحين شاهد «شاكا» ذاك اللسان المشعوب يدنو منه إرتاع رهبةً وفزعاً، فطفق يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميْه: وللنوبة الأولى في حياته، أدرك تمامَ الإدراك كُنْهَ الرعب المُخيف، والهَولَ الرهيب الذي يُروّع كافة الجبناءِ والشجعان على السواء.

وأوشك «شاكا»، وهو في غمرة الذعر، أن يُولّي هارباً، حين استذكر النهيَ القاطع (وكم من العسير الامتثال له) الذي أُصدر إليه: «مهما يحدث، لا تهرب!».

لمّا روّعه هَولُ ما شاهده، صمّم «شاكا» على إغماض عَينَيه وآثرَ أن يموت مُطبقَ الأجفان، إن قتله الثعبان، بدلاً من أن يُشاهده هنا، قدّامه! لكنّه رفع يدَه بكل تؤدةٍ إلى رأسه وأمسك بأصابعه طُرّة شعره التي كانت على يأفوخه، امتثالاً منه للتوصية التي أُسديت له في حال شعوره بأنه طريدة الفزع، ثم انبرى يصفر صفيراً ضئيلاً ليسترعي انتباه والدته.

وكانت أمه «ناندي» قد حجبت وجهها براحتيها ذُعراً وهلعاً كيلا ترى ذاك الوحش الهائل يزدردُ ابنها. ولكنها، ما أن سمعت صفير ولدها حتى كشفت وجهها، ونقلت ناظريها بمنحى النهر. وحين أبصرت الأفعى منتصبةً إزاءَ «شاكا» استبدّت بها سَوْرةُ الرهبة والارتياع؛ وافتقدت قوّتها على الالتحاق بابنها، فلبثت لا حراك لها، مُتقوقعةً على ذاتها، لازبةً بأديم الأرض، قاصرةً عن الصراخ،

وحتى عن تذريف الدموع، من جرّاء الفزع والهلع، بيد أنها لم تكفّ عن النظر لترى كل حادث وشيك يتهدّد ولدها.

أما «شاكا» إذْ أدرك أن أيّ أذى لم يلحق به، فتح عينيّه وشاهد الأفعى. وإذا بها أمامه تحدّق بعينيه. وكان الثعبان قد استجرّ إلى المياه قسطاً من تلافيف بدنه، ولم يَعُد يُسدّد إلى الرجل الشاب لسانَه المشعوب، بل كان يبدو على وشك الارتداد إلى داخل كهفه. . . وشرعت الأفعى تتقهقر بمنحى المياه العميقة، وهي تسحبُ أولاً ذيلها. . . ولو تأخّر «شاكا» قليلاً أيضاً بفتح أجفانه لما كان من المحتمل أن يشاهدها.

ودون القيام بأية حركة حدّق الرجل الشاب مُجدَّداً بالوحش الهائل، وحتى بأعماق عينيه، وكان الثعبان هو أيضاً يحدّد النظر إليه، على غرار «شاكا». فشعرا آنئذ بأن أحدهما يحملق في عينيْ الآخر، خلال بُرهة من الزمان، في صمت مُطبقٍ: ها هما إنسان وثعبان وناظرا كلٌّ منهما يحدّقان في الآخر، والأفعى، في رحاب سُكناها، قد جعلها الرجل تضطرب داخل وجارها! وطالما حدّق كلٌّ منهما إلى الآخر على ذاك المنوال، لبثت يد "شاكا" تتشبّثُ بُطرّة شعر رأسه، وقبضةُ يده تضمّ التيمة المخبأة فيها.

فتذاك، راح الثعبانُ سيّدُ المياه العميقة يُحلّق برأسه فوق الماء مرةً أُخرى، ثمّ أخذ ينزلق بصمتٍ إلى "شاكا" والأمواه تكاد لا تتثنّى، وكان يبدو بجلاءٍ أنه يقترب من الضفة وصولاً إلى الفتى الشاب الذي لم يزل يرمق الحية ببصره. وفي النهاية، بلغت الأفعى الموضع حيث وقف "شاكا" منذ هنيهة مغمضاً ناظريه. فانتصبت اذاك الحية في الهواء وأخرجت ثانيةً لسانها المشعوب باستطالتين طويلتين جداً. ثم أخذت قذال "شاكا" كنقطة ارتكاز للسانها، وألقت استطالتيه حول عنق الرجل الشاب، واحتضنته بهما وضمّته... وبعدئذ التصقت الأفعى بـ"شاكا" والتفّت حول جسده. ولم تبقَ ضمةُ لسانها إلا بُرهةً، فقد طفقت تنضنضُ(1) شعُبتيه على كافة أعضاء الرجل الشاب، من رأسه وحتى باطن قدميه.

---

(1) نضنض لسانه: حركه.

وبعد أن نهضت الحية برأسها، إشرأبت عنقها إزاءَ مُحيّا "شاكا" ونظرته عن كثب، عن قربٍ شديد، بحيث كان بوسعه أن يشعر بنفثات أنفاسها المحرقةالنتنة تلفح وجهه. وعاود لسان الثعبان يمر مرة أخرى على أجفان "شاكا" وجميع محيّاه. وفي نهاية المطاف، انزلقت من الأمام إلى الخلف، وعيناها مُحدّقتان بثباتٍ، وتوارت إلى يمينه في الهاوية السحيقة.

لم يستطع قط "شاكا" أن يعرف ما كانت عليه الأبعاد الحقيقية لهذا الثعبان الهائل، فقد بقي جزءٌ من تلافيف جُرْمه العملاق خلال ذاك المشهد مغموراً بالنهر، فلم يتسنّ للرجل الشاب أن يقدّر تَماماً مدى طول بَدَنه الحقيقيّ.

وما أن اختفى الوحشُ في المياه حتى تفاخمت مجدداً واضطربت بسورة شديدة، ثم أخذت نسائمُ جليدية تهبّ. وتموجت القصباتُ بضراوةٍ وشرعت تنتفض، فيما كان ضربٌ من البُخار الكثيف يسمو على سطح حوض المياه، منتصباً انتصاب عمودٍ راح يُغلّفُ "شاكا" بكامله، حتى إنه لم يُعد يقتدر على تمييز أيّ شيء، ولئن كان على بضع خطوات إزاءه.

آنئذٍ من رحاب القصب طفق "الشيء" ينطق بصوتٍ جهير أجشّ:

«مبهُوْ مبهُوْ، لك الشكر والحمد... حمد... حمد...

"كالا ماد جونغ"! "كالا ماد جونغ"!

مبهو مبهو، لك الشكر والحمد... حمد... حمد...

"كالا ماد جونغ"! "كالا ماد جونغ"!

"الشيء" الهائل، القاطنُ في المياه... مياه... مياه...

"كالا ماد جونغ"! "كالا ماد جونغ"!

إنه لا يكشفُ عن ذاته إلا لمن ينعمون بخطيته

"كالا ماد جونغ"! "كالا ماد جونغ"!

لا يكتشف خطيته إلا من يقتنون الحول والحكمة ...

"كالا ماد جونغ" ! "كالا ماد جونغ" !»

وتكرّر هذا الكلامُ نوبتين ، ثم صمت "الشيء" . وانقضتْ برهةُ صمتٍ، ثم ارتفع جَرْسٌ رقيق رقيق كوشوشةٍ آية في النعومة أنشأت تنطق وتتكلم :

«تحيةً لك تحية ! كلُّ هذا القطر لكَ، يا ابن ربعي وشعبي !

ستغدو عظيماً، وستستمد سلطانك على سائر الأمم وعلى أمراء الأمم

وسوف تخضع لشوكة إمرتك شعوباً شتى عديدة :

ستعرف كيف تأمر وحتى الرياح والعواصف والأعاصير التي سوف تنبجسُ من البحار، وحتى الأمواه العميقة التي تزخرُ بها الأنهارُ الفسيحة المديدة .

وكلُّ ما بريءَ وكوِّن سينهضُ بإنجاز كل ما تصدره من أوامرك ونواهيك :

وسوف يجثون على قدميك، أجل ! يا للحقارة والمهانة ! يا للخجل والوضاعة! ...

أما أنت، فما حرص ألا تزيغ أبداً عن الطريق التي رُسمتْ لك . »

وما كان بوسع عيني "شاكا" أن تميزا شيئاً من جراء البخار المتلبد الذي كان يكتنفه من كل فج وجانب، غير أنه سَمِعَ هذه الأقوال سَمْعَ كلتي أذنيه دون أن يعي تماماً مغزاها . وحين صمت النطق بالكلمات، بدا هذا النوع من الضباب يتدحرج على ذاته وينأى عن شخص الفتى الشاب ولم يهبط إلى المياه التي تصاعد منها ولكنّه تبدّد تبدّداً ذاتياً كاملاً، إلا إن كان شخصُ "شاكا" قد امتصه بتمامه .

أما والدته "ناندي" فقد أبصرت سيّدة المياه العميقة وشاهدتها تفور وتثور في كل حدب وصوب، كما رأت القصبات تضطرب اضطراباً عنيفاً، إلا أنها لم تسمع الكلمات التي لفظت برغم أنها لبثت واقفة بحذاء الموقع، وهذا ما قد يدعونا إلى الظن في أنّ هذه الكلم ما كانت معدة إلا لمسمعي "شاكا" وحده ...

عقب هذه الحوادث الخارقة، إرتدى الفتى ثيابه، وعاد إلى منزله. وفيما كان يدخل القرية انبثقت أشعة الشمس الأولى وطفقت تُنير الأكواخ. ومن ثمّ، حرصت والدته على أن تعركه بالعقاقير الموصى بها، كما سبق أن صدر لها الإيعازُ بأن تفعل.

في ذاك اليوم بعينه، بعثت "ناندى" برسولٍ إلى "زويده"[1] بقصد إبلاغ الطبيبة تلك الحوادث، وهي التي كانت تستشيرها حتى ذاك الحين. وعاد الرسول وأخبر بأن تلك المرأة الطبيبة كانت تعاني من مرض عضالٍ أصابها إصابةً بالغة، فلا يتسنى لها المجيء في الحال، على رغبتها في القدوم إلى الأم وولدها، فطلبت من الرسول أن يخبر "ناندى" أنها سوف تأتي حالما تتمكن من تحمل مشقة الارتحال، وفي نهاية الشهر إن تماثلت إلى الشفاء. لكنها أضافت أنّهُ في حالِ تعذر مجيئها، يترتب على الأم وولدها أن يشخصا إلى محلّة "زويده" كيما يستشيرانها في منزلها.

وانقضى الشهر دون أن تأتي تلك المرأة. فجمع "شاكا" ووالدته أهبة سفرهما إلى "زويده". وكانا على وشك الرحيل حين وفد رسول جديد بأخبار سيئة: فالصديقة تخبر "شاكا" ووالدته أن طبيبتهما التيمية، قد قضت نحبها وصارت إلى أجدادها.

أحدث هذا الأمر في كل من "ناندى" وابنها أثراً أذاب قلبهما غماً، ولا يسعنا أن نعبر عنه إلا بفكرةٍ قاصرةٍ هزيلة: مرارة خيبة الأمل، وغضبٌ مستوقد وارتباكٌ شديد... فماذا سيصنعان وقد حُرما منذئذ من تلك المرأة التي سبق لها أن وضعا جلّ ثقتهما في عقاقيرها؟ أما تحققت تماماً كافة نبوءاتها؟ فتساءلا ساعتئذ بقلقٍ شديد أين سيكون بوسعهما من الآن فصاعداً أن يجدا طبيباً آخر أميناً وصادقَ الفاعلية والجدوى.

---

(١) اسم امرأة صديقة للعائلة.

أما الرسول الوافد من "زويده" إذ شاهد اضطرابهما فاستأنف كلامه قائلاً لهما: «قبل أن تتوفى طبيبتكما أوصتني بأن أقول لكما ألا تتأسفا وتحزنا. فحين اعتلّت وادركت أنها لن تتماثل إلى الشفاء أرسلت إلى مكان قصي بعيدٍ من يستدعي الشخص الذي لقنها هي فيما مضى كل فن العقاقير، بل بادرت إلى أمر آخر أيضاً: فقد التمست منه أن يولي اهتمامه "بشاكا" وأن يكمل تماماً مراحل العناية الطبية والمسارة التي بدأتها مع الفتى الشاب ولم يتسنّ لها إتمامها، لأنها تيقنّت من حتفها الوشيك.»

وأردف الرسول بقوله: «ومن البديهي أنّ من سينهض بهذه المهمة قد كان معلّم ومدرب الطبيبة التي عالجتكما حتى الآن، فهو بالتالي أرفع شأناً بكثير في معرفة ،الجذور والرُقى والتعاويذ والتحكم الحذق بشتى أنواعها. وإلى جانب ذلك، ليس هذا الرجل مجرّد طبيب تيميّ، بل هو "إيسانوسي" أي عرّاف. ومن غير المجدي أن تأخذا بالبحث عنه، لأنه هو الذي سيفد إليكما، وسيتمكن من العثور عليكما متوسلاً بالتنبؤ والعرافة. والمرأة التي أولتكما عنايتها حتى الآن، ما كانت تستخدم في فنها إلا عقاقير وكل ماهو زهيد بسيط منها. أما من سيأتي إليكما فيستخدم بالأحرى ذكاءه... وإن تعرضتما لتهديد خطر ما، فسوف يكشفه مسبقاً بفترة طويلة، فيتيح لكما ما يقتضي ذلك من مهلة كافية لتحاشي هذا الخطر. وهو يحدد بدقة أين ستندلع الحرب المقبلة وحتى قبل أن يستطيع سواد الناس التفكير باحتمال قتالٍ وشيك. بل بإمكانه أن يتنبأ بمن سيكون المنتصر في الحرب.

«فالمرأة التي شملتكما بعنايتها الطبية حتى هذا الحين كلفتني بالتالي أن أقول وأكرر ما يلي: "إستعيدا ثقتكما، ولا يقلقن أحد منكما، فلم تفقدا بعد شيئاً"»

وأسدى هذا الخبر عزاءً عظيماً إلى "ناندى وابنها، في تداعي عزيمتهما إذ سمعا هذا الخطاب. وقال أحدهما للآخر: الطبيبة على حق، فنحن لم نخسر

شيئاً، ولكن ينبغي ألا يتأخر من أعلن لنا عن مجيئه، فالمخاطر تحيق بنا من كل فج وصوب...

الحق يقال أن الناس أخذوا يُلطخون سمعة الشابّ الفتى في تلك الفترة بعينها، فيَدُسون عليه بنمائمهم، ولا سيّما منهم الشبّان الذين قمعهم في المعارك. وكان العديد منهم يتقولون أنه قد تلقّى من القزم «تيكولوشي»(١) تشطيبات جلده السحرية التي دأبت على منحه تلك المهارة الخارقة في المعارك بضربات العصيّ، الأمر الذي يُفسِّر أيضاً أنه ما كان قط يُولّي هارباً عقب تلاحم المقاتلين، وكان آخرون يؤكدون أن والدته قد أنجبت من صلب «تيكولوشي»(٢) ومن جرّاء هذا، طرده والده من منزله مع والدته دون أيّ احتمالٍ للرحمة والشفقة، مع أن أباهُ قد وهب فيما ضمى - سعياً إلى زواجه بهذه المرأة - عدداً وفيراً من الماشية. ولكنْ، وعلى نحو خاصّ، تفشّت إشاعةٌ مُلحّة، ألا وهي أن "شاكا" لم يكوَّن كبقية البشر، والدليل على هذا أن والدته لم تحبل به (كما يؤكد بعض الأشخاص المُطّلعين تماماً) إلاّ بضعةَ أشهرٍ بالكاد، وليس طوال الزمان الذي تحبل فيه النساءُ عادةً.

وكانوا يُشيعون على "شاكا" كل هذه الإشاعات والشتائم متوخّين بأذيّتها إهلاكه سرّاً، دون أن يبلغ خبر موته العنيف "دينغ إيسّوايو" الجبّار الذي سوف يُوهمونه بأن "شاكا" قضى نحبه بداءٍ عضال أو أيضاً بأنه هلك فريسةً للوحوش الكاسرة.

غير أن صيْت "شاكا" ما فتئ يَترامى وينتشر بعيداً حتى بلغ مسمعَي "دينغ إيسّوايو"، فاستبدت رغبةٌ عارمة بذاك السيد العظيم، في أن يلتقي الفتى الشاب "شاكا"، لا ابتغاءَ للتعرّف عليه وحسب، بل لأنه يتوخى إدراجه في عداد جُنده.

---

(١) تيكولوشي: قزم شرير يقيم سكناه على ضفاف المياه.

(٢) جبّارٌ عظيم يسيطر على المنطقة.

الإيغنامُ الغامض (١)

للأديبة "ماري كارولين نزويي"

(الكونغو- كينشاسا)

توطئة المؤلفة:

كانت مملكة آبائي أرضاً تُنيرها شمسُ
حكمةٍ وشعرٍ. أما اليوم فعلى غرار امرأةٍ
فقيرةٍ تلتقطُ أوراقاً ميتةً لتؤججَ بها
النار التي طفقت تشتعل لتوها، فسأجعلكم
تعيشون هذا العالم، وقد طمسته في أنظارنا
يدُ المكان وقدمُ الزمان، ذاكمُ العالم الذي
لا تزال خواطره تثير صدىً يدوّي في حنايا
قلبي وأعماق كياني.

كان ثمة فتاة... فتاة عانسٌ تقضي أيام حياتها في قرية غريبة الشكل والمظهر، تلقي سماؤها انعكاسات وردية خضراء- إنها قريةٌ من نسج الخيال-. وكان الجميعُ يدعون هذه الفتاة العانس "نْسِيا". وقد سبق لها فشاهدت، وهي بكرُ عدةِ إخوةٍ لها، جميع الفصول تتعاقب، دون أن تصادف هي رجلاً واحداً

(١) إيغنام: "جنس من النباتات المعمرة درناتها نشوية تؤكل". (المنهل)

يرغبُ في أن يقرن مصيره بمصيرها. ولبثت "نْسيا" تقطن في منزل والديها، وقد انقضى زمان مديد على زواج كافة أترابها، وحتى أخواتها الصغيرات، فتمتعن بمباهج الأمومة وأفراحها.

وظلّت "نسيا" عانساً في منزلها الأبويّ، وجميع القرويين يهزأون بها ويضحكون، وينسجون بضع أغنيات حول قدرها. إلا أنهم في قرارة أنفسهم، يأسفون وينتحبون على مصير هذه العانس الغشيمة في تصرفها المنكودة في طالعها وحظها: فلا حبة ذرة، ولا حبة فستق، ولا بذرة أخرى تلقي بها في التربة فتعطي غلالاً أو مردوداً. فكانت تعود من الحقل، إبان الحصاد، خاويةَ الوفاض عقب جهود مديدة بذلتها باطلاً.

هل كانت تحاول أن تخطو خطوة رقص سريعة تحت أنظار القمر العذبة، وفي روعة بنات القمر (١) النيرات ونجومه المتلألئة؟ وهل تستطيع أن ترتجل لحناً في رحاب كورس مسعور مهتاج يضم فتيات يشفعن ثرثرتهن النافلة بقرع طبول (التمتامات) الرزينة الوقورة؟ وهل كانت تقتدر على أن تسحر الأجواء بابتسامة أو بنظرة بوسعها أن تصرف عن القلوب الخائبة بعض دخان المرارة وضباب الكآبة؟

ليس في طاقتي أن أجيب عن هذه التساؤلات! ...

أما القرويون بجملتهم فكانوا يهزأون بالعانس "نسيا"، ويضحكون، وينسجون أغنيات حول قدرها المرير. إلا أنهم ينتحبون في أعماق سريرتهم على مصير هذه العانس، وهي تبدو خاضعة لقوانين الحظ ومذعنة لشريعة المقادير.

هاهو فصل الجفاف قد وفد كعادته، لا يرحم كل من في أنفه نسمة حية من الكائنات ولا يشفق عليها: فلا قطرة مطر سقطت، ولا بقعة خضار نبتت. وغالباً ما يذهب السكان إلى الغابة بغية صيد السمك وامتياح المياه. إلا أنهم كانوا، عند اقتراب فصل الأمطار، يستصلحون التربة ويعدونها لمزروعات جديدة.

---

(١) تقول اسطورة زنجيقية (أي: زنجية افريقية) أن القمر تزوج من الشمس فأنجبا نجوماً وكواكب ومذنبات...

بفارغ الصبر كانوا ينتظرون قدوم هذا الفصل فقد ينعش الطبيعة ويحييها. وبفضل هذا الفصل، قد يؤتون معظم ما يحتاجون إليه. ساعتئذ تَعُبّ الأرض أمطار السماء عباً شديداً لكي تهب النباتات الحياة، وتُقَوّت أوراق الأشجار الباسقة التي تنصب في كبد السماء ذؤابة رؤوسها. وبخيرات هذا الفصل، تتبرعم البراعم، وتتفتق الازهار، فتوشي الطبيعة [وكأنها تبغي أن تتوج ريشة الرسم الحاذقة بين أنامل الله الرحمن الرحيم] (١).

لبثت "نسيا" هي أيضاً تنتظر قدوم فصل الأمطار بخطواته المتئدة، بل الأكيدة. أما لبث الجفاف يحتل دوماً كيانها، ويقطن وجودها؟ أما الآن، فكأن صوتاً غامضاً قد نفذ إلى حنايا قلبها فاخترقه، وكأن النسيم، وهو يحمل الأمل ويرنق برفق ولين على نفسها، قد استحال زوبعة إعصار. وطفقت العانس تتلبث وتتنتظر بخاصة هذا الفصل الجديد. لله دره من موسم عذب لطيف! يا له من موسم فتنة وجمال! فهل كان هذا الفصل يدخر لها اكتشاف كنز وثروة؟ وهل سيأتيها هذا الفصل بهناء حياتها، هذا الفصل الذي ينشد أغنيات على ملامس الطبيعة الموسيقية؟ ...

ها هي "نسيا" تغرق في الحلم والأمل ... أمل مستمر ليس له انقطاع. وبرغم افتقادها العديد من المواهب فهي تنطوي على ضياء ضئيل ينير أعماق سريرتها السحيقة ألا وهو الرجاء الذي يحمل إليها الوعد بالحياة، وأمنية الحب والبهجة، الرجاء الذي يكمن تحت أنامله حظ البشر الأخير!

هاهو فصل الشتاء قد حلّ أخيراً. وإبان هذا الفصل وسم أمرٌ جديد حياة "نسيا" وقهر كيانها ... وكان القرويون قد دأبوا بحَمِيّةٍ جديدة غامرة على أعمال المروج والحقول. وكانت الفتاة على غرارهم قد أزالت أشواكاً وحشائش مؤذية عن مساحة من الأرض واسعة بما يكفي، وقريبة جداً من فرجة داخل الغابة. وذهبت كل يوم إلى تلك الارض لبذر الحبوب في التربة فينةً، ولاجتثاث الاعشاب الرديئة فينةً أخرى.

(١) النص يضع هذه الجملة بين [...]

وذات يوم وقد استيقظت الفتاة العانس عند انبلاج الصباح، إنصرفت عن كوخها قبل بزوغ الشمس، فأبصرت أشعة نيّرة تهبط على جسدها، وسمعت في قرارة دخيلتها السحيقة صوتاً، صوتاً غريباً بجرسه، صوتاً غير مألوف، صوتاً يتحدث إليها ويقول:

«إذهبي ! عبر المفازات والادغال !

إذهبي ! يا ابنة المروج والجداول !

إذهبي إلى البعيد البعيد !

هناك حيث ينتظرك أحدهم.

ستهبين يديك الواثقتين

فتنغلقان

وقد ضمتهما بشدة

نفحة الرجل الغامض الخفي

إذهبي يا ابنة الامطار والرياح !

فحين ستنفتح يداك

سترين أجنحة الفرح والحبور

تنطلق منهما إنطلاقة العطف والحنان

لتحط على نَحْرِكِ وفؤادك ! »

وحاولت "نسيا" عبثاً أن تخنق هذا الصوت الذي يتكلم في أعماقها ويخلق أمام ناظريها سراباً من الغبطة والسعادة.

* * *

في اليوم التالي، ساعة الاستيقاظ المألوفة، ما أن طفق الربع يكنسون فناءات منازلهم وينظفونها، حتى كانت "نسيا" قد أعدت سلة زوادتها اليومية، فوضعتها على يأفوخ رأسها، وانطلقت...

إلى أين كان بوسعها أن تمضي إن لم يكن حيث اعتادت أن تذهب كل يوم إلى حقلها؟ وهل ستتوقف عند سماعها ذاك الصوت -وقد يكون ساخراً بها - ذاك الصوت الذي قد يُسقط في روحها بعض السراب من سعادة مجهولة، حتى تلك الآونة، فتعجز عن إدراكها ؟

كلا ! مضت الفتاة وقد تنطقت بالعزم وتزودت بالإقدام. ولدى بلوغها طرف الغابة تعثرت خطواتها إذ اصطدمت قدمها اليمنى بجذر ثخين. قدمها اليمنى اصطدمت به ! ويُنظر إلى هذا الأمر بمثابة فأل يحمل في طياته السعادة ! إي نعم ! قدمها اليمنى !... وكفت "نسيا" عن المسير قدماً، وراح قلبها يخفق ويخفق. وكانت تتجاوب مع هذه الخفقات النغمة الخفية من الصوت المنبثق في قرارة ذاتها وهو يتحدث إليها ويقول:

«إذهبي ! عبر المفازات والادغال !

إذهبي ! يا ابنة المروج والجداول !

إذهبي إلى البعيد البعيد !

هناك حيث ينتظرك أحدهم.

ستهبين يديك الواثقتين

فتنغلقان

وقد ضمتهما بشدة

نغمة الرجل الغامض الخفي

إذهبي يا ابنة الامطار والرياح !

فحين ستنفتح يداك

سترين أجنحة الفرح والحبور

تنطلق منهما انطلاقة العطف والحنان

لتحط على نَحْرِكِ وفؤادك !»

استأنفت العانس مسيرها فهي لا تزال بعيدة عن الساقية حيث اعتادت أن تستحم. وإذاك سمعت - هذا الامر غريب !- خرير الساقية يتناغم وموسيقى رقيقة عذبة. ترى ما بمقدور أغنية هذه الساقية أن تعني ؟ ما كان خريرها يسمع عادة عن بعد ! فهل كانت تنبئها بحدثٍ وشيك، بما يسعدها أو يتعسها ؟ أم هل كانت تتناغم هي أيضاً وجملة الاصوات الناعمة التي تبدو وكأنها تسخر منها، ويهزأ بقدرها الكئيب ؟ ما كان في طاقة "نسيا" أن تستبطن حقيقة كل هذه الأمور. وأفضت أخيراً إلى حقلها" ولشد ما دهشت لما أبصرت على مدى كافة أرضها، نبتات صغيرة تنبت من تربة الأرض. وطفقت الفتاة تجتث الاعشاب الضارة هذه الطفيليات التي تقتدر على أن تختلس قوت النبتات الصغيرة وقوتها بل وحياتها.

* * *

كانت الشمس ساطعة ترشق كل كائن بسهام أشعتها والسماء تلقي في تلك الآونة بشرر زمردي اللون يعوم في الفراغ ويكون منظراً طبيعياً يرتدي شكلاً موحداً في المنطقة الوسطى بين الارض ولا زورد السماء.

وشعرت الفتاة العانس أنها متعبة وهنة... فحزمت أمرها على العودة إلى منزلها. ومضت عبر الغابة تارة بخطوات صغيرة وئيدة وتارة بخطوات مديدة وهي تسير في نضارة تتجدد دونما هوادة وفي طراوة تبثها أوراق الاشجار، والنسائم

تهدهدها كما تهدهد شرائط متطاولة من أعشاب غضة تسترسل على التربة بساطاً سندسياً أخضر. وكانت "نسيا" تنصرف إلى منزلها وهي تعب بنهم نور الشمس وضياءها كما تعب الشرر الزمردي في تلك القرية الغريبة المدهشة. وعلى تلك الشاكلة دأبت تسير تارة بخطوات صغيرة وئيدة، وتارة بخطوات مديدة. ولبثت الفتاة العانس تسير وتسير ...

* * *

أجل كانت "نسيا" تسير ... وتمضي دون أي فتور ... وعلى حين بغتة عند منعطف قادومية ضيقة [1] طفق قلبها يجب ويخفق خفقاناً يشتد أكثر فأكثر ... ومن أعماق طاقة أعشاب على شفير ثغرة في التربة بل على حافة حفرة صغيرة كان يتصاعد صوت يتوسل إلى الفتاة العانس أن تقف. وشرعت "نسيا" تنظر مرتعدة فوجمت وصمتت محدقة بطاقة الأعشاب هذه من حيث ينبعث الصوت العجيب.

هاهي الفتاة قد توقفت! وغدا الصوت في هذه النوبة يتسم بالمزيد من الوقار والرصانة والتمس منها أن تتقدم وتدنو منه فامتثلت "نسيا" وتقدمت وغدا كل شيء أكثر سكينة فأكثر، في معظم الغابة وكأن الطبيعة نفسها تنصت إلى بوح غير متوقع إلى بوح يوشك أن يضفي فرحة سيلتحف بها كيان العانس ووجودها. وغدا كل شيء أبكم بل اشتد الصمت أكثر فأكثر آنئذ طفقت بضع خفقات أجنحة وطنين صراصير تائهة في أوراق الاشجار، وبعض حفيف الأوراق، طفق كل هذا ينقض من آن إلى آخر السكينة المهيمنة.

اقتربت "نسيا" من طاقة الاعشاب المتكلمة. فقالت لها الاعشاب: «إحفري هنا أمام قدميك، واحترسي واحرصي، لئلا تقتلعي جذوري، ولئلا تجرحيني!». فأنبرت الفتاة العانس، بكل ما بوسعها من لطف و تأن، تعكف على إزالة تربة الارض المحيطة بالمكان المشار إليه. وتوسلت في البداية بمجرفتها،

(١) قادوميه: درب صغيرة ضيقة لمن يمضي على قدميه.

ومن ثم تابعت عملها بيديها. وما كان يبدو عليها أنها في عجلة من أمرها. ولماذا تكون على عجلة من أمرها في هذه الأونة الراهنة، وقد باتت تحرز كثيراً أو قليلاً ما راح المستقبل يدخره لكافة آمالها وأمانيها. وبمقدار ما أوغلت في الحفر إكتسبت يداها المزيد من الاتقان والحذق... ولما انتهت "نسيا" من نبش جزءٍ غير قليل من التربة، أبصرت ظهور جسم من درنة. وعاودت إلى عملها بمزيد من اللطف والعناية، وإذا بالدرنة تكرر قولها: «إحترسي ألا تقتلعي جذوري وألا تجرحيني!» وتمكنت الفتاة من نبش الدرنة كاملة. وآنئذ بالذات، لحظت أن الدرنة كانت "إيغناماً" أجل كان الأمر يعني "إيغناما" من نوع غامض مجهول، في طاقته أن ينقل رسائل شفوية إلى الاحياء من البشر.

وكانت ابنة الحقول والادغال، إبنة الرياح والجداول، قد وهبت يديها الواثقتين، فكانتا آنذاك منغلقتين على "إيغنام" يلتحف بالغموض والمغيبات. وبعد حين، أصدر "الايغنام" إليها أوامره قائلاً: «هيا انطلقي إلى الساقية التي تسمعين جرس خريرها الخافت! هيا إلى هذه الساقية.» فخضعت "نسيا" كعادتها. وبعد مسيرة طويلة، بلغت عدوة الساقية ويداها لا تزالان منغلقتين على "الايغنام" السري الغامض. وتابع "الايغنام" يقول للفتاة العانس: «أغمريني في مياه النهر! واغسليني! ونقني! ولكن إحذري أن تنتزعي جذوري أو أن تجرحي جرمي!»

طفقت "نسيا" تغسل "الايغنام" وغسلته بحرص وحذق بحيث أن طيور السماء، وقد أتت تترصدهما في جوار المكان، فوجئت إذ شاهدت ذراتٍ من الرمل تتساقط من جسد "الايغنام"، وإذ شاهدت هذا الجسد يكتسب تدريجياً المزيد والمزيد من السواد، فيستعيد لون بشرته النقي كما في ما ضي الزمان.

أما الشمس فقد رنقت واستقرت في سُمت السماء وكبدها عند الظهيرة. وما كانت "نسيا" تشعر بوطأة حمّها، لأن كيانها بجملته راح يُحلّق في أجواز تلك

الغابة التي وهبتها للتو كنزاً ثميناً. ورغبت الفتاةُ رغبةً عارمةً أن تُدرك تمامَ السرّ الذي لا يزال الصوتُ ينطوي عليه حيالها صوتُ "الايغنام" الغامض المتلفّع بالاسرار.

وفي النهاية، إستجابت العانسُ "للايغنام" وجلّلتهُ بأحد مآزرها الزنجيقية الفضفاضة، وأقلته إلى منزلها، وخبأته في مضجعها. وبعد أن حرصت على مواراته جيّداً، تركته لوحده، وخرجت لتعدّ وجبة الغذاء. وفي غضون ذلك، ما فتيء الأمر غامضاً في ذهن "نسيا". وكانت تعنّ على ذهنها شتىّ الخواطر والافكار في شأن حياة البشر!.

«فما هو الإنسان، إنْ كان جوهره بالنظر إلى الكائنات الأخرى يقودُ حياته قيادةً حرةً واعية، وهو لا يزال تتقاذفهُ رياح "الصدف" وتجلبُ إليه المرارة فينةً وتخلق فينةً أخرى نغماً من أنغام الهناء والغبطة؟ فما هو الإنسان، وهو في عجزه عن التحكم برياح "الصدف" هذه، أو في عجزه عن قيادة هذه الرياح الزاخرة بالنزوات، فما هو "الانسان" إن استسلم إلى اللهو الخبيث القاسي يقوم به فردٌ من الكائنات يعجز روحه أن يرتقي إلى روح "الإنسان"؟ فما كنتُ أنا؟ وما سوف أغدو؟ وبعد تعاقب مديد من الفصول، ما سوف أصير أنا؟»

كذا كانت الفتاة العانس تطرح تساؤلات يلهجُ بها ذهنها بلهجة تشوبها الكآبة والأحزان! وكذا راحت تستغرق في تأملات حول حياتها وبقائها. وعلى حين غرةٍ هيمنت عليها رغبةٌ جنونية في ولوج كوخها...

* * *

هنا، قد يتسنى للعانس "نسيا" وَحْدَها أن تُعْرِبَ لكم عما اجتاحها من شعور. أما أنا، فما أعرفه هو أن تلك الفتاة العانس، لما وطئت عتبة الباب، ترنحت وهوت على الأرض، وربما كان انهيارها ناجماً عن فيضٍ من النور والضياء كان ينبجس من كوخها. فما الذي حدث؟...

هيا انصتوا وأرهفوا مسامعكم إلي!...

كان يجلس على سرير الفتاة العانس رجل شاب ممشوق القوام له من الجمال الرجولي البارع مالا نظير له ... لا جرم أنه رجلٌ يهب الفتاة نفسه كما يحيى معها حياةً مشتركة. أجل، كان هو بالحقيقة زوج "نسيا".

والايغنام ؟ ... إنّه تحول إلى زوجٍ، إلى بعلٍ...

* * *

لم يكن زوج "نسيا" يعاني من أي جرح، ذلك أنها امتثلت لصوت "الايغنام" فغدت حركات يديها لطيفة في اكتساب كنزها. وبعد هنيهات، نهضت "نسيا" من سقوطها، فقدؤال تألق النور وتوهجه، وهاهي الآن تنعم برؤية واضحةٍ جليّةٍ. واقتربت من الرجل لتلقي عليه التحية. فقال لها بصوته الوقور:

«تحيةً يا ابنة المروج والأدغال !

لستُ البتة "ايغناماً"

لست "ايغناماً" يتوارى تحت طاقةٍ من الاعشاب

في كبدِ غابةٍ عملاقة ماردة

تجوزها أضواءُ السماءِ الخضراء !

تحيةً يا ابنة الرياح والسواقي

لا جرمَ أني زوجك

وها أنا نفسي أهبك

كيما نعيش ونلبث سويّةً

فنحيى حياةً مثمرةً خصيبة

عامرةً بالمثل العليا

زاخرةً بالحقيقة والإقدام !»

كانت غبطةُ "نسيا" فائقةً عارمةً لايطالها وصف لسان البشر. وطفحت سعادتها الغامرة طفوحاً يتخطى كل المقاييس والحدود.

أجل، كانت بهجةُ الفتاة تتجاوز كل صياغةٍ وتعبير، وغمرتها غبطةٌ لا قرار لها فتكاد تمتزج بالسماء اللامحدودة، وبالأفق اللانهائي. واحتفلت "نسيا" مع بعلها بقرانهما، خفيةً عن كل ناظرٍ بشري، لأن زوجها أسرَّ لها بمكنون قلبه متفوهاً بهذه الكلمات:

«ها أنا نفسي أهبكِ

بصفتي زوجاً لك

لكنْ، تحلّيْ بالحرص والحذر!

أنا بعلٌ لك

ويتحتم ألا تبصرني أية نظرة

إلا النظرات الأولى

التي شاهدتني بها.»

فأجابته "نسيا":

«هيا اطمئن يا زوجي!

في هذا العالم أنا وحيدة،

لا أمَّ ولا والد لي

لا أخ ولا شقيقة!

فمن بمقدوره إذن أن يراك؟»

تعاقبت بعدئذ أشهر قمرية عديدة، وتتالت الفصول تترى. وتمكنت "نسيا" في نهاية المطاف. والهناء يغمر حنايا كيانها، أن تخطو خطوة راقصة، ونعمت هي أيضاً بمتعة الأمومة وبهجتها... فدهش كافة القرويين دهشةً عظيمةً، فالوالدان وحدهما كانا على علم بأن ابنتهما قد حظيت أخيراً بزوج لها، غير أنه يتسربل بالغيب والغموض، وليس بوسعهما أن يشاهداه بأمّ أعينهما، ولبث الأمر سراً دفيناً في حياتهما.

كانت "نسيا" تنطلق كل يوم إلى حقلها، وشفتاها ترنمان على الدوام أغنيةً ما، وتبقى منهمكةً في العمل حتى هبوط الليل. وشب ابنها يترعرع ويفتح عينيه على الأضواء الوردية الناعمة تهطل هطول المطر على تلك القرية الغريبة المدهشة.

وتبتهج نفس "نسيا" ابتهاجاً عارماً حين تعود كل مساء إلى منزلها وتلتقي مجدداً بزوجها وابنها ووالديها في تمام الدعةِ والطمأنينة.

غير أن القدر فظٌّ غليظٌ الكبد ! ...

ذات يوم إذ كانت "نسيا" منهمكة تفلح بعزم قطعة أرضها الصغيرة، أخذ قلبها يضطرب ويخفق وشعرت بحمٍّ أشعة الشمس ينفذ إلى أعماق كيانها، ويتسلل إلى ذرات نفسها. فكفّت عن كل جهد وعزفت عن العمل وأعادت مجرفتها إلى داخل قفتها وحملتها إلى كوخها.

لم تسر طويلاً حين تعثرت خطواتها فقدمها اليسرى اصطدمت للتوّ بجذر شجرة غليظ، بقدمها اليسرى اصطدمت به في هذه النوبة إي نعم ! بقدمها اليسرى ! وينظر إلى هذا الأمر بخشية لأنه طالع مشؤوم. وسارت بخطواتٍ مديدة، والدموع تنهمر من مآقيها، وهي مستغرقة في تأملاتها.

«فما هو الإنسان، إن كان جوهره، بالنظر إلى الكائنات الأخرى، يحيى حياته ويقودها قيادة حرة واعية، وهو لا يزال تتقاذفه رياح "الصدف" وتجلب إليه المرارة فينةً، وفينةً أخرى تخلق له نغماً من أنغام الجذل والهناء ؟ فما هو "الانسان"، وهو في عجزه عن التحكم برياح "الصدف" هذه، أو في عجزه عن قيادة هذه الرياح الزاخرة بالنزوات، فما هو الإنسان إن استسلم إلى اللهو الخبيث القاسي يقوم به فرد من الكائنات يكون روحه أدنى بكثير من روح "الانسان" ؟ فما كنت أنا ؟ ... وما سوف أغدو ؟ ... وبعد تعاقب مديد من الفصول، ما سوف أصير أنا ؟»

كانت "نسيا" تخف مسرعة إلى كوخها أكثر فأكثر. ولما بلغت فناء دار والديها. ألفت كوخها مفتوحاً ووالدتها تهدهد ابنها باكياً بكاءً مريراً. فهوت المرأة

الشابة على الأرض وهي تتفوه بالكلمات التالية: «آه، يا أمي! لقد حرمت ابنتك من زهرة سعادتها!»

وبعد أن نهضت من سقوطها، دخلت كوخها فلم تجد أمّها التي حاولت أن تشرح لها أن صراخ حفيدها كان يمزّق القلوب فأثار أحاسيس قلبها. لكن "نسيا" شالت ابنها على ظهرها، وانطلقت تزفّ بسرعة إلى الغابة. ولم يكن يراودها من الخواطر إلا فكرةُ الذهاب إلى طاقة الاعشاب الناطقة، فتفضي إليها بحزنها وآلامها!

عند منعطف درب صغير بصرت المرأة الشابة زوجها العزيز يتراءى لها من بعيد. فأخذت تغنّي: «يا كنزي الثمين انتظرني!» أجابها زوجها: «لماذا أنتظرك، يا زوجتي، لماذا؟ لقد خدعتني إذ أكدت لي أنه لم يكن لك أب ولا أم ولا أخ ولا أخت. وها أنا الآن أنصرف عنك وأبتعد، وسأنصهر لتوي في العدم. وهناك في ما وراء هذه الحياة، في موطني حيث يُعبِّر كلُ شيءٍ عن رغباته ورجياته، هناك سأختفي.

إلا أن "نسيا" لبثت على مثابرتها يحدوها الأملُ في اللحاق بزوجها حيثما تراءى لها. ودأب يظهر لها نوبةً ويختفي عنها نوبةً، بينما لم تكفّ زوجته الشابة تغنّي: «يا زوجي العزيز، هيّا انتظرني ولا تدعني وحيدةً!»

وفي النهاية، رقّ قلبه لزوجته التي محضته ودّها وخالصته حبّها، وتلبث ينتظرها. وحين وصلت "نسيا" إلي جانبه لحظت أن بقعةً من المياه إنبسطت عند أقدامهما. لم تكن نبعاً ولا ساقية ولا نهراً ولا بحيرة ولا مستنقعاً. وقال لها رجلها: «أرى أنك صدقتني الود واخلصت لي حبكِ. ولكن، إن رغبتِ حقاً في اللحاق بي، إقبلي منذ هذا الحين أن تقاسي المحنَ القاسية إذ يتحتم عليكِ أن تعاني الشدائد والمكاره فيما وراء هذه الحياة».

كانت الامرأة الشابة تتأمل صامتةً الأمواج تتوافد من آنٍ إلى آخر فتغسل أقدامها. وأردف زوجها بقوله: «إن توخيت أن تلبثي زوجتي وتستبقي لك الحياة، لا بد لك من الاذعان لنصائحي. فحين سنبلغ ما وراء الحياة، ستجيبين بكلمة

"تحية" على كلِّ ورقة تختلج، كلِّ ماعز تغثو، كلّ كلبٍ ينبح، كل جرادة تهفو بأجنحتها. وبموجزٍ الكلام: أجيبي بكلمة "تحية" على أخفّ نأمة تصدر عن الطبيعة حولك».

ما أن طلب منها أن تلحق به حتى انغمس الرجلُ في المياه وغطست المرأة الشابة بدورها، ضامةً ابنها إلى صدرها ضمةً شديدة. وسرعان ما اجتازا قطعةَ المياه، وهي التخوم ما بين الأحياء والراقدين.

على الضفة الأخرى، إرتعشت ورقة، فأجابت "نسيا" تلك الرعشة بقولها "تحية". ولم يعد زوجها يفارقها. وكانا يسيران وقتذاك في قرية خالية خاوية، لا كوخ فيها ولا وجه انسان. أما المرأة الشابة، فما انقطعت عن الإجابة بقولها "تحية" لأخفّ حركة أو نأمةٍ تقوم بها الطبيعة حولها.

* * *

وإبان هبوط عتمة المساءِ وصلت "نسيا" مع رجلها إلى أمام كوخ خرب خراباً شديداً، الكوخ الوحيد الذي استطاعت المرأة الشابة أن تراه. وبعد برهة جلب لها زوجها ثلاث قطع من "المنيهوت" [1] المحمص وقال لها: «هوذا غذاؤكِ! لن تأكلي شيئاً آخر سوى هذه القطع. وسوف تحافظين على هذه القدر طافحة بالماء. وعليك أن تؤججي نار الموقد المدخن أمام عينيك، وأن تضعي عليه القدر كيما تحمي الماء إلى درجة ثابتة. وكل شيء كائناً ما كان سترينه يهبط من السماء، عليك أن تغمسيه في الماء الساخن، ومن ثم أن تضعيه على ورقة خضراء عريضة هي الآن إلى يمينك. أما أنا، فأصعد الآن متسلقاً سطح هذا الكوخ الهديم. فهناك هو منزلي وإلى هناك أنا ذاهب لأليّن أعضاء جسدي الخدرة.»

ولما بقيت "نسيا" وحدها مع ابنها أكلت قطع "المنيهوت" الثلاثة، وعكفت على تأجيج نار الموقد وتسعيرها دونما انقطاع- تُرى ماكان باستطاعة ثلاثة قطعٍ من "المنيهوت" أن تجلبه لجوفها الخاوي السغب؟

---

(١) "منيهوت": جنس من النباتات يُستخرج من جذورها الدرنة دقيق نشوي يؤكل.

كان الصمت مطبقاً على كافة الجوار . فليس ثمة نور وليس ثمة ضوء قمر . وأخذت هذه العزلة وهذه الظلمات التي كانت تمتزج فيها خشية يقصر تعبير اللسان عنها أخذت جميعها تتثاقل باهظة نفس "نسيا" وكاهلها ! ... فهل ستعود ثانيةً إلى قريتها ومسقط رأسها ؟ وهل يوماً ما ستبصر من جديد والديها ؟ أم هل انصهرت مع زوجها انصهاراً أبدياً في عدم عامر بالحزن والكآبة ؟

رغم أن المرأة الشابة شعرت بأنها مهملة ومكتئبة ما برحت ابنة "الأمل" و "الاخلاص" . فامتثلت بدقة محكمة للنصائح التي أسداها زوجها لها . وفيما كانت مسترسلة كلياً إلي تأملاتها شاهدت المرأة الشابة شيئاً يهبط من جلد السماء . وبيد مرتعشة أمسكت وتفحصته : وكان قطعة مشهيةمن اللحم المدخن . وإذ كان الجوع يضور جوفها حملت هذا الشيء إلى فمها وإذا بقلبها يناجيها بقوله : «لا ، يا ابنة "الصمود المنيع" ! تذكري كلمات زوجك : كل ما سترينه يسقط من السماء إغمسيه في هذا الماء الساخن ، ومن ثم ضعيه على الورقة الخضراء العريضة ، وهي على يمينك» . وما أن سمعت صوت قلبها حتى أذعنت "نسيا" فغمرت قطعة اللحم في الماء الساخن ثم وضعتها على الورقة العريضة ، وانبرت تؤجج النار وتسعرها . غير أن الجوع الذي تعاني منه ، والعزلة المرهقة لنفسها ، واليأس الذي يراودها ولاينِي كانت هذه المكاره جمعاء محناً وتجارب باهظة الشراسة عليها . إلا أن "نسيا" صمدت صموداً لا يعرف الكلل . وإذا بقطعة لحم أخرى تهبط من الأعلى ، فغمستها المرأة بحزمٍ في الماء الساخن ثم وضعتها على الورقة العريضة . وفي نهاية المطاف ، كان ثمة عدة قطع من اللحم ، يذكرها البعض منها ببضعة أجزاء من بدن الإنسان .

وبغتة ، صاح ديك ، وافترت بسمة صباح وليد على الأفق . وتعالى قرع "التمتامات" ، وأدهشت الانغام الحارة من الخشبيات الموسيقية (١) المرأة الشابة . وتعالت اصوات رجالٍ إلى أجواز السماء ، وعجت صرخات نسوة تشق رحاب الهواء من حول "نسياً" . وكل هذا القرع وكل هذه الأنغام الحادة ، وكل هذه الأصوات ، وكل هذه الصيحات ، إنبرى كل هذا الضجيج والجلبة يتوسل إلى

(١) خشبية موسيقية : آلة موسيقية يُعزف على قضبانها الخشبية بمطرقتين صغيرتين من الخشب .

الرجل الممشوق القوام، إلى الرجل المزدان بجمال رجولي لا صنْوله ولا نظير، أن يعاود إلى اتخاذ شكل إنسان. يالدهشة "نسيا" ! ويا للعجب العجاب ! شاهدت المرأة الشابةُ ساقاً تنتصب على قدم وساقاً أخرى... وكلتاهما تلتحمان ببطن...

وتساءلت المرأة الشابة في عمق سريرتها: «ماهي هذه الظاهرة ؟». ورأت مشدوهةً ينتصب أمامها جسد الرجل ذي الجمال الرجولي لا ندّله ولا نديد، كما سبق لها أن شاهدته في الوهلة الأولى، جالساً على مضجعها في كوخها وقريتها وموطن ولادتها.

وحدقت بعينها جاحظةً: فمن حولها تألقت ابتسامات ترتسم على وجوه رجالٍ ونساءٍ وأطفال وفدوا مهنئين إياها على إقدامها الراسخ ! فقد احتفظت بجسدزوجها جسداً سالماً سليماً لا خمشة فيه ولا خدشة ! وكانت أسرة زوجها - أسرة حميها - تهتزّ طرباً وغبطة وترفع عقيرتها بالغناء والثناء :

«تعالي يا ابنة المروج والأدغال !

فأنت الآن واحدة من ذوينا !

تعالي يا ابنة الرياح،

يا ابنة الأنهار والسواقي

هيا ادخلي صدر مثوانا وآنسينا !»

واستقبل الجميع "نسيا" وابنها. أما حموها، كبير ربع القرية ومولاها، فأقام حفلة وأولم وليمة في ذاك النهار، محتفياً بكنته الشجاعة وبحفيده الجميل. وبعد ئذٍ، لم تعد "نسيا" تعاني من دياجير الزمان ولوعة الأحزان فإقدامها وشدة شكيمتها وآمالها أفضت بها إلى اكتشاف السعادة الأزلية كما وهبتها حياة هناءٍ ونعيم.

أسطورة «غانا»

(زوال امبراطورية)

من السينيغال

ليستْ أسطورةُ «غانا» (أو نهاية الدولة) سوى أسطورةٍ حيّةٍ هائلة أُطلق عليها اسم «ثُعبان أواجادو». وانطلاقاً من قُطر «واغادو» أُنجز تأسيس امبراطوريةٍ مترامية الأرجاء، ثريّة الغنى، أقامت عاصمتها في «غانا»، وتُسمى هذه العاصمة أيضاً «غاناتا» أو «كُومْبي»

كانت «واجادو» منطقة مزدهرة ازدهاراً أُعجوبياً خارقاً. فالأمطار تَستمدُّ من الأرض غـذاءها، ومن ثم تنقلُه إلى حـقـولِ القطنِ والذرة البـيـضـاء والأشـجـار المثمرة، فيُغدق جميعها مواسم رائعة العطاءِ تردفُها دَفَقاتٌ ثريةٌ من نسغِ غايةٍ في الجزالة. وثمّةَ، دأبتْ أمطارٌ من ذهبٍ تهطل على هاتيك المنطقة مانحةً المعدن الثمين الذي لا بدّ أن تُنحت فيه مقابض عُصيٍّ الرجال ومهاميزهم، وحُليُّ نسائهم وأخراصهنّ وأقراطهن. . .

أما سكان ذاك القطر، فكانوا يُشكلّون فُسيـفساء بشرية شديدة الكثافة، تتعايش فيها شتّى القبائل والاثنيات، ومنها قبيلة «بامبارا» وهم محاربون يزدانون بفصاحةٍ جزيلة، ومن بينها قبيلة «ساراكوليه» وهـم فلاسفة ثرثارون، ومنها ربعُ «كاسونكيه» وقد ذاعَ صيتُ مُواهِبهم الغزيرة، ومن بينهم قـوم «پولهو» السادة العظماء المتشبثون بحياة الرعاة.

ودأبت نُسوة قوم «پولهو» على التزيّن بكريّاتٍ وازنةٍ من العنبر، يَصنعنَ منها قلائدَ لِنحورهنَّ النحاسية البشرة، كما يصنعنَ منها نجوماً على سماء مُعقَّدة تُشكّل عُرْفَ جُمَّة شعرهنّ. أمّا نساء «موسّو» فكانت خطواتهنّ تتّسم باللدونة والخفة، مقترنةً بإيقاع رقصٍ متّئد من أذرعهنّ المتحركة عبر غُضون الأنسجة الشفافة لأرديتهنّ الفضفاضة، ويتحلّين بذهب الأقراط والقلائد وأساور سواعدهنّ، وخلاخل أرجلهنّ، ويفوحُ منهن عرفُ طيب «السُّوماريْه» التي تلفّ بسلاسلها المديدة كواهلهنّ والتي يتضوّع عُطرها على صدورهن المليسات.

وكانَ مجملُ مُدنِ الامبراطورية ينعمُ بسورٍ سحريٍّ خفيٍّ يُبطل كلَّ حملةٍ عدوانية يشنُّها المجتاحون...

لم يكن ازدهارُ «غانا» من صنُع البشر فالامبراطورية تدينُ به لحيّةٍ جسيمةٍ بدينة يعبدُها الشيوخ والشباب. الحية هي الثعبان العظيم «بِيْدا» أو «بيدا» الذي يتخذ مثواه من بئرٍ سحيقة القاع. وقد فرضت التقاليد العريقة على القوم أن يمنحوا ذاك الثعبان تقدمةً سنوية تكفيريّة ألا وهي أجملُ فتاةٍ في الامبراطورية، مُزدانةً بكاملِ حليّها. فتحتّم على كلِّ قبيلةٍ وعشيرةٍ أن تنهض بهذه المهمة المقدسة، فتبذل كلٌّ منها بدورها تلك التضحية المؤلمة.

لكنْ، لا بدّ لكل طُغيانٍ على أرض البشر أن يلقى نهايته.

ألم يجرؤ، ذاتَ يومٍ، الرجل الشاب «ديا ألاياما»، على قتل سمكة جزيرة «بِنْتيَا»[1]، تلك السمكة الأسطورية التي كانت تنتصبُ من عُباب نهر النيجر، وقد ازدانَ خطمُها بحلقةٍ نُحاسيّةٍ عظيمة؟ وقد سبق لتلك السمكة أن فرضت أحكام استبدادها على قوم «سوركو» السذّج الذين أذعنوا لسَطوتِها بفزعٍ وهلعٍ.

وعلى هذا المنوال، حانت سنةٌ تحتّم فيها أيضاً أن تُقدّمَ لثعبان «واغادو» شهيدةٌ جديدةٌ، وهي فتاةٌ شابةٌ بارعة الجمال تدعى «سِيّا»، ومخطوبةٌ لشابٍّ

---

(١) جزيرة «بنتيا»: في نهر النيجر (جنوب "أسونغو"، في السينيغال).

صَمُوت سَكُوت يُدعى «أمادوسيفيدوكوتيه»[٢]. وكانت الفتاة تنعمُ بربيعها السادس عشر، وقد أصبحت إمرأةً عظيمةً في ذُؤابة الشباب، وعيناها النجلاوان السوداوان أوفرُ ضياءً من شمس الظهيرة، ونعومة شعرها وبشرتها تُضاهي نعومة أدق ما تكون الرمال. وكانت أروعُ الحلي تزيّنُ عقائص شعرها المتميّزة، كما تزين العذوبة جرْسَ صوتها، وحنيّة نهديها الكاعبين، وتناسقَ قدّها النحيل. أما خطيبُها أمادو الصموتُ، فقد تولّه بفتاته، وراح يُحبّها حباً يفوقُ كلّ ما لديه من مقدّسات ومحرّمات. وكان ربعُهما يُعانون من حُرقة ألم شديدة، إذ يُدركونَ اقترابَ اليوم المشؤوم الّذي سيشهدُ غَسقَهُ الفتاة «سيّا» المنذورة لتُمسي لقمةً يزدردُها ثُعبانُ «واغادو» المقدّس.

في عشية ذاكَ اليومِ المفُجعِ، أمضى الشابُّ أمادو سوادَ ليلة عذابٍ وجيعٍ، أذابه فيها غمٌّ جمٌّ لا محدود، فأضجعه محموماً زاخرَ الذهنِ بخواطر علقمية. فهو عاجز عن معارضته قراراً أصدره حتمياً شيوخُ قبيلته. ولئن تمرد عليه لكان تمرده تحدياً للحية المقدسة "بيدا". ويا لها من كارثة سيمنى بها كل من يقدم على تصرف يناهض رغبة الثعبان! فهل يتحتم عليه أن يقضي نحبه غماً وألماً؟ كذا لبث يتفكر، وخواطر العجز هذه تتردد كالصدى في وجدانه وهو متقوقع على ذاته مضجعاً على نحو يوحي بيأس مبرح وقنوط قاتل.

* * *

سَمَت غزالة الشمس بتؤدة في مشرقها وهي تشمل أمادو بأشعتها النقية، وبقرص يتخلله ضياء أرجواني. وشاهد الشابُّ، بذعر عميق نور الشمس يتسرب إليه من انفراج باب القشِّ، فغادر للحين كوخه كما يفعل إنسانٌ آليٌّ. وامتشق سيفه من غمده المبرقش الذي يقيه من الصداء. ولبث طوال بياضِ النهار يشحذ سلاحه على حجر رملي سعياً منه إلى أن يحيد عن نفسه قسطاً من شجونها وآلامها. وحين دلف الغسق إلى القرية، بات السيف ذرباً بالغ القطع والبتر بحيث أن حده يقطع الهواء...

(٢) سندعوه (أمادو)

إذا أفلت الشمس خلف الأفق مضى أمادو خفية عن كافة ربعه، واقترب من البئر التي اكتنفتها التقدمات والقرابين وحيث يقطن الثعبان المقدس "بيدا". وسرعان ما بنى هناك كوخاً يتوارى خلف لفيف من الأشجار، وثمة تلبث في مخباء أمين.

* * *

سبق لشيوخ القبيلة وأعيانها أن نظموا الموكب الذي يقود "سيا" إلى حتفها ضحية شعائرية. وقد غمرت الاكواخ ظلماتٌ تتكثف حولها. وبات الليل يغمر كل شيء بهوته السحيقة كما يغمر خواطر البشر وحناياهم... وعلى حين بغتة، تصاعدت رنات تمتامات مدوية، فاخترقت تلافيف الليل بسهامها التي أنارت الظلمات ناشرة في أرجائها معنىً ومدلولاً. وأشار الدويُّ إلى أن ساعة التضحية قد أزفت. وسعت التمتامات إلى أن تعرب عن اقترابها على الإيقاع المرح التقليدي الذي كان يقود - خلال مساءٍ يطفح بضوء القمر - إلى كوخ الزواج موكب الفتيات المديد، كما يقود غناءهن المشفوع بصفق الايادي شفعاً لطيفاً. إلا أن الطبول، على هذه الخلفية المرحة، طفقت في تلك الوهلة تصعد رنات تعرب عن صراخ العذابات ونحيب القلوب.

قد وشحوا «سيا» بأروع ما لديها من أوشحة وحلل. ودثروها بدثار فضفاض قد صنعته هي في أويقات فراغهما تحت ظلال أشجار التين الشقراء المزدانة بأوراقها الزرقاوات (١). وكان أملها في ذاك الحين أن تعد منه خماراً للإحتفال بزواجها. وتقدمت "سيا" تحت أجنحة الليل الليلاء، حين لا يميز الربع سوى الاصداء المأتمية تتصاعد متناثرة من تمتامات تبكي وتنوح، فيما يدفع الفتاة رهط من سادة قساة القلوب شطر المنية المحتومة. وعندما أفضوا إلى بضعة أذرع من مثوى الثعبان "بيدا" المقدس، أسمعها عميد الشيوخ الجملة الشعائرية الطافحة بالخضوع والاذعان قائلاً لها قبل أن يتركها:

- إبقي هنا! وأغفري لنا! ...

---

(١) اللون الأزرق، لون التفاؤل.

آنذاك، عجزت سيا أن تنتصب على ساقيها فخرت على ركبتيها وهي تستر ناظريها بيديها، شأن الارنب البرية الساذجة التي تزج برأسها داخل عوسجة، معتقدة أنها تتفادى كذا كل خطر يتهددها ولا تراه.

وللحين، انتصب من البئر رأس الثعبان "بيدا" المدبب، وارتقى في الظلمات ثم انثنى بحركة سريعة صوب الفتاة المتقوقعة على ذاتها، وقد التحفت كلياً بأرديتها الفضفاضة.

اشتم الثعبان "بيدا" فريسته بحذر، وعاود ينغمس فجأة في مياه مثواه العميق. وبعد حين شهق عالياً بدن الثعبان المديد المرن على نحو مباغت، وتألق جوفه وكافة حناياه. وتوقف برهة ثم أفاض على ضحيته رغوة رواله [٢]، وبحركة لم يطلها البصر، قفل يغوص ثانية في بئر مأواه.

أما السائل اللزج، الذي تَفّته الحية على "سيا"، فقد أرعدها هولاً واشمئزازاً. وإذ أخذت تصرخ وتزعق، سعت إلى أن تتحرر من حلتها السابغة التي اختلطت بعجينة كريهة إلتصقت بها فتجمدت ذعراً وهلعاً.

بيد أن أمادو خطيبها الصموت لبث متيقظاً في جنح الظلام، وتولته رعدة الهول إذ شاهد كل ما صنع الثعبان المقدس من تحركات ومناورات.

وبرغم فزعه وارتياعه، ما انفك على صفاء ذهنه وعاقلته، وعلى تشنج فكيه. فكان يعلم أن الحية لا تطيح بفريستها إلا أبان ظهورها الثالث من بئرها. فتلبث متأهباً وهو يتابع كل ما يجري بعين يقظة ساهرة: فقد أزف حين القتال.

ثم سما من البئر سهم أغبر اللون شاقولي الشكل منحرف المنحى في آن معاً. وانقض السهم، وهو يدور وينفتل على ذاته وعلى "سيا" وكان انقضاضه يذهل بدقته وحذاقته كل من يشاهده. غير أن الحية لم تبد من السرعة ما أوتي به

(٢) روال: لعاب الحيوان.

أمادو فقد صعقها بضربة فذة من سيفه، لا تلكؤ فيها ولا هفوة، فبتر رأسها ودرأ عن الفتاة خطيبته، وبسرعة قطرات المطر الهاطلة، رأساً ثانياً وثالثاً وخامساً وسابعاً. وكانت كل هذه الرؤوس تندفع بالعزم نفسه لازدراد "سيا" والتهامها. وقد عجز أي رأس للثعبان أن يباغت حسام أمادو، لأن ولهه بفتاته يفوق كل ما يكنه من إجلال لتميمته المقدسة.

طار رأس الحية الأخير وهو يقول:

- لن تهطل أمطار ماء على غانا، ولا أمطار ذهب، خلال سبعة أعوام وسبعة أشهر وسبعة أيام!

وولى الرأس بعيداً عن البئر فسقط في ربوع "بوريه". وراح بدن الثعبان يتشنج ويختلج بتلافيف هائلة الحجم وباتت تموجاتها هامدة على حافة البئر. وفي تشنج أخير برزت الحية من حجرها فتحطم ذيلها وتطايرت حطامه ساقطةً في وادي "ناليميه".

ولم يكن ثعبان واغادو سوى تميمة مقدسة، تنعم باقتدار جلل. ولم يخطىء اسياد القوم إذ فزعوا منها. وكان لا بد لهم من فتى متهور العاقلة والعزيمة لكي يتجرأ على الإطاحة بتلك التميمة وإبادتها. وخلال سبع سنوات، وسبعة أشهر، وسبعة أيام، لم تقطر على غانا أية قطرة من المطر. فغارت الأنهار ونضبت وباتت الأودية قاحلة جدباء، وأبسل الجوع والعطش عدداً وافراً من بني البشر، فولت فلولهم إلى أمصار أخرى ينتجعون فيها المزيد من سُبل الحياة الممكنة.

كذا انطمست إمبراطورية غانا الأوفر شهرةً، ومهد الحضارات الزنجية الافريقية ولم تعد روائع هاتيك الحضارة سوى ذكريات تتغنى بها القيثارات الإفريقية وأحلامها الخبيئة في أكفان كثبانٍ من الرمال كثيفةٍ.

المرأة والأعمى وإبليس
أو
إمرأة تتفوق على إبليس [1]

إن النسوة العجائز يزاولن البيع والشراء مزاولة محكمة. غير أنهن يهدمن المنازل والعائلات. فإما سبق لهن أن فقدن كل طراوة العمر ورواءه فجفت بشرتهن كما تجف الجلود، وفقدت قلوبهن حرارة دمائها السخية. وإما يمسين بطينات شحيمات. وقتئذٍ يفوح شحمهن بزنخ كريه، وتطفح رؤوسهن بخواطر سامة. ويدسم شعرهن ويشيب فيتعذر أن يغزل من أي ضرب من الخيوط. بل من الممكن أن يصنع من خناق للشنق. وتتهدل أثداؤهن مديدة خاوية، لأن الاطفال قد امتصوا كل خيراتها ولعل ابليس نفسه يعجز عن التفوق إذاك على أمثال هاتيك العجائز.

وهذا ماسأرويه لكم.

كان ثمة بلد إفريقي يدعى (ماتاسو). وذات يوم إنطلق منه (ماكافو)- أي رجل ضرير - قاصداً المدينة المجاورة لقريته ودخلها عبر سورها. ولم يعتم أن صادف امرأة عجوزاً تخرجُ من بيتها المجاور للسور. وحين كان ماكانو (الاعمى) يمر في الشارع شاهدته العجوز فخاطبت نفسها قائلة: هذا أمر حسن! وتقدمت إليه وبادرته بقولها:

---

(١) يعني العنوان الثاني أن المرأة أقوى من الخير والشر. والأعمى هنا يرمز إلى الخير، وإبليس إلى الشر. وسوف ندعو هذه المرأة: العجوز أو الشريرة، أو الشمطاء...

- أنت ضرير، تعال واسكن في بيتي ! أنت أعمى وكل إنسان يحسن إلى العميان. وسوف يرعاني الله إن استقبلتك في منزلي وآويتك فيه. تعال واسكن معي !

- حسناً ! أسكن عندك. لكن أنظري لا أمتلك غير هذه السلة.

- هيا، تعال معي ! سأسكنك في غرفة خاصة بك.

قادت المرأة ماكافو (الضرير) إلى داخل غرفة. فقال لها:

-حسناً ! الآن، أنا خارج فوراً إلى المدينة لكي أكسب شيئاً ينفعني. ولكني جلبت معي دجاجة داخل هذه السلة. فهل تستطيعين الاهتمام بها، لعلّها تبيض.

- سأعتني بها، وسيرعاني الله لأني سأهتم بك وبدجاجتك.

ما أن انصرف ماكانو حتى أخرجت العجوز الدجاجة من السلّة وذبحتها، وأصلحت منها وجبة شهية إلتهمتها سريعاً دونما تردد. وعاد الضرير مساءً إلى بيت مضيفته وقد أمضى بياض يومه ماشياً متسولاً. وسأل المرأة الشريرة.

-كيف حال دجاجتي ؟

-آه ! الدجاجة ؟ مسكينة هي الآن حظّها تعس جداً، ياضريري ! فقد خطفها الثعلب وافترسها.

-سيكون الله في عوني، أنا ودجاجتي.

وفي الغداة، بكّر ماكانو ناهضاً من فراشه، وقال للمرأة:

-أنا خارج حالاً، وسوف أُحاول أن أكسب شيئاً ينفعني

-إذهب كما تريد، يا ضريري ! فكلّ إنسان يُحسن بطيبة خاطرٍ إلى المكفوفين. هيّا اذهب وسيعطيك القوم عطاءً جزيلاً.

راح الضرير يطوف المدينة. وإذا به يصادف رجلاً ميسوراً سبق له أن أوعز إلى رجاله بأن يأتوه بما عزه ليتفقدها وينظر في احوالها. وإذ فرغ الغني من هذه المهمة شاهد ماكانو فوهبه عنزةً وهو يقول له:

-خذ هذه العنزة، وسيرى الله إحساني إليك.

إقتاد الاعمى العنزة وعاد أدراجه إلى منزل مضيفته حيث قال لها:

-هل يمكنك الاهتمام بعنزتي هذه؟

-إي نعم! وسيحسن الله إليّ لأني أهتم بك مثلما سأفعل بعنزتك هذه.

وما أن عاد (ماكافو) إلى المدينة حتى ساقت العجوز العنزة إلى اللحام. فذبحها وباع لحساب الشريرة لحمها.

عند حلول المساء، رجع الضرير إلى منزل مضيفته وسألها عن حال عنزته فقالت:

-آه! يا حسرتي عليها! هذه العنزة تعسة الحظ، يا ضريري! هاجمها الضبعُ فجأةً وقطعها إرباً وافترسها.

-سيكون الله في عوني، أنا وعنزتي. ها أنا خارج إلى المدينة لأكسب شيئاً يقوم بأودي.

-هيا افعل ما تريد يا ضريري! فكل إنسان يعطي العميان بطيبة نفس. أجل، إذهب! واليوم سيعطيك الربع كثيراً.

كذا قالت المضيفة. وغادر ماكافو المنزل ليجوب المدينة متسولاً. وإذا به يلتقي برجلٍ يدعى (مادوغو)، وقد وفد إلى المدينة وهو يسوق عدداً وافراً من الحمير التي تشولُ من السلع شتى أنواعها... وكان الحظ قد واتاه ببيع كل ما أتى به من بضائع، فأثرى واغتنى. وفيما هو منهمك بحساب ما قد كسبه من الأموال، بصر بالضرير، فأخذ برسن حمارٍ ووهبه إياه قائلاً:

-إليك هذا الحمار! وسيرى الله ما أفعل من إحسان!

تناول ماكافو رسن الدابة واقتادها إلى بيت الشمطاء حيث قال لها:

-هل يمكنك الاعتناء بحماري هذا؟

- سأفعل، ياضريري ! وسوف يحسن الله إليّ لأني أعتني بك وبحمارك.

كذا قالت المرأة وساقت الحمار. أما الضرير فقصد المدينة ثانيةً. وحالما غاب عن أنظار مضيفته ساقت الحمار إلى سوق الدواب وسألت: من يريد شراء هذا الحمار القويّ؟

تحلّق تجارُ الحمير حولها يستفحصون الدابة. وسرعان ما أقدم أحدهم على ابتياعه. واستوفت الشريرة ثمنهُ وعادت أدراجها.

عندما أتى المساء، قفل ماكافو عائداً إلى المنزل وسأل مضيفته عن حال حماره فأجابت:

-آه ! حمارك حظه سيء جداً ! بالحقيقة حظه سيء. أطعمته علفاً وسقيته ماءً... ومن المؤكد أني علفته أكثر مما يحتاج إليه، فنشطت قوته، فقطع حبل عقاله وولى هارباً.

-ها أنا خارج لأبحث عنه.

-يا ضريري المسكين! أما تفكر بأنك مكفوف البصر ؟ ركضت أنا كثيراً خلف الحمار، ويمكنني تماماً أن أرى، ولم أعثر عليه. فكيف تستطيع أنت الضرير أن تفعل ذلك ؟

-أنت على صواب، أنا ضرير، ولكنّ الله سوف يساعدني أنا وحماري.

وفي غداة ذاك اليوم، نهض ماكافو بكرةً وقال لمضيفته:

-ها أنا خارج إلى المدينة لأكسب شيئاً يوفر لي طعامي.

-إذهب يا ضريري ! فكل الناس يكرمون بطيبة خاطر كل كفيف مثلك. إذهب ! سيحسنون إليك كثيراً

وإذ كان الضرير يجوب شوارع المدينة صادف رجلاً يدعى (غالاديما)، وكانت زوجته الأولى قد أنجبت له طفله البكر، وسبق للقوم أن هرعوا إليه مهنئين. فشرع يستقبلهم ويرحب خاصةً بأغنياء ربعه. وحين بصر (غالاديما) فجأة بالأعمى، أشار إلى أحد غلمانه قائلاً: إليّ بحصان. وعندما أتوه به قال:

-إني أهب الضرير هذا الحصان هديةً مني إليه، وسوف يأخذ الله في حسبانه هذه الحسنة.

أمسك ماكافو بمقود الحصان عائداً إلى المنزل حيث قال للمرأة الشمطاء:

-هل يمكنك أن تهتمي بحصاني هذا؟ وأن تربطيه وتحرصي عليه حرصاً جيداً؟

-سأعتني به كما تشاء، وسيكون الله إلى جانبي لأني أبذل عنايتي لك ولحصانك.

وانثنى الضرير عائداً إلى المدينة. وما أن ابتعد حتى قادت الشريرة الحصان إلى منزل رجل يدعى (سيركي كاسوا) وقالت:

-انظر هذا الحصان المطهم. كلفني رجل غريب بأن أبيعه له. أنظر! إنه جواد جسيم متين.

وتفحص الرجل الحصان وابتاعه. ونادت العجوز رجلين لكي ينقلا لها المال إلى دارها.

وحين عاد ماكافو إلى المنزل، سأل مضيفته عن حال حصانه، فأجابت:

-على رسلك! لا تتكلم بصوتٍ عالٍ لئلا يسمعك الناس!

-أسألك فقط عن حال حصاني. ما الذي حدث؟

-قلت لك على رسلك لئلا يسمعك الناس. فقد مرَّ أحد أعيان المدينة، وشاهد الحصان وقال إن الركوبة تلائمه، فاقتادها وانصرف.

-ها أنا ذاهب للحين لألتقي هذا الوجيه، وأسأله ماذا صنع بحصاني الذي وهبنيه (جالاديما).

-ياضريري المسكين! ألا تفكر بأنك أعمى وأنه أحد أعيان المدينة؟ إن ذهبت إليه فسوف تكون مقابلته وخيمةً وبيلةً عليك.

-لقد أصبت! أنا ضرير ولكنّ الله سوف يساعدني أنا وحصاني.

في الغداة، نهض ماكافو بكرةً وقال لمضيفته أنه خارج ليحاول كسب شيء يقتات به. فحبذت العجوز أن يفعل، لأن القوم يُحسنون إلى العميان بوفرة وسخاء. وانطلق الضرير، واجتاز السوق متابعاً طريقه دونما هواده. فأتى قبالته فرسان وجنود. وقابله (الجريمة) [1] وفرسانه يحيطون به شاكي السلاح، وكان عائداً من الحرب عقب تقويضه مدينةً بكاملها واغتنامه أحصنةً وجمالاً. وبصر (الجريمة) بالضرير فأشار إلى أحد رجاله قائلاً:

-إليّ بأحد الجمال النجيبة التي اغتنمناها.

وحين فعلوا وهب (الجريمة) الأعمى جملاً وقال:

-دونك يا ضريري هذا الجمل وسوف يكافئني الله على هذه الحسنة مكافأة جزيلة.

إقتاد ماكافو الجمل عائداً إلى المنزل حيث قال لربة منزله:

-وهبني الجريمةُ جملاً نجيباً. فهل بوسعك أن تعني به لئلا ينهزم فيستولي عليه الآخرون.

-سأفعل ما تريد، وستجد جملك حين تعود، والله يسمع ما أقول.

وأتمن ماكافو العجوز على جمله. فأناخته على حدة وعقلته. واستأنف الضرير جولته في شوارع المدينة وأزقتها.

ما أن انصرف الأعمى حتى فكت الشريرة عقال الجمل وقادته إلى النهر ليشرب. ثم عالجته بدواء مؤذ لتقضي عليه، لكن الحيوان لم يمت. فدست سماً في غذائه، أما الجمل فأبى أنْ يموت. وأخذت المرأة جرعةً وفيرةً من السم وأقحمتها في حلقه، غير أن الجمل لم يمت، بل استلقى على جانبه وطفق يرغو ويضج [2]. وعندما انداح على الأرض صاحت العجوز:

-هيا إليّ! هاهو جمل الأعمى يرغو ويكاد أن ينفق. اطعنوه برماحكم! لا تدعوه يتألم على هذا المنوال!...

---

(١) إسم رجل جبار.

(٢) رغا الجمل: صوّت متضايقاً.

إقترب بعض الربع ورأوا أن جمل ماكانو قد أصيب بمرض خطير . فحبلوا قوائمه بالحبال، وجروه إلى المدينة حتى بلغوا منزل المرأة فقالت لهم : -اتركوا الجمل قدام الباب، وسوف يجازيكم الله خيراً على هذه الفعلة الحسنة التي أسديتموها لضريري ماكانو .

عاد المكفوف مساءً إلى منزل مضيفته واقترب من الجثة، فعثرت قدمه بقوائم الجمل الميت فقال :

-أخ ! أيتها الشمطاء ! هل تضعين حطباً أمام الباب وتعرفين أن ضريراً يسكن في دارك . هل يتحتم عليّ أن أسقط أرضاً وأن أكسر إحدى ساقيّ ؟

-وهل سمعت بحطبٍ له رأس وسيقان ؟

-كيف هذا ؟

-هيّا ألمسه ! ستجد أن الحطب إنما هو جملك، فقد مات . إنهم أعطوك جملاً جريحاً، لقد جرح في القتال .

تلّمس ماكافو الجمل، وطأطأ قائلاً إن الله سيكون في عونه هو وجمله . وفي الغداة، نهض الضرير مبكراً وقال لمضيفته، إنه خارج ليحاول كسب شيءٍ ينتفع به، فقالت له العجوز :

-إفعل ما تشاء، يا ضريري ! فكل امرىء يهب العميان ما يستطيع . هيا اذهب ! سوف يعطونك عطاءً وافراً .

وانطلق الأعمى واجتاز المدينة حتى بلغ قصر المُلك .

يومئذ كان موعد الاستقبال العظيم الذي يدخل فيه أعيان القوم وأغنياؤهم دارة العاهل ليؤدوا له مراسم التجلة والولاء . وقد طفق الملك يحتفي بكل من يمثلون بين يديه فيطعمهم . بل يخلع على أحدهم رداءً ويتحف آخر بحصان ... أمّا ماكانو، فقد جلس عند عتبة ردهة الاستقبال . فأوعز المليك بأن يمثل الأعمى بحضرته وقال :

-إنه يوم الاستقبال العظيم، وأريد أن أطرف هذا الضرير بهدية ... إلي بإحدى الفتيات الجميلات.

خرج الغلمان ثم أتوا بفتاةٍ جميلةٍ، فنظرها الملك وقال:

-أجل، إنها حسناء! إنها الفتاة التي توخيتها. وأريد أن أزفّ للضرير هذه الفتاة الجميلة. وسوف يأخذ الله في حسبانه إحساني إليك أيها الأعمى. دونك هذه الفتاة وتزوج بها...

عاد الضرير مع الفتاة الشابة إلى بيت مضيفته وقال لها:

-هيا انظري هذه الفتاة، أليست جميلة؟ هذا اليوم يوم الاستقبال الملكي العظيم، وقد زفنيها الملك زوجة لي. فهل بوسعك أن تُعني بها؟

-يا ضريري! أجل سأعنى بها حسبما ترغب، وسوف تجدها عند عودتك، والله شاهد على ما أقول.

-إحذري أن يختطفها حيوان، وابذلي جهدك لئلا يخطفها أيّ رجل، وتوخي ألا أفتقدها أنا المسكين!

-لن يختطفها أي حيوان شرط ألا تعتبرني أنت حيواناً، ولن يخطفها أيّ رجل إلا إذا أعطيته إياها. وإن فقدتها أنت فسأغدو أشرّ من إبليس، شيخ النار.

-لا أحد يستطيع الاعتقاد أنك أشرّ وأقوى من الشيطان.

حين انصرف الكفيف، سألت الشريرة الفتاة قائلةً:

-أنت فتاة شابة وبديعة الجمال! وقد وعدت الضرير أن أهتم بك، فهل تودين أن تتزوجي هذا اليوم؟

-قال ملكنا إنه يتوجب عليّ الزواج هذا اليوم، وأنا أريد أن أتزوج هذا اليوم.

-إذن عليك الانتظار قليلاً.

أغلقت العجوز باب منزلها على الفتاة، وهرعت إلى بيت رجل شاب طائل الثراء، يرتدي دوماً ثياباً جميلة، ويعاشر فتيات حسناوات. أمّا منزله فيفوح برائحة

طيبة، لأن قاطنيه يتطيبون فيه بطيب جم من الورود، كما كان المنزل يزخر بالهرج والمرج، ويعج بعدد وافر من الشبان، ينتدون فيه ويجتمعون. وهرعت المرأة إلى بيت هذا الرجل الشاب وقالت له:

-هل يبقى لك قسط مما خلفه لك والدك؟

-بأية فتاةٍ ترومين أن تأتيني، فأنا أعرف جميع عاهرات الشوارع، وأرفض الآن أية واحدة منهنّ.

-لدي فتاة شابة أخرى، وليست مومسةً، بل تفوق بجمالها جميع فتيات المدينة.

-من هي هذه الفتاة؟

-إنها شابة بكر، لم تعرف بعد أي رجل.

-أجل، تبقى لي قسط مما أورثنيه والدي.

-إن الملك نفسه وهب هذه الفتاة، بصفتها أجمل شابة في دارته، فاليوم موعد الاستقبال العظيم، أجل لقد أهداها لرجلٍ كفيفٍ لكي يقترن بها، ولم يفعل بعد.

-سوف أمنحك مئتي ألف «غوري»[١].

-ستكون هذه الفتاة لزوجها المقبل أشهى وألذّ طبقٍ يطعمه، وسوف يتذوق منها كل يوم، دونما شبع ولا سأم.

-ها أنا ذاهب لأقترض مالاً من أصدقائي وسوف أهبك خمس مئة ألف «غوري».

-وهل سيتوفر هذا المال للتوّ؟

-إي نعم! وسأبعث بأناسٍ ينقلونه إليك قريباً.

-حسناً! اتفقنا.

---

(١) غوري: نقد صدفي قديم كان يستخدم في افريقيا السوداء والهند.

إنكفأت الشمطاء إلى منزلها، وفتحت الباب ثم جلست على السرير إلى الفتاة الشابة، وأخذت تسألها:

-هل شاهدت الرجل الذي تتزوجين به هذا اليوم؟

-نعم، شاهدت الأعمى.

-إني أعرف شاباً ممشوق القوام جميل الطلعة، ناعم اليدين، محياه وضاء كمحيا امرأة «شوا» [٢]، وهو رجلٌ ثريٌ وتفوح من منزله رائحة الطيب، معطرة محلة كاملة من المدينة لوفرة ما يتعطرون به من عطر الورود الفوّاح. وإن رجاله يطعمون كل يوم لحماً طيباً، أما هو فيهدي عبيده نساء شابات. وتلاحقه كل نسوة المدينة وتبذل المومسات مالاً وفيراً بغية التقرب منه. غير أن هذا الشاب قد اعتراه الملل من كافة هذه الأمور، فطلب إلي إن كنت أعرف شابة جميلة بوسعها أن تصير زوجته.

-هل يسكن هذا الرجل في هذه المدينة؟

-إيْ نعم، في مدينتنا! ولكن قولي لي يا فتاتي الجميلة، هل تعرفين أن ماكانو فقير صفر اليدين، ويخرج كل يوم محاولاً استجداء شيء يقتات به أو ينتفع به؟

-نعم أعرف هذا.

-فأنت تعرفين أيضاً أنه سوف يتحتم عليك أن تقودي خطاه، وأن ترتدي ثياباً رثةً لأنه فقير معدم.

-نعم أعرف هذا.

-هل تعرفين أن ثياب هذا الضرير بالية متمزقة وأن ندب الجروح تُبشّع قدميه وساقيه وكتفيه، لأنه سقط في الشارع على الحجارة واصطدم بالأشجار والجدران؟

---

(٢) شوا: إمرأة عربية.

-نعم أعرف كل هذا.

-وإن ارتديت يوماً فسطاناً جديداً جميلاً فلن يراه الضرير. وإن سرّحت شعرك الجميل الرائع فلن ينعم برؤيته. وإن بردت أسنانك بإتقان فلن يشاهدها. وإن ذررت المساحيق على جبينك فلن يراها. وإن كحلت عينيك الجميلتين فلن يرى هذا. وإن ضحكت فلن تكتحل عيناه بثغرك الضاحك، ولن يسمع ضحكتك، لأنه يتوجب دوماً عليه أن يولي اهتمامه إلى ما سوف يأكل، وما سيحبوه القوم من إحسان لكما: له ولك. وإن بكيت فسوف يضربك قائلاً: كيف يسعك البكاء أنت التي ترين، وأنا الفقير الضرير لا أبكي. وإن أنجبت منه أطفالاً فسيخرج من المنزل قائلاً: كيف لي أن أجد المزيد من الغذاء؟ وسوف يرسل أولادك إلى الشارع لكي يستجدوا من أجله. هل تعرفين كل هذا؟

وانطرحت الفتاة أرضاً، وأخذت تبكي وتصيح قائلةً:

-يا أمي العجوز! أتوسل إليك! أتوسل إليك! إذهبي سريعاً إلى منزل هذا الرجل الشاب.

-إنتظريني قليلاً.

خرجت الشريرة وأتت بالمساحيق الطيبة وذرتها على جبين الفتاة الشابة. وأحضرت كحلاً كحلت به عينيها، وتناولت فسطاناً ألبستها إياه، وانتقت منديلاً زيّنت به رأسها.

أما الرجل الثري الشاب فهرع يجوب المدينة طالباً إلى أصدقائه أن يُقرضوه بضعة آلاف من «الغوريات»[1] لأنه سوف يستقبل في منزله فتاة جديدة فاتنة الجمال.

فأقرضَه بعضهم خمسة آلاف «غوري»[1] وآخرون عشرة آلاف. وجمع الشاب هذا المال وأضاف إليه كل ما تبقى له من ثروة والده، ولم يكن ثمّة ما يكفي. فاستدعى بعض عبيده، وباع واحداً منهم. وأرسل الشاب المال إلى المرأة العجوز مع أربعة فساطين وطوقَيْن من اللؤلؤ.

(١) نقد صدفي قديم (غوري، غوريات).

قبضت الشمطاءُ المال وخبأته، وأخذت الفساطين والطوقين. ثم استَبْقت فسطاناً واحداً، وطوقاً واحداً وأعطتهما للفتاة وقالت لها:

- أرسل لك الرجل الشاب هذه الهدية، فارتدي الفسطان، وطوّقي عنقك بالعقد. حسناً، ها أنت جميلة فاتنة. والآن هيّا بنا سريعاً إلى منزل الرجل الشاب قبل أن يعود الضرير.

قادت الشمطاء الفتاة الحسناء إلى منزل الشاب، وعلى الفور، أمر غلمانَه بأن يُلقوا الشمطاء خارجَ المنزل. فقالت له: سوف تستدعيني نوبةً أخرى. وعادت أدراجها إلى بيتها.

رجع ماكافو مساءً إلى منزل العجوز، وسبق له أن أُهدي فسطانَ عرسٍ وقليلاً من الطعام. ودخل الضرير غرفته مخاطباً زوجته:

- يا فتاتي أين أنتِ؟ يا فتاتي هل تخجلين منّي؟ أنا لا أطلب منك أن تتكلمي فسوف أجدك رغُم عاهتي.

وخطا المكفوف إلى السرير وتلمّسه قائلاً:

- يا فتاتي، لستِ على السرير! يا فتاتي أنت خجلة منّي. أنت فتاة شابة جميلة، وبرغم أني ضرير فسوف أجدك. وجلس على المضجع وهو يقول:

- يا فتاتي! أنا ضرير وفقير. ولكن الله يبارك العميان إن لم تكن نفوسهم خبيثة. أنا ضرير لكني لم أخدع قطّ أحداً. أنا ضرير لكني لم أكن قطّ «منافقاً»(١) ولا أعرف المكر ولا الرداءة، فأخذني الله دوماً برعايته. سوف تتزوجين بي، ولكنك لن تخرجي إلى الشارع خوفاً من أن يبصرك الفاسقون وأن تصادقك الزانيات. وأنت سوف تصبحين زوجتي في يوم الاستقبال الملكي العظيم هذا. ولذلك سيشملنا الله بعنايته أنا وأنت. فلا تخجلي يا فتاتي، وهلمّي إلى جانبي!

وانبرى المسكين يردّد قائلاً:

---

(١) وردت هذه الكلمة العربية في النص الفرنسي.

-أين أنت يا فتاتي ؟ لماذا لا تأتين إليّ يا فتاتي ؟ يا فتاتي أنا ضرير ولست كغيري من الذين يتزوجون. هيا يا فتاتي، تعالي إليّ! هل تريدين أن أجدك أنا ؟ ها أنا أتٍ يا فتاتي !

نهض الضرير. ومشى الضرير طوال الجدار. وتلمس الضرير كل الجدران، ولم يعثر على الفتاة. وجلس الضرير على السسرير وقال: خرجت فتاتي(٢).

نهض ماكافو وذهب إلى فناء المنزل حيث يقطن بضعةٌ من القوم وقال لهم:

-أتيت هذا الصباح مصطحباً فتاةً شابةً أهدانيها مليكنا. وأتيت بها إلى هنا، ثم خرجت لأجلب لها فسطان عرسٍ. وعدت بفسطان عرسٍ ولم أجد الفتاة. هل بوسعكم أن تقولوا لي أين هذه الفتاة ؟

إنصرف عنه بعضهم قائلين: لا نعلم شيئاً. وقال آخرون: لا بد أنها خرجت. وقال غيرهم: عساها قد سرقت. وقال غيرهم: رُبّ مساومةٍ استهدفتها، فاشتراها أحدهم. ثم قال رجلٍ عجوز: مَن السهل أن يخدع الناس مكفوفاً. وقال صبيّ صغير: ألبسوها فسطاناً جديداً وكانت جميلة فاتنة. وسأل ماكافو: هل يستطيع أحدكم أن يعطيني عصاً متينة ؟ فأجاب الرجل العجوز: إليك هذه العصا. ولكن إحذر أن يذهبوا بك إلى القاضي، فخشب هذه العصا قد يكون أقسى من عظام امرأة عجوز. فأجاب الاعمى: لقد أصبت أيها الرجل ! ...

تناول ماكافو العصا وانصرف قائلاً: والآن أيتها الشريرة ها أنا وأنت! فقال له الرجل الشيخ: يا ضريري ! لا تنسَ القاضي ! أجاب الضرير: ليست القضية من شأن القاضي. هذه القضية شأن الله وحده !

مضى الأعمى إلى بيت العجوز ودخل، فقالت له:

-يا ضريري ! لقد غبتَ طويلاً عن المنزل.

-أين هي فتاتي ؟ أين هي فتاتي الشابة ؟

-آه ! الفتاة الشابة ! ... لم تكن فتاةً بل عاهرة. أوصد الضرير باب المنزل خلفه وقال:

(٢) يرد التكرار جداً في نصوص الاساطير والحكايات ...

-أين هي فتاتي ؟ أين هي فتاتي الشابة؟

-آه ! الفتاة الشابة ! ... لم تكن فتاةً بل عاهرة. أوصد الضرير باب المنزل خلفه وقال :

-أين هي فتاتي ؟ أين هي فتاتي الشابة؟

-آه ! يا لها من فتاة شريرة ! أجل إنها ماكرة خبيثة ! فيما مضى، علقت بعشيق لها، وهو الذي قدم اليوم بعد انصرافك ... وهمّت الفتاة بمضاجعة عشيقها في غرفتك.

-قولي، أين هي فتاتي الشابة ؟

-آه ! يا لها من فتاة شريرة ! كيف كان بوسعي أن أردع تلك الفتاة الشريرة ! أتى عشيقها وضربني وانصرف كلاهما من هنا.

-أين هي فتاتي الشابة الجميلة ؟

-آه ! يا لها من فتاة شريرة ! لقد شتمتني وحقّرتني وأخذت مني كل ما تبقى من فلوسي ولم أستطع ردعها.

همّ ماكافو بضرب الشريرة فتّجست الأرض تحتها خوفاً منه وذعراً. ولم يضربها الكفيفُ، بل قال لها :

-يحسن بي ألا ألمسك الآن. سبق لك أن قلتِ لي : لن يأخذ الفتاة أيُّ حيوان، إلم تعتبرني حيواناً. أخّ ! أنت حيوان. وقلتِ لي : لن يأخذ الفتاة أيُّ رجلٍ إن لم أُعطها أنا نفسي. وقد أعطيتها لرجل آخر. وقلتِ لي : سأكونُ أشدّ مكراً من إبليس إن فقدتُ الفتاة. وها أنت أشد مكراً من إبليس (١). ولكنّ الله سيرى ما إذا كنتِ أقوى من إبليس. وقد بدأت بسرقة دجاجتي بخبثِ الشيخوخة وشرّها. وسينتهي بك الامر إلى قتل عددٍ وافر من القوم، إن لم يرد اللهُ أن يقطع الطريق عليك. إنتظري فسوف أرى إن كان الله قد اختارني لأقطع الطريق عليك.

---

(١) وردت الكلمة باللغة العربية.

خرج ماكافو وأوصد الباب خلفه بالمفتاح فصاحت الشمطاء مولولةً. وانطلق الأعمى إلى دارة الملك حيث قال له:

-يا مليكي! تفضل علي وأعرني عشرةً من رجالك الاشدّاء الأقوياء.

-ولماذا تريد عشرة رجال أشداء؟ هل تودّ أن تستبدل سطح بيتك بسطحٍ آخر؟

-لا أريد هذا، فالأمر من شؤون الله، فقد أسلم إلى يديّ إمرأةً عجوزاً أشر من إبليس شيخ النار.

أعار الملكُ الضريرَ عشرةً من رجاله الاقوياء ذوي البأس والحميّة. واستصحبهم الضرير منطلقاً بهم إلى دُكّان معلّم الجزارين (سيركي فاوآ) وقال له:

-من فضلك، أعطني عشر قددٍ من جلد لربط الثيران.

-لماذا تريدها؟ هل تعتزم أن تنصب شركاً لصيد الأسود؟

-لا أريد هذا؟ والأمر ليس من شأني إن شاء الله: فهو قد وضع تحت يديّ امرأةً عجوزاً أشر من إبليس. وأعارني الملك عشرةً من غلمانه الأشداء لتأديب هذه الشريرة...

-إذنْ، هاك هذه القدد العشر.

إستصحب الأعمى الرجال العشرة إلى منزل مضيفته الشيخة. وفتح الباب عليها وأوعز للرجال قائلاً:

-هيّا! أوثقوا هذه الشمطاء وشدوا على جوارحها وعنقها وكافة جسدها بهذه القدد المتينة، واضربوها واصفعوها واركلوها بأقدامكم. فامتثل الرجال لأوامره، وطفقوا يضربونها ويصفعونها وينخسونها بأقدامهم، فتجاذبوها بعنف وضراوة إلى هنا وإلى هناك وأخذت الشريرة تئن وتصبح مولولةً باصقةً دماءها، فلوثت الأرض بها. وقال ماكافو:

-سنرى الآن إن كان شرّها قد غادرها برائحته الكريهة النتنة. ولكنّ الله يريد أن تدفع ديونها كاملةً.

ولمّا رفع الرجالُ الأشداء أيديهم عنها، إنصرفوا حاملين قدد الجلد معهم، وإذا بالأعمى يشعل ناراً في المنزل ويلقي على النار قليلاً من الفلفل. آنذاك خرج وأوصد الباب من الخارج. وسطع دخان النار والفلفل كثيفاً واكتظّ به البيت واستولى الذعر على العجوز وانبرت تركض صارخةً زاعقةً من صوب إلى آخر. وضاق المنزل بالدخان، وسقطت المرأة أرضاً. حينئذ فتح الضرير الباب وقال لها إنه لا يتوخى هلاكها... واندفع الدخان متدفقاً إلى الخارج ونهضت المرأة. واستدعى ماكافو حلاقاً، وطلب منه أن يحلق جمّة شعرها دون التوسل بالماء... ثم تناول حلقةً من حديد تُعدُّ لشد الأقواس، ووضعها على يأفوخ رأسها المحلوق قائلاً لها:

-هذا هو مسند الحمل على رأسك، وبعد حين سأضع عليه عبءاً يتوجب عليك أن تحمليه.

وتحتم على المرأة أن تشول حجراً وازناً على حلقة الحديد الموضوعة على يأفوخ رأسها الحليق. وقال لها الكفيف:

-والآن، هيا اذهبي إلى المدينة وتاجري !...

واضطرت الشريرة أن تسير كذا والضرير يدفعها قدّامه. وشالت حملها الباهظ خلال سبعة أشهر. وحين انقضت هذه المدّة خاطبها ماكافو:

-الآن، ألقي عنك الحجر على الأرض، فقد سلكت طريق الدجاجة التي سرقتِها من الفتاة الشابة المسروقة، فوضع الله على طريقك هذا الحجر الوازن. أمّا أنا فقد انتهت مهمتي حيالك. وها أنذا أنصرف عنك، وأمضي متابعاً طريقي، وعليك أن تفعلي كما أفعل.

إنصرف ماكافو المكفوف. فألقت العجوز الحجر عن قمة رأسها، وأسقطت حلقة الحديد عنها وقالت:

-هذا الضرير غبيّ أحمق. سأعود إلى منزلي بأسرع ما أستطيع لأرى إن كانت أمتعتي لا تزال فيه بكاملها.

قفلت العجوز عائدة إلي المدينة، وقصدت السوق حيث طفقت تزاول التجارة من جديد. وعلى حين بغتةٍ، وفد إبليس إلى هذه السوق لكي يلتقيها فقال لها:

-يا للمغامرة الرديئة، مغامرتك مع ماكافو الكفيف!

-إخرسْ! لا تهزأ بي! لا شك أنك قوي ولكن حين تهبّ رياحي أتفوق عليك.

-كيف استطعت أن تعرفيني يا عجوز من بلد (ماتاسو)؟

-ولماذا لا أستطيع هذا؟ أنت إبليس. ورغم هذا هل سبق لك أن حُزمتْ كل جوارحك حزماً شديداً، وكذا عنقك ورأسك وكامل جسدك بعشر قددٍ من جلد قوي متين؟ وفيما مضى، هل ضربت وصفعت، وركلت، ودُفعت إلى هنًا وهناك؟ وهل قست عليك أيادي وأقدام عشرة من الرجال الأشداء؟ وهل أُغلق عليك في غرفة طفحت بدخان النار والفلفل خلال مدة طويلة تكفي لتغلغل الدخان إلى أقاصيّ حنجرتك وكيانك، فتهاويت على الأرض؟ وهل شيلت على رأسك الحليق، وطوال سبعة أشهر، حجراً وازناً وضع على نافوخ رأسك فوق حلقة حديدية وضعت على قمة رأسك؟ صه! إخرس يا إبليس، لأنك لم تختبر كافة هذه المصاعب التي دهتني أنا!...

-دعي كل هذا جانباً! فما هي الأمور العظيمة التي نهضت بها فيما مضى؟

-ألأمور العظيمة التي قمت بها سابقاً؟ لا تخطر ببالي الآن جميعاً. ولكنْ أستذكر أني فرقت أحد عشر ألفاً من المتزوجين المتحابين، وبلبلت أمورهم كما بذرت الشقاق بين الكثير من العشاق المولهين. وهوّشت بينهم جميعاً، حتى تباغضوا وافتقدوا أيّ أمل في المصالحة والزواج ثانية وإنجاب البنين.

-حسن كل هذا، يا عجوز!! ولكنك الآن لست أوفر حولاً وطولاً مني أنا. وسأريك في هذه السوق أمراً تعجزين عن القيام بمثيله.

-أعلم يا إبليس أنك عزيزٌ قوي. إي نعم! أعلم هذا. وسوف تفعل، دون أي شك، فعلة عظيمة. ولكن لا أعرف إن كان بوسعي أن أقوم بما يفوق ما تفعله

لأنك لم تكابد جملة ما دهاني من الكوارث... [1] غير أني سأرى ما سوف تصنع من الأمور الفذّة التي تعدني الآن بها.

جمعت العجوز سلالها وعادت إلى منزلها. أما إبليس فراح، يتجول متنزهاً في أرجاء السوق. ثم قعد القرفصاء مصغياً إلى من يتاجرون بجوزات «الكولا»، ثم إلى قصص يتناقلها الخياطون وتجار الجلود. وبعدها، إنتقل إلى موضع آخر حيث عاود يجلس القرفصاء متنصتاً إلى ما يتندّر به القوم. وأصغى الشيطان إلى كل ما يتبادله أهل المدينة من أحاديث وأقاويل، وكل ما يرويه الوثنيون الوافدون من بعيدٍ إلى السوق مع زوجاتهم سعياً إلى مزاولة تجارة الخشب والحطب والخراف والأحصنة. وأمال بحرصٍ أذنيه إليهم وهم يتقولون ويدسون شتى النمائم، كما سمع كل كلمة سوءٍ تفوّه بها هؤلاء الناس.

وفي نهاية المطاف، تقدم إبليس الخنّاس إلى نفرٍ من الربّع وقال لأحدهم:

-قد ابتعتَ هذا من فلان، وقد سمعتُه لتوي يقول إنه تمكن من خداعك وغبنك!

ومضى إلى جماعة أخرى وقال لهم:

-فلان غش زميله. أليس من الواجب أن نسدي المعونة لهذا الزميل المخدوع؟

وانتقل الشيطان من بعض القوم إلى آخرين متقولاً:

-يصرُّ هؤلاء أن واحداً منكم قد خدعهم. وإن قالوا هذا، فالسبب أن إحدى زوجاتكم أتتهم بشيءٍ من الطعام ليلاً. فمالقوها واستصحبوها فاغتصبوها. فلابد إذن من إسداء العون لجميع من خدعوا. والناس الأشرار هم الذين يغتابون الآخرين ويصنعون كلّ شرّ وأذيّة.

ثم شخص إبليس إلى واحدٍ من علية الأعيان كان ينفذ قوافل ويستقبلها، وجميعها حافلٌ بالسلع والبضائع. وقال له:

---

(١) توخينا التخفيف من التكرار، لأن العجوز تعدد كل معاناتها السابقة (المترجم).

-إن القوم يغتابونك متقولين بأنك «منافق» وأنك تحرض البعض منهم على الآخرين. لكني أعلم أنك ترتدع عن كسب الأموال الطائلة على حسابهم ومصالحهم.

أما هذا الرجل فكان بالحقيقة «منافقاً» حذقاً يعرف تمام المعرفة كيف يفلس أرباب التجارة الأثرياء فيرغمهم على التنازل عما يكسبون ويقتنون بمثابة رهون لديه، دون أن يقتدروا على اتقاء شرّه.

سمع «المنافق» أقوال الخنّاس هذه فاستل للحين سيفه وانقض على كل من وصمه بالمنافقة وخسيس الربى.

وكان ثمة رجل ذو حول وبأس سبق له أن رهن مقتنياته لدى «المنافق» الذي خدعه فبلصه جميع أمواله. فلم يعد له من بعد ما يخسره فصاح «بالمنافق» قائلاً:

إي نعم! أنت منافق! إنها الحقيقة بعينها. أنت حقاً منافق! وها أنا أكرر وأثني ما أقول جهاراً، وينبغي للجميع أن يسمعوا ما أقول ويخزيك!

وإذا «بالمنافق» ينقض عليه ويجأ جوفه بضربة قاضية من سيفه. فصاح بعضُ الرجال مستنكرين:

-في البداية، استولى أمثال هذا الرجل على أموالنا، والآن ينتزعون منّا أرواحنا!

وأخذ البعض منهم ينهالون على «المنافق» بالضرب. فهرع رجاله ليستنقذوه، إلا أنه خر صريعاً على الأرض. وأخذ بضعةٌ من القوم يصيحون فرحاً، وهلّل آخرون قائلين:

-لستم أفضل من «المنافق». ألم تتخادعوا فيما بينكم؟ ألم يتسنّم بعضكم إحدى زوجات الآخرين؟

وراح القوم يعجّون ويتقاتلون. وانهمك كلٌّ منهم في تلقف كل ما تطاله يده من قنية الآخرين. فقتل في ذاك اليوم من الناس ألفٌ ومئتان. وهرعت شرطة عاهل المدينة وأخلوا السوق من كل حيٍّ باقٍ على قيد الحياة.

وأمّ إبليس منزل العجوز وقال لها :

-هيا بنا ! تعالي معي لأريك ما اقتدرت على إنجازه في يومٍ واحد .

صحبت الشريرة الشيطان إلى السوق حيث تناثرت القفف والزنابيل والأثواب وجوزات «الكولا» وحلويات الفول، كما تبعثرت الأحذية والنعال وكريّات الطحين والسّميذ والخيوط والشواءات . وكان كل من سقط من الربع مجندلاً هنا وهناك . ولم يعد ثمة سوى شرطة الملك يطوفون بين السلع والجثث المتخالطة على التربة وقد أشبعها القتال بدماء البشر والحيوانات . وقال إبليس للعجوز :

-هوذا ما فعلت في يومٍ واحدٍ وحسب !

-لكن لا أرى إلا ألفاً ومئتين من القتلى ، وسوقاً واحدةً قد تهدمت .

-إي نعم ! هنا ألف ومئتان من القتلى وسوق واحدة قد تهدمت في يوم واحد .

-أهذا كل شيء ؟ وهل تريد أن تريني قدرتك على فعل ما هو أفضل مما أصنع أنا ؟ إليك عني يا إبليس ! هيا انصرف واسلك طريقك ، ثم عُد إليّ في الغداة لترى ما تقتدر عليه إمرأة عجوز مثلي أنا .

كذا خاطبت المرأة المسنّة الشيطان وهي تصعّر وجنتها مشيرةً إليه بالانصراف محتقرةً إياه بإيماءة ابتذال .

ونهضت الشمطاء بكرةً وسعت إلى السوق حيث ابتاعت مئةً من جوزات الكولا ، وساومت على حق طيبٍ من الورود وابتاعته مع حفنة من براز الزباد [1] العطر ، ثم أخذت خمسين جوزة كولا وعطر الزباد وقصدت دارة الملك .

وقبل ذلك بحين يسير ، كان عاهل المدينة قد عقد قرانه على امرأة شابة فاتنة ، بعد أن انصرف عنه شبابه ، لكنه أمسى مليكاً عظيماً . وكانت تلك الزوجة الحسناء بارعة الجمال ، يتحدث عنها الربع جميعهم بإعجاب وإطراء ، سيما وإن

---

(١) الزبّاد : سنور من رتبة اللواحم بطيب الزباد وهو إفراز طبيعي من جيب شرج السنور ويستخدم في صناعة العطور .

الملك صار متولهاً بها، ويؤثرها على نظيراتها من حلائله، ويوليها مقام زوجته الأولى.

ومضت العجوز الهرمة لتلتقي هذه الزوجة الحسناء. وحالما مثلت بين يديها، خرّت على وجهها قدّام هاتيك الشابة. ثم رنت إليها تتأملها ملياً بإعجاب عظيم وقالت لها:

-الآن وقد رأيتكِ أدرك تماماً ما يقول الرجل الذي ظننته، حتى هذا الحين، معتوهاً مجنوناً بك!

-وما شأني في كل هذا؟ مجنون بي أنا؟...

تظاهرت الشريرة بأنها شديدة الاعجاب بقرينة الملك الحسناء، فرنت لها ثانيةً ثم قالت:

-إي نعم! أنت فتانة بارعة المحاسن، وتفوقين برواء بهائك جميع النساء الحسان. والآن وقد تملت عيناي بمشاهدتك، أدرك تماماً ما يقول الرجل الشاب الذي حسبته مجنوناً معتوهاً بك.

-أصمتي يا عجوز!! لا يتفوه أحد بحضرتي بمثل هذا الكلام. ها أنا أهديك هدية لكي تقولي سريعاً ماهي الأخبار الشائعة في المدينة، وبعدها ستنصرفين وتخفين عن دارة الملك بسرعة!

-أجل يا سيدتي. إليك الآن الكلمات التي ينطق بها الرجل الشاب المعجب بحسنك وجمالك. قال لي ما يلي: أنت ذاهبة إلى دارة رجلٍ هرمٍ، إلى دارة الملك. وسترين زوجته الشابة التي يفوق جمالها ما وهب الله غيرها من بقية النساء جميعهنّ. وها أنا الآن قدامك، يا سيدتي، أقدر تماماً ما يردده عنك هذا الشاب الذي ظننته مجنوناً معتوهاً بك.

-هيا سريعاً! أخبريني بما هو جديد في المدينة!

وقتذاك، وضعت المرأة أمام الملكة الشابة جوزات الكولا الخمسين وقالت:

-لا يستطيع الشاب أن يرسل إليك إلا هذه الهدية التافهة. فأنت تملكين كل ما تطمح إليه رغبتك. وإن أتحفك بخواتم وقروط ذهبية، علم زوجك الملك بهذا.

-من الذي يبعث إليّ بهذه الهدية ؟ وكيف يجرؤ رجل دخيل أن يرسل مثلها إلى منزلي ؟

-ثمة رجل واحد يقتدر على فعل ما قلت، وهو وحده الذي يهديك هذه الجوزات، وأنت لا تزالين سجينة زوجك المسنّ.

-قولي ! من الذي أرسلك إلى هنا.

-لا يمكن أن يكون إلا من يقحم الفزع في قلوب الأعداء، أكثر مما يفعل عشرةُ آلافٍ من الفرسان الجبابرة.

-قولي ! من الذي أرسلك إلى هنا ؟

-من أرسلني هو إبن (الجريمة) (١) !

أخذت زوجة الملك جوزات الكولا وأخذت طيب «الزباد» وقالت:

-ألا يخشى إبن الجريمة أن يهدي حرمَ الملك والمحظية الأولى لديه هديةً تافهةً كهذه ؟

-إبن الجريمة هذا لا ينتابه فزعٌ ولا خوف ولئن تصدى لمئةٍ من الأسود التي تتحلق حوله وتحاصره من كل صوب. ولا ترتعد فرائصه إن انقضّت عليه مئة من عمالقه الغيلة. فهل من المعقول أن يخشى رجلاً قد طعن في السن ؟

-وبمَ يفكر إبن الجريمة ؟

-لم يعد يفكر «بالسلام» (١) ولا بوالدته ولا بوالده. فإن هاجس إبن الجريمة إنما هو أنت وحسب.

-حين ستقضم ثناياي البيضاء هذه الجوزات الحمر، سأفكر أنا أيضاً بابن الجريمة هذا.

---

(١) إسم رجل جبار ورد سابقاً.

-فكّري يا سيدتي ! حين تسمعين بأنه يعود إلى القتال والحرب، فكّري به حين سيفجعك الخبرُ بأنه مات في الحرب.

-وهل يمضي إبن الجريمة إلى الحرب ؟

-قد سئم هذا الرجل من الحياة. فهو يرفض العيش من بعد لأنك تشغلين عقله وتعمرين قلبه. وفي الغداة، سيتجرد بكرةً للحرب ولا يريد العودة منها إلا قتيلاً. أجل إنه يمتنع عن الرجوع إلى هذه المدينة حيث لا تزالين مسجونة داخل دارة زوجك الشيخ. إنه يتوخى الموت وحسب.

طفقت زوجة الملك تبكي ثم قالت :

-أحقاً يريد أن يقتل في المعارك ؟ قولي أيتها المرأة، هل بوسعك أن تلتقي اليوم ابن الجريمة هذا ؟

-الأمر صعبٌ عسير ! ولكنه فيما مضى، سألني : كيف لي أن أشاهد زوجة الملك قبل أن أمضي إلى الحرب ؟ نعم يا سيدتي، الأمر صعب عسير !

-أيتها العجوز ! عليه ألا يمضي إبن الجريمة إلى القتال. أريد أن أراه اليوم ! وأنا، إن التمست أمراً من الملك زوجي، لبى طلبي طوعاً. فقولي كيف يمكنني أن ألتقي اليوم إبن الجريمة هذا.[1]

-أيتها الفاتنة المحظية لدى مليكنا، هيّا اذهبي إلى زوجك وقولي له : علمتُ لتوي أن والدتي مريضة طريحة الفراش، فاسمح لي أن أزورها في هذا الحين، وسوف أعود قبل هبوط الليل. وإن سمح لك مليكك بأن تفعلي ما طلبتِ منه، تعالي سريعاً إلى بيتي الصغير بجانب سور المدينة.

-سأفعل كما قلت لي. وها أنذا منطلقة إلى دارة زوجي الملك، ومن ثم ألقاك في منزلك بجانب السور.

-أجل، تعالي إلي ! وها أنا ماضية إلى إبن الجريمة لأعلمه بأنك ستقومين بزيارتي في منزلي.

---

(١) وردت الكلمة باللغة العربية. اما (الجريمة) فهو يمثل الشرّ في هذه الأسطورة

خلعت الملكة على المرأة الهرمة رداءً جميلاً، وصرفتها من حضرتها. ثم تناولت جوزات الكولا وقطعة قماش وضعت فيها أربع جوزات مخاطبةً نفسها: إبنُ الجريمة هذا شاب جميل. ثم وضعت أربع جوزات غيرها في قطعة القماش وقالت: إبن الجريمة هذا شجاع مقدام. وأضافت أربع جوزات أيضاً قائلةً: الملك همٌّ عنين. وأخذت الزوجة الملكيّة الشابة أربع جوزات وضعتها في قطعة القماش قائلة: أما قال إبن الجريمة أني أفوق نساء هذه المدينة حسناً وبهاءً؟ ثم تناولت الزوجة الشابة أربع جوزات وضعتها في قطعة القماش وقالت: يجب ألا يمضي إلى القتال.

في نهاية المطاف، جمعت زوجة عاهل المدينة كلَّ ما تبقى من جوزات الكولا وصرّته في قطعة القماش وقالت:

-سأذهب إلى إبن الجريمة هذا، وأجثو قدّام إبن الجريمة هذا، وأتوسل إليه نوبةً بعد أخرى، وأتزين له، وأضيف على جمالي المزيد من المحاسن، لأني أعرف الآن من أجل من أتجمل وأتبرج ...

خلعت زوجة الملك الفاتنة ثوبها، وارتدت حُللاً بهية، واشتملت فوقها برداءٍ رثٍّ عتيق، وغادرت منزلها قاصدةً دارة زوجها المليك حيث قالت لأحد العبيد:

-هيّا اذهب وقل للملك زوجي أني مضطرة إلى لقائه.

-ليس هذا الحين مواتياً لهذا اللقاء، وقد وفد إليه كثير من القوم لكي يؤدوا له مراسم الاحترام وواجباته.

-صه أيها العبد! هيّا أمضِ إلى سيدك وإلا ذهبت أنا إليه لكي تساط بضراوة. إذهب وقل له: تريد زوجتك الشابة أن تتحدث إليك فهي تخشى أن يقتل أحد الرجال. هيا اذهب!

دخل العبدُ إيوانَ الملك حيث كان الأعيانُ والوجوه يلتقون عاهلهم. وخرّ العبد ساجداً بين يديه وقال:

-أيها الملك ! أيها الملك !

-ما بك يا غلامي ؟

-زوجتك الشابة تريد التحدث إليك فهي تخشى أن يقتل رجل من رعيتك .

نهض الملك وغادر قاعة الضيافة . وتهامس بضعةٌ من الحضور بأنّ الملك قد هرم وطعن في السن، وأن أية امرأة شابة بوسعها أن تتحكم به حسبما تشاء . وما أن وصل المليك قدام زوجته المحظّية حتى سجدت عند قدميه وتباكت قائلة :

-«سيركي» ! أيها الملك ! ...[1]

-أراك تبكين وترتدين أسمالاً بالية . ألم أهبك ما يكفي من الحلل القشيبة الزاهية ؟

-تباكت الزوجة وقالت :

-أخشى من الموت، من موت ...

-ولماذا تريدين أن تموتي ؟

-لن أموت قبل غيري ... دعني أمضي إلى أمي فقد تلقيت أخباراً عنها وسأعود هذا المساء .

-هل هي مريضة منذ زمن بعيد ؟

-هل يمكنني الذهاب إليها ؟

-هيّا اذهبي ! ولا تبطئي بعودتك !

وانصرفت الزوجة تخف بخطواتها وتزفّ .

عبرت الزوجة الشابة المزرعة بسرعة . واجتازت المدينة مهرولةً حتى صارت إلى السور . ودخلت المنزل الصغير بجانب السور فقالت لها العجوز الشريرة :

---

(١) سيركي : سيدي، مولاي.

-لماذا تأتين متلفعةً بهذا الرداء العتيق ؟

-دعيني الآن ونادي لي إبن الجريمة، هيّا أسرعي !

إنصرفت الشمطاءُ واجتازت المدينة مخاطبةً نفسها :

-إن الصياد قد أشعل في الدغل دقاق الحطب وحشائش يابسةً. وسوف تحرق النار مزارع الربع وأهراءهم وكل منازلهم

وأخذت العجوز تزف بخطاها مسرعة عبر المدينة، قاصدةً مزرعة الجريمة الذي لم يكن له سوى نجلٍ واحد. وساعتئذ، كان إبن الجريمة مستلقياً على مضجع رقاده، وعبيده بين يديه يصقلون أسلحته ويجلونها. وخرّت المرأة على وجهها قدامه. أما هو فلبث على ما كان عليه وسألها :

-ما بك يا عجوز ؟

-إبن الجريمة يجهل الوجل والفزع. وفي طاقته أن ينتزع ولده من مخالب أية لبؤةٍ.

-ما الأمر يا عجوز ؟

-ما تُحبّ أذناك سماعه، لا يليق أن يذاع بحضور ثمانية من الناس ...

-أخرجوا جميعكم من هنا ! والآن، ما شأنك يا عجوز ؟

أسفرت المرأة مزيلةً برقعها، ووضعت على الأرض جوزات الكولا الخمسين، وكذلك حق طيب الورود وقالت له :

-إليك كل هذا ! إنها هدية تتحفك بها إمرأة جميلة أوصتني بأن أقول لك ألا تمضي إلى الحرب لئلا تقتل. وإن قتلت لقيت منيتها هي أيضاً، لأنها لا تستطيع آنئذٍ أن تعيش إن لم تعد سليماً معافى من القتال.

-من هي هذه المرأة الحسناء ؟ ألا يكفيها رجلها ؟

-هي من تنظر إليك دوماً من أعالي السور حين تنطلق أنت إلى المعركة، وتعجز عن إغماض أجفانها ما دمت أنت تخوض غمرات الحرب. وكلما عدت

نظرت إليك من ذؤابة السور، وانتعشت بعودة الحياة إليها. وطالما انهمكت أنت في القتال، وهبت هي شتى العطايا للمتسولين والمكفوفين، لكي تنعم أنت بعون الله وحمايته. وكلما رجعت من حومة القتال، عاودت تحبوهم بعطاياها، متضرعةً إلى الله أن تمكث في هذه المدينة سالماً معافىً.

-يا عجوز! هيا قولي لي من هي هذه المرأة الشابة؟

-إنها إمرأة من هذه المدينة، ولكنها قابعةٌ بين قوائم الليث، وليس بوسع أي رجل مقْدام أن يراها دون أن يعشقها ويولّه بها.

إستل إبن الجريمة سيفه وهو يتهدد ويتوعد قائلاً

-يا عجوز! قولي من هي هذه المرأة الفاتنة؟

-إنها زوجة الملك الشابة المحظية لديه.

-وأين هي الآن زوجة الملك هذه؟

-هي الآن في بيتي، تجلس على حافة مضجع نومي.

-هلمي معي وقوديني إليها!

إصطحبت الشريرة إبن الجريمة وأحد غلمان والده. واجتاز ثلاثتهم المدينة حتى أفضوا إلى منزلها بجانب السور. وثمة لبث خادم ابن الجريمة منتظراً إبن مولاه. وفتحت العجوز باب بيتها وأدخلت الرجل الشاب. فنهضت زوجة الملك، وخلعت أمامهما رداءها البالي العتيق فتألقت بتمام رواء شبابها الفاتن، مزدانة بحللها البهية. واغلقت المرأة الشريرة الباب عليهما. وتركت إبن الجريمة بصحبة زوجة الملك الفاتنة.

تلبث خادم الجريمة خارجاً، ولم يكن باب المنزل موصداً بالمفتاح. وهرعت الشريرة إلى محلة الملك ثم إلى دارته، حيث فرغ الأعيان من أداء مراسيم الولاء لعاهل مدينتهم، عقب تقديم أطباق فطور الصباح. وكان المليك قد اعتزل في ركنٍ بعيد عن الايوان الملكي ومكث واجماً وحيداً.

إجتازت العجوز كل أروقة الدارة وخفت إلى القاعة حيث جلس مولى القصر منفرداً. وخرّت على وجهها بين يديه، وهي تولول وتصبح بأن العاهل سوف يقتلها. فسألها مندهشاً:

-ولماذا سأقتلك ؟

-لأني أعلم أن الآخرين يقابلونك بالخداع والخيانة. وهل أنا مخطئه إن كان إبن الجريمة لا يحترمك يا مليكي ؟

-لا يحترمني ؟ وكيف ؟

-أما يستطيع إبن الجريمة أن يضاجع من النساء سوى زوجتك الحسناء؟ وهل من مسيس الحاجة أن يستدعيها إليه وهي محظية جلالتك، وقد صيرتها أنت مماثلة بالمنزلة والاحترام لزوجتك الأولى ؟ ... هاهي الآن في منزلي وعلى مضجع نومي بصحبة إبن الجريمة.

-يالك من كاذبة !

-أنظر يا مليكي ! ها أنا قد هرمت واجتاح الشيب جمة رأسي. وهل في طاقتي أن أكذب وأفترى ؟ إنهما في منزلي على مضجع نومي.

-سآمر رسولاً بأن يصحبك ليرى بأمّ عينه ما تدعينه، أيتها الشمطاء !

إستقدم العاهل أحد غلمانه وقال له:

-هيا ! اصطحب هذه العجوز وتيقن من أن إبن الجريمة يضاجع حقاً زوجتي الشابة، في منزل هذه المرأة.

تسلّح رسول الملك بخنجرٍ واصطحب الشريرة ومضى كلاهما حتى بلغا منزلها الصغير القائم بجانب سور المدينة. وإذ بخادم الجريمة يتلبث واقفاً على بعض المسافة من هنالك. واقترب رسول الملك من الباب وفتحه، وعقب تردّد يسير دخل. فشاهد إبن الجريمة يعاشر زوجة مولاه المليك. أما الشابان فكانا

مستغرقين في محادثة حميمة. فاستل الرسول خنجره وطعن إبن الجريمة في صلب ظهره. فتدفق دمه وترشّش على زوجة الملك الحسناء، وصاح إبن الجريمة قائلاً: يا لها من ميتة خبيثة! وطفق يلفظ أنفاسه الأخيرة.

كانت المرأة الشريرة واقفة خارج بيتها قرب خادم الجريمة، وإذا به يندفعُ إلى داخل المنزل وينقض على رسول المليك ويقتله. وإذ تعثر برداء زوجة الملك سقط أرضاً وراحت العجوز تنوح وتصيح مولولةً. ثم ولّت هاربةً وخفّت مسرعةً بكل ما أوتيت من قوة وهي تصيح قائلةً:

-الآن، هاهي الريح تنفث النار على أهراء الربع ومزارعهم. ينبغي ألا يتبقى شيءٌ من هذه المدينة.

وهرعت تزّف بخطاها هاربةً بكل طاقتها وانتحت بوجهها إلى منزل الجريمة وصاحت به:

-لماذا لم تسرج حصانك؟

-لماذا أسرج حصاني، يا عجوز؟

-هل تريد القتال مترجلاً كما يفعل سوادُ الجنود؟

-وأين هي المعارك؟

-حين صمم الملك على هدم المدينة الأجنبية، أما كنت في طليعة الجيش؟ والآن وقد أوعز الملك بقتل ابنك، فهل ستبقى مستلقياً على حصيرتك؟

فانتصب الجريمة واستقام بقفزة واحدة. فقالت المرأة:

-أما كان ولدك هذا ابنك الوحيد؟

-إسرجوا حصاني! إسرجوا حصاني!...

كذا زعق الجريمة بغضب وجنون.

وانصرفت العجوز من منزل الجريمة وخفّت مسرعةً عبر المدينة وهي تردد قولها وتكرره:

-الآن، هاهي الريح تهب وتنفث النار على أهراء الربع ومزارعهم. ينبغي ألا يتبقى شيءٌ من هذه المدينة.

ولّت الشريرة هاربةً بكل ما أوتيت من قوة، قاصدةً دارةَ الملك. وما أن بلغت الرواق الملكي حتى صاحت بعاهل المدينة قائلةً:

-يا مليكنا! يا مليكنا! إسرج حصانك، هيا!...

-ما الأمر يا عجوز؟

-كنت ملكاً، أما الأن فقد خلعت عن العرش: أوعز الجريمة بقتل رسولك. وها هو يمتطي جواده ويطوف المدينة مع فرسانه متحدياً.

فهبّ الملك وهو يصيح برجاله: إسرجوا جوادي! وصرخت العجوز بدورها: أعدّوا قبراً للملك! ثم خرجت مولّية هاربةً وهي تصيح وتعجّ:

-سألقى على النار حطباً وإبالات حشيش جاف.

ومضت الشريرة إلى حيث يتجمع المتسولون واللصوص والمختلسون، وانبرت تناديهم. وحين تحلقوا حولها صاحت بهم تقول:

-عندما تقتتل الوحوش الكاسرة تفترس صغار الحيوانات جثثها... إسمعوا قرع الطبول! واسمعوا وقع سنابك أحصنة الفرسان القادمين! لقد طفق الملك والجريمة يتقاتلان، وهاهما ورجالهما ينتشرون في الشوارع. فقد نشبت الحرب فيما بينهم. ولا أحد منهم يحرص على منزله وذويه. هيا انطلقوا إلى هنا وهناك، واحرقوا المنازل واسلبوا كل ما تطاله أيديكم من حليّ وذهبٍ وفضةٍ وسواها!

-أنت على حق يا عجوز! هلم بنا يا رجال!...

-ما هنّ نساؤكم اللواتي دأبتم على معاشرتهن؟ وما هنّ النسوة اللواتي تقتدرون اليومَ على احتضانهنّ؟ يتصارعُ رجالهنّ في الشوارع والأزقة. هيّا اطرحوا فتياتهم وزوجاتهم أرضاً، فهنّ أفضل من نسائكم البليدات.

هبّ اللصوص والمتسولون ينقضون على غنائمهم. ولبثوا يسلبون وينهبون. وخفّ جميع الرجال المسلّحين يجوبون أرجاء المدينة، وقرعت الطبول، ونخس الفرسان جيادهم. وجمع الجريمة رجاله وغلمانه واستصحبهم قاصداً محلة الملك ودارته. وتجابه المتقاتلون، وتصافوا إزاء بعضهم البعض، وصاح الجريمة بعاهل المدينة، وهو يتميز غضباً:

-أنت أمرت بقتل ولدي الوحيد!

-أجل، لأنه ضاجع زوجتي الشابة الجميلة.

واندفع الخصمان يتبارزان، وكل منهما يمتشق سيفه ويضرب عدوه. فتجندل كلاهما أرضاً فريستين لموت أحمر خاطف.

وتشابك المتحاربون في زوبعةمن حرب سجال وهم يعجون في كَرٍّ وفرٍّ، متلقفين الرؤوس بسيوفهم، وزاجيّن رماحهم في أجسادبعضهم البعض. وهجرت النسوة بيوتهن موليات ساعيات إلى ملاجىء تحميهن وأولادهن. واختبأت الفتيات في الاهراء قابعات مرتعدات. أما اللصوص والمتسولون فظلوا ينهبون ويسلبون موقدين النار في المنازل والمزارع. وتصاعدت ولولات النساء والاطفال. وانبثّ الرجال في الأزقة والشوارع يذودون عن عرضهم، وينقذون أولادهم ومقتنياتهم. وراح كل شيء يحترق، إذ اندلعت النار ناشبة في كثير من الناس ودورهم واهرائهم حتى أمست المدينة رماداً يسطع منه الدخان. وكل من اقتدر على النهب والسلب فرّ من المدينة مولّياً بأسلابه وغنائمه.

إنتشرت جثث الربع في كل مكان وهبت من المزارع زوابع حبلى بالنار والدخان. وولّى اللصوص والمتسولون مثقلين بكافة ما طالت أيديهم من أموالٍ ومتاع.

في نهاية المطاف انتصبت الشريرة فوق باب السور وطفقت تلعب وترقص وهي تغني وتقول:

-منذ شبابي حتى هذا الحين لم أرقص بعد. منذ شبابي لم أعد أغني. أما اليوم فأنا ملكة هذه المدينة. وكل أسراب الضباع والنسور سوف تسجد بين يدي، وسوف تدعوني «ملكةً، ملكة، ملكة»! وسوف تسدي لي الشكر لأني شويت لها لحماً على هذه النار المتقدة، ولأني زودّتها بالطعام الطازج. ثم أردفت العجوز بقولها:

-أمّا أنت يا ماكافو الكفيف، فقد أوعزت إلى عشرة من رجال المليك بأن يوثقوا كافة جوارحي بعشر قدد من جلد متين. فضربوني، ودفعوا بي هنا وهناك. وشدّوا القدد على بدني وأوسعوني نخساً وصفعاً. وكان تعنيفهم لي وجيعاً قاسياً... لقد سجنتني يا ماكافو الضرير في غرفة طفحت بدخان النار والفلفل، حتى اكتظت به حنجرتي وعيناي فهويت على الأرض. وبعدها جعلتني أشول على يأفوخ رأسي الحليق حجراً وازناً وضعته على حلقة من حديد فوق ذؤابة جمجمتي فشلت ذاك الحجر سبعة أشهر ! هيا يا ماكافو ! تعال وانظر هذه المدينة حيث خسرت أنت الدجاجة والعنزة والحمار والحصان والفتاة الجميلة. ألم تعلمني أنت كلّ ما فعلت أنا بهذه المدينة ؟

لبثت الشريرة تلعب وترقص على جدار المدينة المحترقة وقد تجندل كثير من الربع فيها، وانهزم الآخرون نجاةً بأنفسهم. وتمايلت العجوز وهي تتمايلُ وترقص مغنيةً وقائلة:

-وأنت يا أبليس، تعال وانظر ما تقتدر عليه امرأةٌ هرمة. تعال يا إبليس وقل لي: أما تفوقت على كل ما كان بوسعك أن تفعله؟

وإذا بالشيطان يمثل إزاءها. ثم اعتلى بدوره جدار السور وسرّح ناظريه يتأمل المدينة المحترقة المرمدة. وشاهد الجثث المتناثرة والمنازل وقد التهمتها النيران. وبصر عاهل المدينة والجريمة وأعوانهما صرعى على الحضيض، ولم يظل ثمّة من الاحياء حيّ باق. وكانت الضباع تتقاطر من أدغالها، والنسور تحلّق وتحوم فوق البقية الباقية من المدينة وسكانها.

أبصر إبليس كل ذاك الدمار المروع، وكوارث هاتيك المقتلة الرهيبة، فقال للمرأة العجوز:

-ما هذا ؟ أنت يا عجوز صنعت كل هذا بمفردك ؟ وفي يوم واحد ؟ وماذا تفعلين إذن غداةَ غدٍ وما بعده ؟

راحَ إبليس يرتعد هولاً وفزعاً من تلك المرأة الهرمة. وإذا به يقفز من مشارف السور. وآنئذٍ فغرت الأرض فاها وابتلعته.

وغابت الشمس وراء أفقٍ داكن دامٍ.

قصة «شاكا»

طمّاع منهوم بسفك الدماء

جنوب من إفريقيا

ليست حياة شاكا سوى نسيج من حوادث هائلة الوقع والأثر. فقد عاش حياةً زاخرة بأمور تتنافس فيما بينها بأسرار وخفايا تعصى على إدراك البشر. وإذ لم نشأ أن نروي هذه السيرة رواية بالغة الدقة، أوقفنا اهتمامنا على اختيار وجه واحد من وجوه هذه الحياة وحسب، ألا وهو ما يتواءم مع الغاية المنشودة في سرد هذه القصة، لا سيما وإن نهاية المطاف أمست وشيكةً. ولكن، قبل بلوغنا هذه النهاية، سنتيح لأنفسنا مهلةَ توقف يسير لنقدم للقارىء ملخصاً مقتضباً لما سبق.

حين توسل شاكا بالمزراق (أي الرمح الصغير) الذي صنعه له الحداد الساحر (إيسانوسي)، طفق يبذر المنية على أعقابه، دون هوادة ولا شفقة، فذاع صيته. ثم غدا طاغيةً جباراً بلجوئه إلى استغلال هذا المزراق: فقد اعتمد على اقتداره الهائل وجحافل يعسر إحصاء أفرادها. وشرع بحملة حرب على الجنوب، أتاحت له الفرصة للقضاء على كل ما يعترض طريقه دونما رأفة ولا شفقة. وكلّ من ولّوا هاربين من أمام وجهه قاموا هم أيضاً بإهلاك أعداد هائلة من البشر يربو مجملهم على كل من قضى عليهم شاكا قضاءً مباشراً. ثم صارت هذه الإبادة عامة وانتشرت أيضاً بمنحى الشمال. وإن كان لا بد من إحصاء جميع الذين لقوا حتفهم إبان هروب عشائر (ماتيوانيه)، على سبيل المثال، حين داهمهم شاكا، وإن كان

لابد من إحصاء ضحايا (باتولوكو سيكونييلا) أو الضحايا الذين سقطوا أمام (سيليكتسي) إلى جانب من أوعز شاكا بإبادتهم في ربعه بعينه، أي في ربوع (الزولو)، والأولاد الصغار الذين ذبحوا تنفيذاً لأوامره، لوجدنا أن عددهم جميعاً يعصى على كل إحصاء... وإن أضفنا إلى هذه الجملة بأكملها موت (نوليويه) وغيره... ووفاة زوجات شاكا، فلا يسعنا إلا أن ننذهل أمام مشهد هؤلاء القتلى الذين يتعذّر تعدادهم.

ولكي نحاول إدراك مدى هاتيك الداهية التي دهمت كذا الشعوب في تلك الحقبة، علينا أن نتصور أننا نحصي ثلاثة أو أربعة أضعاف مجموع قبائل (باسوتو) بأسرها، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأن نفرض أن كل ذاك الجمع الغفير، دونما استثناء، تمّ إبسالهم وإبادتهم.[1]

أفضت جرائم شاكا إلى الكوارث الرهيبة والشدائد المخيفة التي نعرفها باسم (ليفاكانيه)، في ذاك الزمان، حين طفق الناس يعيشون على نفقة أقربائهم. وكان يجري الاستيلاء علناً على مقتنيات الآخرين. وراحت شعوبٌ بأسرها تهيم على وجوهها دون قرار. وحتى تلك الحقبة، لبثت هذه الأمور غريبة مجهولة. ومن جراء جرائم شاكا وفظاعات ارتكبها هو نشأت عادة أكل لحوم الآدميين، وهي أشدُّ فظاعة أبغضها البشر، حين انبرت الكائنات العاقلة يطارد بعضها البعض، كما يطارد الانسان الحيوان، فالناس يداهمون أمثالهم ليطعموا لئلا يتضوروا جوعاً وسغباً!

وفي تلك الفترة بعينها، بلغ شاكا منتصف الطريق التي يسلكها البشر في هذه الحياة، عندما تأزف أيام تصبح الحياة فيها، بالنسبة إلى الانسان، حياة يحسن التمتع بها، ويروح العمال ينعمون بثمار أعمالهم وكدّهم، فيشاهدون تكاثر الدواب ذوات القرون، والعنزات الصغيرات التي يكسبونها بعرق جباههم. وقتذاك يتمكن المقتنون من التلذذ بشرب حليبها، وأكل لحومها، فيما يسترسلون في تأملهم ألعاب أولادهم وفلذات أكبادهم.

---

(١) علينا التذكير هنا بأن القصة كتبت من أجل قبائل (باسوتو)، ويكفينا أن نعرف عدد أفرادها-٦٠٠ ألف نسمة- حين كتبت هذه القصة.

على هذا، طفق شاكا يدرك أن أحلك الخواطر تحيق به من كل حدب وصوب. أجل، كان ذاك الزعيم الأعلى منهكاً، بدلاً من ابتهاجه بسلطان لا حدود له، وبثروات جمة فاحشة، وعوضاً عن تمتعه بجميع ما يقتنيه، وبكل ما طمح إليه فؤاده. فلم يكُ ثمةً مليك أعظم سؤدداً من شاكا. فكل أمراء المسكونه يقرون بأنه سيد لهم ومولى. وحينما يفدون إليه زائرين، لايدنون منه إلا وهم يحبون على أجوافهم ساجدين بين يديه. وعندما يستوي على عرشه ينتصبُ شاب مستقيماً إلى جانبه، وهو يظلله بترس، فيما يقبل مستشاروه وبصوت خفيض يتفوهون بكلم المديح أو التقريظ ونواظرهم شاخصة إليه، متأهبين لمخاطبته بألطف كلمات يلذله سماعها، أو بالتحيات الموشحة بأعمق تعابير التجلة والتبجيل. وبرغم كل ذاك السلطان وفي غمرة جميع مظاهر التفخيم والتمجيد التي يبدونها له، لبثت هواجسُ باهظة تساور ذهنه، فلا تدع له رَوْحاً ولادعة.

كان عدد مقاتليه يضاهي نجوم السماء كثرةً. ولم يكُ لأيّ عاهل في المعمورة نظير ذاك الحشد من المحاربين الذين ينفذون مآربه. وثمّ إنهم غدوا جبابرة يتعذر قهرهم، أبطالاً يناوئون الشدائد ويظهرون على عذاباتهم ويكظمونها. ناهيك من انتصاراتهم على أعداءٍ من لحم ودم! أما كان يتحتم عليه الشعور بأنه مغتبطٌ بجميع ما أوتي من عزةٍ وتوفيق؟ سيما وأنه هو الذي ظفر بكافة ضروب الانتصار من جرّاء ما بذل من جهدٍ وكدّ. وهو الذي سما بنفسه إلى ذاك القدر من الحول والاقتدار. وعلى هذا، وفي عزّ كل ذاك الازدهار، وذاك المجد والظفر، إنبرت روحه تكتئب وتتململ ظمئةً غير راضية.

لكنْ، أما يسعنا التساؤل عن دواعي، أنين قلبه مثل ذاك الأنين، وأسباب معاناته بمثل ذاك التكدّر، ونفثه كل تلك التأوهات؟ بأي أمر كان يتوخى أن يشبع طموحه ويخمد سورة نهمته؟

فهل ثمة ما لم يتوفر له في هذه الحياة، وما ليس في طاقته الحصول عليه إن طمح إليه، ولئن طموحاً يسيراً؟ ولبث شاكا، رغم تمتعه بغمرة الرخاء وبطائل

الثراء، يفتقد في صميم كيانه الهدوء والاستكانة. وبعد حين لم يعد يلقى لذاذة العيش في أي شيء كان. وسلخت خواطره عن صفاتها الفذّة، وانبرى كل شيء يختلط في ذهنه ويتشابك. وبات من المستحيل عليه أن يهيمن على الصعوبات التي يتوعر بها طريقه، وأن يصمم على بلوغ مآرب جديدة تتسم بالحزم والثبات. لبث شاكا فترةً من دهره رجل حربٍ، وقد شبّ في سيلٍ من الدماء التي أهرقت حوله دون شفقة، بل أغرق هو في هدرها. وها هو الآن قد عزف عن كل قتل وتقتيل، لأنه لم يعد يحارب في طليعة جيوشه. واستحوذت عليه رغبة جامحة في أن يشاهد الناس يموتون. وتزهق أرواحهم هالكين بكلتا يديه. ونشبت في حناياه نهمةٌ عارمة إلى سفك الدماء وبات يزعق ألماً من حدّة سورتها...

وتولاه السقم من الحرمان الكامن في أعماقه، لأنه لم يعد يتأمل بأم عينه الدماء وهي تترشش وتهرق. فحين كانت جحافله تسفك دماء الأعداء، لبث هو في عاصمته، وغيظه ينهش كبده، فهو لا يفعل ما يفعل مقاتلوه. فاستولى عليه غليلُ ظمئه الشديد إلى غمس يديه هو أيضاً في لجة الدماء وغمرتها.

أزف اليوم الذي لم يعد يطيق فيه ما يضنيه فقرر إقامة احتفالٍ عظيم، سعياً منه إلى أن يهدىء النزق من سعار جنونه الذي يفت أركان قلبه. وعندما حان ذاك اليوم، شخص إلى الاحتفال حيث أفضت الأفراح إلى عز غمرتها. وانبرى ناظراه يبحثان عن هؤلاء الذين في وسعه أن يقصيهم عن الحياة، وبفضلهم قد يقتدر أن يروي غلّة العطش العارم الذي يمحق روحه وكيانه.

في ذاك اليوم، قضي على حياة بعض الحضور في الاحتفال المتنامي إلى أوج تمامه، لأنهم - كما أعلن جهاراً في ذاك الحين - إفتقروا إلى مهارة الرقص والغناء. ومن ثم، ألحقوا الأذية بالرقص والغناء بمحضر العاهل، كما ألحقوها بالاحتفال كله.

وكان المدعوون يستطيعون أن يروا أناساً لم ترتقِ رئاتُهم إلى مقدار إرادتهم، فلاذوا بجانب الصمت، واكتفوا به، لئلا يثير نشاز أصواتهم الانتباه. غير أن المليك أول صمتهم تأويلاً سيئاً أفضى إلى إزهاق أرواحهم، بحجة أنهم يحتقرون الاحتفال الذي أقامه عاهلهم.

وأحياناً ما يحدث في الحياة أن من يلقى عليهم خطابٌ متأجج الحماس، يستحوذ عليهم التأثر فترهف مشاعرهم حتى يذرفوا الدموع. لم يكن الأمر مختلفاً عن هذا في ماضي الزمان حين كان البشر يعيشون في ظلمات الاحقاب الغابرة: فمن الممكن أن يستدعي غناء ما أو رقصة ما بكاء الحضور، ولا سيما الشيوخ منهم الذين يعجزون عن المشاركة في مثل هذه التسليات مشاركة فاعلة.

ولكن، في ذاك اليوم المشؤوم، إستولى التأثر على عددٍ وافر من الحضور لدى رؤيتهم أفواجاً من المقاتلين يرتدون بزاتٍ موحدة الطراز، وسرايا من الجيش يرتدون بذلاتٍ موحدة اللون. فراح بعض المدعوين يذرفون الدموع مستذكرين أيام شبابهم الغابرة، وما سبق لهم أن كانوا عليه هم أنفسهم من أناقة وقيافة... وبدا أن بكاءهم بكاءٌ حقيقي بينما يجهد آخرون في تذريف الدموع دون قناعة تامة بما يفعلون، بل يقولون لمن يصغي إليهم أن ذاك الاحتفال الذي أوعز باقامته العاهل يثير أعمق مشاعرهم.

لاحظ شاكا تذريف الدموع، وأخذ يسأل عن اسبابه. وحين أعلموه بها، أجاب للحين مستفسراً:

-ماذا؟ هل ترون غرابةً في أن تشاهدوا رجالي المقاتلين يُرَوِّحُون عن أنفسهم؟ وهل المشهد هذا يدفعكم إلى البكاء، في حين لا تذرفون العبرات عندما تتأملوني أنا، رغم عبقريتي الفذة؟ ألست من اخترع كافة هذه التسليات؟... لا جرم أن مشهد رجالي ليس هو الذي يثير تأثركم، بل مجرد رؤيتكم ألبستهم القشيبة، فهي آية من الجمال. إن رونق البذلات وحسب هو الذي يستدر عبرات عيونكم. ولكن جمال أجسادهم وشخصية مَن صَمَّم هذه الألبسة لم يوحيا لكم سوى الذهول وعدم الاكتراث. وفي هذا قدحٌ فادح لذاتنا الملكية!...

وشهر شاكا في الحين مزراقه الصغير، ونصبه عالياً في الهواء، سعياً منه إلى أن يرى الحضور أجمعين صرعى مجندلين على الحضيض. أجل هؤلاء المساكين الذين ارتكبوا هفوةً في تقديرهم للأمور الراهنة قد تصوروا أن المليك سينعم بالارتياح والرضى إذ يشاهدهم يسكبون دموع البهجة والتأثر إزاء جمال الحفلة الملكية وأناقتها!

ومن ثم، قتل أيضاً كافة من رَوَّحُوا عن أنفسهم فرحين سعداء. كما قضى على المغنين والراقصين الحذقين الذين تفوقوا في فنهم. فقد أعلن شاكا أنهم بمهارة فنهم دفعوا الحضور إلى البكاء. وبذلك استلب العاهل قسطاً من أبهة عظمته. وصعق الشعب بهذه المجزرة وتساءلوا بقلقٍ عمّا يتحتم فعله لكي يسترضوا عاهلهم بما أنه كان يوعز بقتل الفنان الفذ والمغني الخرق، وحتى كل امرىءٍ يفتح فاه! وكافة هؤلاء الذين تحدثنا عنهم للتو ذبحوا في وضح النهار وفي غمرة الاحتفال.

هبط الليل. وإذ كان القوم، خلال هجيع متأخر منه، يأوون إلى أكواخهم، أمر شاكا باستقدام فرق من الجيش وفرض عليهم القضاء على من دعاهم إلى حضور الاحتفال. أما هو فأعلن أنهم حاكوا مؤامرةً على حياته. فقام غلمان خدمته الشخصية، مع أفراد آخرين ينعمون بثقته في العاصمة للنهوض بمثل هذه المهمة، بتنفيذ إيعاز سيدهم تنفيذاً يتسم بالدراية والكتمان. فاختفى، في غضون الليل، مئات من الناس، إختفاءً سرمدياً.

كان لا بد من تلك المجزرة الرهيبة كي يستعيد قلبُ شاكا تمتعه بالحياة فيعاود إلى تنعمه بها فيلقى فيها مجدداً سحرها وإغراءاتها... وبذلك استرد شهيته للطعام. فاستكان في داخله العطش الذي أوقد كيانه وألهبه. فغدا من جديد خليقةً إنسانية، وأقله ظاهراً وحسب. لأنه عاود مرات عديدة يرتكب مذابح هائلة كما سبق له أن فعل. ولبث يحاول تهدئة ذاك الهاجس الذي دأب يعذِّب وجدانه عذاباً مريراً.

وما كان يدعوه إلى اختيار الحفلات ويؤثرها على كل وسيلة سواها، هو أنه يستطيع فيها القتل والذبح حسب ما يرغب ويشتهي، منتهزاً فرصة اجتماع حشدٍ عظيمٍ من أناسٍ يُدعَون إلى الموضع نفسه.

قَسَم الرجال

من أدب الكونغو - كينشاسا

في ماضي الزمان، كان ثمة رجل لا يفترق البتة عن كلبه لأنه يعتبره حارساً له أميناً وغيوراً عليه.

وذاتَ يومٍ، إنطلق الرجل بُكرةً إلى صريمته (١) ليقطع بضعة أقراطٍ من تمر النخيل، ثم ينثني إلى القرية مقايضاً بها قوتَ عائلته. وتناول ساطوراً وراح كلبه يلازمه ويتبعه.

وفيما كان الرجل يتسلق نخلةً، متوسِّلاً بحبل صنع من الرافية (٢) ملص الساطور من يده، فسقط أرضاً. وطفق الرجل يتأفف ويلعن غاضباً، ثمّ خاطب نفسه قائلاً:

-أقسم بأسلافي الاقدمين! ليتني لم أفلت هذا الساطور من يدي. والآن سيكلفني إفلاته عناء النزول ثم معاودة الصعود. آه! ليت كلبي يستطيع التحول رجلاً! إذن لتسلق النخلة مستعيناً بالحبل الثاني، فأتاني بهذا الساطور اللعين. وراح يتساءل عمّا ينبغي له أن يفعل.

وانذهل، على حين بغتةٍ، بمفاجأة حقاً مدهشة، إذ كلّمه الكلب قائلاً:

-أيها الرجل أنا وأنت لم نتفارق قط. فقد تبعتك أينما مضيت، وأسديت لك خدماتٍ شتى. وها أنذا سأصعد إليك بهذا الساطور.

---

(١) الصريمة: بستان نخيل.

(٢) الرافية: جنس من النخل تستخدم اليافه في الصناعة.

والتقط الكلب ساطور معلمه المنطرح أرضاً، وتوسل بالحبل الثاني صاعداً إليه لخدمته. وإذ ناوله الساطور قال له:

-إليك الساطور يا معلمي! ولكن عليك أن ترهف سمعك إليّ جيداً. أنت أول إنسان يسمعني أتكلم لغة الآدميين. وبعد هذا الحين، سوف تفهم لغة الحيوانات جميعاً، غير أنك لن تقدم على ترجمة لغاتها لغيرك من البشر، ولا أن تكشف لأي إنسان أنك تفهم لغة الحيوان. وإلا نلت جزاءك بموت زؤام...

أخذ الرجل الساطور وقد ارتعدت فرائصه ذعراً، ثم استأنف تسلّقه النخلة، وأسقط قرطين من تمر النخيل ونزل وانثنى يسلك درب القرية حاملاً ما جناه على كاهله والكلبُ يجانبه صامتاً...

أجل، لقد طفق الرجل يفهم منذ ذاك الأوان لغة الحيوانات كلها. وكان يحدث له في القرية أن يقهقه مستغرباً في الضحك أمام زوجته، لأنه يفهم لغة الدواجن من حوله. وحين تسأله امرأته عن دواعي سروره المفرط، يسعى دوماً إلى أن يعلله بأنه قد تذكر مشهداً ممتعاً روح عنه العناء وأضحكه.

وانتهى به الأمر إلى أن القرويين ظنوه سخيفاً سفيهاً. وانبرت زوجته تصيح به متوترةَ الأعصاب، وتتهمه بأنه يسخر منها. وطفق رجلها يخجل ويكثر الاعتذار، محاولاً أن يهدىء غضبها ويطيب نفسها.

وذات يوم، قرر المضي مع امرأته إلى أسرة حَمَوَيْهِ لزيارتهما. فاصطحبها ومضى إلى قرية أهلها، حيث وصلا عند الغسق. وبعد أن استقبلهما الحموان بفرح وحفاوة، أخلدا إلى النوم والراحة.

في الغداة الباكرة، طفقت الحماة- وهي عوراء- تسحق قليلاً من المنيهوت[1]، فيما كان صهرها جالساً يستظل نخلة قريبة، وهو يراقب ديكاً وعيلته. وإذا به يدرك أن مسرحية طريفةً أصبحت وشيكة. فقد قال الديك للدجاجة زوجته:

---

(١) منيهوت: نبات له جذور نشوية تؤكل، وهي التبيوكا.

-بما أن المرأة عوراء، ولم تطعمنا بعد، سأمضي لأتراقص قبالة عينها السليمة المفتوحة، لكي أسترعي انتباهها. وفيما أنا أفعل كذا، إنتقلي أنت مع أولادنا الصيصان الجائعين إلى ناحية العين الضريرة، وآطعموا ما سوف تستطيعون. ثم تحلون مكاني لكي أطعم بدوري.

ما أن رسمت الخطة، حتى بوشر بتنفيذها.

حين سمع صهر الحماةمكيدة الديك وشاهدها موضع التطبيق شرع في الحال يقهقه مسترسلاً في ضحكه. وإذ كانت الحماة شديدة الحساسية و«النرفزة» ظنت أن الضيف يسخر من عاهتها ويستخف بها، فتأجج حنقها عليه، واستفسرت عن تصرفه المبتذل.

وأخذ صهرها يكذب ساعياً إلى التملص من حرج ورطتة.

وعلى غرار ما حدث، تكررت المواقف، إلى أن أُقحمت زوجة الرجل في الأمر، فاتهمت زوجها بأنه يهزأ بها، دونما سبب ولا دافع. وأغرق أهلها في المزيد من التشكي، حتى تحتم على مجلس القرية أن يعقد اجتماعاً طارئاً خطير الأهمية.

أُحرج الرجل أمام المجلس، ورفض أن يجهر بحقيقة سره. لكن، عز عليه أن يبدو قدام ربعه سيىء الأدب والسيرة فباح بسره الدفين، حرصاً على شرفه وحسن سمعته. فروى لجميع الحضور مغامرته مع الكلب الأمين، وباح بقدرته على فهم لغة الحيوانات...

وفي ختام إفشائه جهراً بسره، لم يلبث طويلاً أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

على ذاك المنوال، سيكون جزاء من يحنثون بعهودهم. فثمة جزاءٌ ما سيحل بهم ذات يوم. كذا يقول الأسلاف الاقدمون.

(فارا) والتمساح العجوز (مامبا)

من جزيرة مدغشقر

كان، في دهر من الزمان، ابنتان من مدغشقر تنعمان بالحياة الراغدة في تلك الجزيرة العظيمة. وأطلق على إحداهما إسم (رابيلا) وعلى الثانية إسم (فارا). وسبق لهما أن دأبتا بحماس على اللعب فوق رمال ضفاف النهر. لكن والدتهما غالباً ما حظرت عليهما ارتياد ذاك المكان، خوفاً عليهما من التماسيح المفترسة. وذات يوم، توسلت الابنتان إلى أمهما بإلحاح كي تسمح لهما باللعب هناك. فقبلت الأم ولكنها أوصتهما بقولها:

-لا تنسيا أنه يتحتم عليكما ألا تسخرا أبداً بالتمساح العجوز (مامبا). فهو يفتقد الصبر والتروي. وقد يلحق بكما شر مكروه وأذية.

وعدت الفتاتان بالامتثال لنصيحة والدتهما. ومضتا إلى عدوة النهر حيث راحت كل منهما تلهو وتلعب بحصوات صغيرة. وللحين، خرج التمساح العجوز (مامبا) من بين القصبات ليرنو إليهما. ونظرته كل من الفتاتين. لم يكن الحيوان جميلاً بالحقيقة. ولم تستطع (فارا) الامتناع عن رغبتها اللجوجة في مخاطبة (مامبا)، فقالت:

«أوه! أوه! أيها التمساح العجوز!

كم رأسك غارق في بدنك!

وكم عيناك مُتَقَّبتان!

وكم جوفك حرش خشن!

وكم ظهرك مرصوف بالحراشف والفلوس!

من ثم، إستشاط (مامبا) غضباً وتسلق عدوة النهر كي يلتقط الفتاتين. بيد أنهما استطاعتا الانهزام سريعاً. وهرعتا قافلتين إلى المنزل حيث سألتهما والدتهما:

-حسن! يا ابنتيّ! هل كنتما عاقلتين؟

-أوه! يا ماما! لقد سعى التمساح إلى القبض على (فارا)!

-آه! لعل (فارا) سخرت منه! علينا أن نعرف دوماً كيف نلجم لساننا، يا ابنتيّ!

-كذا قالت الوالدة. وفي الغداة، عادتا بكرةً إلى النهر. وشرعت كل منهما تلهو وتلعب بحصوات صغيرة. وطفقت (رابيلا) تروح عن نفسها وتمرح. غير أن (فارا) لم تكن مطمئنة. وأخذت تتأمل (مامبا) وقد اضجع منداحاً على جزع شجرة، مغلقاً عينيه أو يكاد. حقاً لقد كان دميماً كريهاً حتى إن (فارا) أنشأت تثني له بصوتٍ خفيض كل الهجاء الذي هجته به سابقاً.

لكن، ساعتها، لم يكن بوسعها أن تقول المزيد، لأن التمساح تلقفها وازدردها بغيظ ونهم. فتوسلت (رابيلا) المسكينة إلى الوحش أن يعيد إليها شقيقتها. بيد أنه غار واختفى في المياه العميقة. فعادت شقيقتها وقلبها يتفطر حزناً وألماً. وأخبرت والديها بما جرى.

هرع والدا (فارا) بكل سرعة ممكنة إلى ضفة النهر وراحت الأم تنادي (مامبا) وتهيب به متوسلة:

-يا (مامبا)! يا أنت! أعد لنا (فارا) إي نعم، لقد أقبحت بتصرفها جداً، ولكنّ لوعتنا عليها ملوعة جداً أيضاً. أعدها إلينا! ولن تبدي لك إلا الاحترام والتقدير.

وأجابها (مامبا)، مقلداً صوت (فارا) الضئيل:

أجلْ! أجلْ! يا سيدتي الطيبة!

هلمي وابحثي عن (فارا)!

فابنتك (فارا) ذلقة اللسان

طويلة اللسان، ذلقة اللسان
واسمعي ما نَعَتَتْنِي به (فارا) ابنتك:
كم رأسك غائر في بدنك أيها التمساح!
وكم عيناك جسيمتان متقببتان!
وكم جوفك حرش خشن!
وكم ظهرك متلبد بالحراشف والفلوس!»
كذا قالت ابنتك أيتها السيدة!
وهذا هو أسلوب كلامها، أليس كذلك؟
ولبثت الأم فريسةً للحزن والعذاب. فقالت لزوجها:
-هيا كلمه وتوسل إليه، أنت بدورك!
-يا (مامبا)! هيا أعد لنا (فارا)! لقد أساءت وأقبحت إليك جداً، ولكن لوعتنا عليها ملوعة جداً أيضاً. أعدها إلينا! ولن تبدي لك إلا الاحترام والتقدير.
كذا توسل والد (فارا)إلى التمساح الذي أجابه مقلداً صوت الفتاة الضئيل:
إي نعم، إي نعم، يا عجوزي!
هيا ابحث عن ابنتك (فارا)!
فابنتك هذه ذلقة اللسان
طويلة اللسان، ذلقة اللسان!
واسمع ما قالته لي ابنتك (فارا): قالت لي إن رأسي غارق في بدني، وأن عيني جسيمتان، وأن جوفي حرش، وأن ظهري مصفح بالحراشف.
وفقد الوالدان كل اصطبار وشجاعة. غير أن الأم استأنفت كلامها مقترحةً على زوجها:
-وإن أهديناه شيئاً مقابل (فارا)؟
-أجل! لنعطه ثوراً.
-يا (مامبا)! هيا أعدها إلينا، وسنهديك ثوراً.
أمر التمساح (فارا) بقوله:

-أجيبيهما أنت ! فقد أخذ التعب ينهكني . وصاحت (فارا) من جوف التمساح وقالت:

-يا أمي ! يا أبي ! إنه يرفض .

-يا (مامبا) سنعطيك عشرة ثيران!

-يا أمي ! يا أبي ! إنه يرفض .

-يا (مامبا) ! سنعطيك عشرين ثوراً!

كذا قالت أخيراً (رابيلا)، وأجابت شقيقتها بأن التمساح لا يزال يرفض. ثم كررت الأم نداءها، وقالت للتمساح إنهم سيعطونه مئة ثور. حينئذٍ إرتأى (مامبا) أن ابنةً صغيرة تقايض بمئة ثور صفقة مربحة جداً. فَهَمْهَمَ قائلاً إنهُ يقبل مئة ثور فدية لابنتهما. ويتحتم على الوالدين أن يسوقا القطيع إلى النهر... وسمع الأبوان صوت (فارا) يخبرهما بأن التمساح رضي بالمقايضة.

عادت (رابيلا) بصحبة والديها إلى القرية، وقد استولى عليهم أشد الضيق والحرج، لأنهم لا يقتنون أكثر من عشرين ثوراً. فقصدوا أقاربهم وأصدقاءهم متوسلين إليهم أن يعيروهم ما ينقصهم من الثيران. وكان يراودهم الأمل في أن عدداً وافراً منها سيتمكن من الافلات والهرب.

واستطاع القرويون جمع مئة من الثيران فساقوها إلى عدوة النهر. وحين شاهد (مامبا) العجوز القطيع، فغر فاه الهائل فتمكنت (فارا) من الخروج سالمة. ثم دب الوحش إلى الثيران.

لكن القرويين سبق لهم أن أقحموا في مقدمة القطيع أشدّ الثيران قوةً وأوفرها شجاعةً. فأغارت على التمساح وفقأت عينيه بقرونها. وللحين، إنقضّ على (مامبا) بقية القطيع، وبقرت جوفه وداست جثته وقطعته إرباً.

وهكذا فقد التمساح العجوز الشره كل ما توخى أن يلتهمه، لأنه كان طماعاً إلى افتراس الكثير من الثيران.

أما (فارا)، فعادت إلى منزل العائلة، مع والديها وشقيقتها. وبفضل هذه المحنة الرهيبة، برئت من رغبتها في كل ثرثرة مسرفة كانت قد دأبت عليها...

قصة سامبا
والوحش «غينارو»

ذات يوم، عزم سامبا على الترحال، لكي يشاهد أقطار العالم، فيكتسب المزيد من الثقافة والمعرفة. فتدجج بكامل عدّة الحرب: بالترس والرمح والسيف... وامتطى جواده الذي لم يكن يمتطيه إلا للقتال والمعارك. ثم مضى يسلك درباً عبر الغابة مصطحباً معه غلامه الأمين (دونغورو).

وعقب انقضاء ساعات عديدة، بلغ شاطىء بحيرة فسيحة الأرجاء، كانت تسطع من مياهها النتنة روائح خبيثة مؤذية، وقد أوشكت البحيرة أن تغيب خلف أشجار عملاقة سامقة، حيث كان يقبع غينارو وهو وحشٌ هائل مفترس، وضربٌ من تنين الكوابيس له جسدٌ مصفح بالحراشف والفلوس الضخمة، كجسد التماسيح، وقوائمه المكتنزة المفتولة مسلحة بمخالب أشد طولاً ومضاءً من مخالب الليوث الهائلة، ومنظر رأسه جدّ كريه، حتى إن مجرد رؤيته يقحم الهول والرعدة في قلب جميع من يشاهدونه.

لكن سامبا بطل مغوار غير هياب. وبرغم مُناشَدة غلامه (دونغورو)، ترجل عن ركوبته مقترباً من البحيرة المخيفة.

للحين، طفقت المياه الداكنة الآسنة تتموج وتنتفض. ثم أخذت تنبجس ثم تفور، وبعدئذ تنتصب ثم تهبط، لتعاود الانتصاب وكأنها أمواج بحر عاتية. وتعالت غمار البحيرة مرتفعة ارتفاع أطوار شامخة، وبعد حين يسير دوت المياه صاخبة. وعقب نزق هياجها، أمسكت عن كل حراك لها، وانكفأت إلى الهدوء والسكينة. إذاك، استقام (غينارو) منتصباً في لجج مياه البحيرة، باحثاً بناظريه عن المغامر الذي افتقد كل حكمة وحصافة فأقبل يناوئه ويتحدّاه.

نظر الوحش سامبا، فانثنى إليه متمهلاً، وأرعد الرعود المجلجلة، وفغر شدقيه، نافثاً أنفاسه المتقدة الوبيئة. إلا أن سامبا لبث رابط الجأش، بل، نظر الوحش الهائل مواجهة. آنئذٍ، إنبرى (غينارو) يتجسم ويتضخم: فاستطالت عنقه، وسما رأسه إلى ما فوق قنات الأشجار العملاقة، بل تسنم أعالي الغيوم في كبد السماء. بيد أن سامبا لم يعتره أي تأثر ولا خشية. وتحدآه سائلاً:

-قل لي يا (غينارو) ! لماذا تفعل فعلتك هذه ؟ ولماذا تصرف وقتك سُدى ؟ فأنا لا أرتعد ولا أخاف.

-أنت حقاً أشجع جميع أبطال ربعك. ولذا، أريد أن أجازيك خيراً. هاأنذا أهبك بندقيتي، وستجدها هناك، عند قدم هاتيك الشجرة (الباؤوباب) (١). وسيكفيك أن تجرد البندقية من جرابها لكي تقضي على كل عدو لك فيهوي على الأرض هالكاً قتيلاً.

كذا قال (غينارو). ومضى سامبا ليأخذ البندقية وطفق يناجي نفسه بقوله:

-حسن ! سأرى للحين إن كان هذا الوحش كاذباً أم لا.

وأخرج سامبا البندقية من جرابها الجلدي، وإذا بالوحش المارد يهوي قتيلاً دون حراك.

الوحش كايمان:

استأنف سامبا ترحاله، فبلغ مدينةً عظيمة يجهلها وحين اقتحم جوفه سُعار العطش، ترجل أمام أول كوخ والتمس قليلاً من الماء. فأتته خادمة بقرعة ركدت في قعرها بقية من ماء آسن، ينفر كل إنسان يرتوي منها. فقال سامبا: يا لها من قذارة ! فأجابته الخادمة: أجل يا صديقي، لم يعد في القرية ماءٌ شروب. فإن

(١) باؤوباب: شجرة من افريقيا الاستوائية لها جذع عريض ولب ثمرها يؤكل، وهي عند الزنجيقيين رمز للعطاء والأصالة.

العملاق كايمان يقطن النهر الوحيد في ربعنا. وعلينا أن نستقي ماءً مرةً واحدة في السنة. ويتحتم علينا أيضاً أن نضحي بفتاة شابة ترتدي ثياباً كثياب الأميرة ابنة الملك: أي أنها تتحلى بحليٍّ ذهبية في أذنيها وفي شعرها، وبأساور لمعصميها، وخلاخيل ذهبية لكاحليها: وإن راقت له الفتاة ذهب بها وافترسها. وإن لم تعجبه تحتم علينا أن نحضر فتاة أخرى... وإلا، لا يدعنا نستقي مؤونة الماء من جديد... ويرغمنا على أن نذهب إليه بكرة الغد بفتاةٍ نضحي بها هذه السنة.

-حسن! أعطني قربة ماءٍ فارغة. سأمضي الآن إلى النهر لأستقي ماءً أنا بنفسي ليَ ولك!

-سيفترسك كايمان! إنه وحش هائل رهيب.

كذا قالت الخادمة، وقد ارتعدت فرائصها خوفاً عليه.

أمّ سامبا النهر، وملأ القربة التي أخذها من الخادمة. وشرب حتى ارتوى، ثم أتاح لـ(دونغورو) ولحصانه أن يرتويا... وقتذاك، صخبت ضجة هائلة تنذر بخروج كايمان من جُحره في الماء. وعلى حين بغتة شرع الوحش يسأل سامبا:

-مالذي أتى بك إلى هنا؟

وطفق زفير الوحش العاصف يطأطىء رؤوس الاشجار حتى الحضيض. وأجاب سامبا بتؤدة وثقة:

-أنا عطشان، ولا بدلي من الشرب.

-إنصرف من هنا للحال وإلا ازدردتك لقمةً واحدة!

-لن تفزعني أيها العملاق كايمان!

كذا أجاب سامبا. فانبرى كايمان يخوض المياه إلى سامبا بنزق الثورة والغضب، وفغر شدقين هائلين، واتقدت عيناه العندميّتان كجذوتي نار مضطرمة. فارتعد جواد سامبا، ارتعادأوراق الشجر: ولم يستطع الخادم الأمين دونغورو نفسه أن يثبت مزيداً من الوقت. فهرع ليتوارى وراء خُمر دغل محاذ.

لبث سامبا رابط الجأش ثابت الجنان. وحين اقترب منه الوحش كايمان وفكاه يقرقعان انتقاماً وحقداً، بادر سامبا إلى تجريد البندقية من جرابها، فسقط كايمان للحين وهلك في غمر مياه النهر.

إقتطع سامبا من جثة الحيوان الهائل قطعة من جلده، وناولها لغلامه دونغورو، ثم خلع على عدوة أساوره وخُفَّيه متيقناً أن أحداً لن يستطيع اقتناءها بعده، فليس لأحد من الربع كاحلان وزندان نظير ماله. ثم انقلب سامبا عائداً إلى القرية...

ضحية للوحش كايمان:

في الغداة، أوعز الملك إلى جميع الشعراء السحرة أن يقتادوا إلى كايمان الشابة المعدة لتكون فريسته. أركبوها حصاناً وتبعها الرواة السحرة، يرفعون عقيرتهم، منشدين ومشجعين بقولهم:

أجل، أيتها الفتاة الشابة،

قلبك الباسل مفعمٌ بالشجاعة!

طعم كايمان شقيقتك البكر،

كما افترس اختك الثنية.

وسوف يزدردك أنت أيضاً

وأنت تتحدينه إذ لا تخشينه

وبتضحيتك سنستقي ماءً صرداً شروباً.

ولجت الفتاة في مياه النهر. وشاهدت كايمان يعوم على وجه المياه، فراحت ترتعد وتولول هلعاً. لكنّ كايمان لم يبد حراكاً. وصاح الرواة السحرة متأففين:

-يا للمصيبة! الوحش غير راضٍ بهذه الفتاة ولن يمدنا بماء الشرب، وسنهلك جميعاً عطشاً، لأن القرب كلها خالية خاوية.

وارتد الربع إلى القرية ليأتوا بفتاة أخرى تفوق الأولى جمالاً، ثم دفعوها إلى الوحش، ولكنه لبث لا يبدي حراكاً. فأتوه بفتاة ثالثة، بالأميرة ابنة الملك، فهي تتحلى بالجمال وببسالة الرجال، على غرار سامبا. وهي بهية الطلعة كنهار شموس.

خاضت الأميرة غمار المياه، دونما تردد. ولكن كايمان لم يبد حراكاً. فشتمته الأميرة، ولكنه ما برح فاقداً كل حراك. آنئذ اقتربت منه الفتاة وضربته ضربة شديدة بجمع قبضتها. وإذ لَبِث جامداً هامداً، تسلقت رأسه وهي تصيح بفرحة لا مزيد عليها:

-مات كايمان ! مات كايمان الوحش !

وهرع القوم طراً يخوضون مياه النهر وكلٌّ منهم يسعى إلى مشاهدة الوحش الميت، فهو لن يلحق بهم أية أذية ... فصاح الملك:

-من قتل كايمان عليه أن يبرز الدليل على ما فعل. وسوف ينال مني كل ما يريد ويشتهي.

من قتل كايمان ؟

ما أن وعد الملك بأنه سيكافىء من اقتدر على قتل كايمان بمكافأة كريمة حتى ابتدر القوم يصيحون، ويدعي كل منهم بأنه هو الذي أهلك الوحش العملاق. وراح كل منهم يلفق حكاية بغية إقناع الربع بأنه هو القاتل الحقيقي.

وإذ بخادم هرم يعثر على أساور سامبا وخفيه. فصاح: هاهي أساور المنتصر وها هما خفاه. فقال الملك:

-حسن ! فمن بوسعه أن يتسور هذه الأساور ويحتذي هذين الخفين، على أن تكون لا كبيرة جداً ولا صغيرة جداً عليه، فسيكون هو قاتل كايمان، وسينال المكافأة الملكية السنية.

وأخذ كل من القوم يحاول أن يلبس الأساورة وينتعل الخفين. غير أنهم أخفقوا جميعاً فيما فعلوا. وقتذاك وفد صياد بدين جسيم فارع القوام وقال:

-إن الخادم الهرم تفوه بحماقة. فكل ما يشير إليه الخفان والاساور هو أن القاتل بطل مغوار لا ولد صغير نسي حاجاته هناك. فهل في طاقة ولد صغير أن يقتل الوحش العملاق ؟

وبعد السعي والتجربة، لم يستطع أي ولد صغير أن يتسور الاساور ويحتذي الخفين. لأن، تلك الأشياء كانت تصغر كلما تصغر سن الولد. وحتى الأطفال الذين تشولهم أمهاتهم على ظهورهن لم يكن في وسعهم أن يولجوا زنودهم في الأساور، واقدامهم في الخفين. ساعتئذٍ صاح الصياد البدين الجسيم قائلاً:

-لا شك أن ساحراً قد نسي هنالك هذه الحوائج. ولكن، لم يقتل كايمان المارد ساحر، بل صياد جبار جسيم.

وفيما كان الجدال قائماً، أقدم الخادم الهرم، بصحبة أصدقائه ورفاقه ومؤازرتهم، على سحب جثة كايمان إلى ضفة النهر ثم قال:

-قد انتزع القاتل المنتصر قطعةً من جلد كايمان فلزامٌ عليه إذن أن يرينا هذه الفلذة بمثابة دليل على ما فعل.

بيد أن أحداً لم يتقدم بالدليل. وإذ بخادمةٍ تدلي بقولها:

-أعرف أن دخيلاً في المدينة. وسبق له أن توقف عند باب كوخي والتمس قليلاً من الماء ليروي عطشه. فقدمت له ماءً آسناً ما لدي سواه. فأهرق الماء على التراب، ثم انطلق إلى النهر حيث بقي طويلاً. وعند عودته أعطاني قربةً مليئةً بماء زلال شروب. وأظن أن هو من قتل كايمان. وما علينا إلا أن نستدعيه لنسأله عما صنع. والغريب لا يزال نائماً في كوخي، بصحبة خادمه. وقد ربط مقود جواده إلى الباب.

سامبا الدخيل المنقذ:

أرسل عاهل المدينة في طلب الرجل الغريب. وأتى سامبا ممتطياً جواده، ومصحوباً بخادمه الأمين رودنغورو. وأدى التحية للمليك الذي حياه بدوره وقدّم له الاساور والخفين قائلاً:

-حاول أن تتسور هذه الأساور، وتحتذي هذين الخفين.

فعل سامبا ذلك، دونما أي عناء. لكن الصياد البطين الجسيم إقترب من الملك وقال:

-هذا الدليل لا يكفي. فأين قطعة الجلد التي انتزعها المنتصر من جثة كايمان؟

في الحال أشار سامبا إلى خادمه دونغورو. ففتح هذا الخادم كيساً أخرج منه فلذةً من جلد كايمان تغلق جرح الحيوان بتمامه.

ومن ثم، إلتقط سامبا هذه القطعة الجلدية وصفع بها وجه الصياد الجسيم، جزاءً له على مابدر منه من الشكوك. فاقترب العاهل من سامبا وخاطبه بقوله:

-أجل أيها الرجل الغريب! أنت من قتل الوحش الهائل كايمان. وحقاً، أنت أشجع الشجعان جميعاً. وبما أسديت لنا من صنيع، سنحظى دوماً على ماء الشرب الزلال. قل لي ما تطلب وتتوق إليه، وسأهبك إياه هديةً مني ومن كافة ربعي.

أما سامبا، فقد كان رجاؤه أن يُروى له كيف قاد الربع الفتيات الثلاث إلى الوحش كايمان، وكيف أثبتت الأميرة إبنة الملك رباطة جأشها في محنتها. وعقب تلبية طلبه خاطب سامبا الملك قائلاً:

-سامبا يلتمس من الملك أمراً واحداً: إن سامبا المقدام يتوق إلى الزواج من الأميرة ابنة الملك الباسلة.

وكذا كان...

وأنجبت الأميرة من صلب زوجها سامبا أنجالاً عديدين غدوا جميعاً يضاهون والديهم في البسالة والجسارة.

(قصة من إفريقيا السوداء)

سامبا غانا
أو الجبار الأريحي

من غانا

كانت (أناليه توباري) [1] إبنة أمير من قطر (واغانا). وقال عنها ربعها إنها متوقدة الذكاء وبارعة الجمال. وقد وفد إليها العديد من الفرسان ملتمسين يدها وخاطبين ودها. لكنها دأبت على الطلب من كل خطيب أن ينجز مهمة لم يجرؤ أحد على إنجازها. ولم يكن والدها يتولى الأمارة إلا على مدينة واحدة علاوة على عدد وافر من القرى والزارع.

ذات يوم نشب شجار بين والدها وأمير آخر على ملكية قرية مَزَارع. وبعد هزيمته، فقد القرية ولم تتح له كرامته القبول بهزيمته فمات غيظاً وحنقاً، فورثت أناليه المدينة والقطر كله. فطلبت حينذاك من كل فارس يروم الزواج بها أن يستعيد بالقوة قرية المزارع المفقودة، علاوة على ثمانين مدينة وقرية تحيط بربوع قطرها.

ومضت الشهور والسنون. ولم يجرؤ أحد على محاولة النهوض بمثل هذه المهمة الحربية الواسعة الأرجاء. ولبثت أناليه دون زوج ولا زواج. بيد أن جمالها أخذ يتألق سنةً بعد أخرى. لكن قلبها افتقد كل بهجة وسرور. وراحت تزداد جمالاً وحزناً. وعلى غرار الأميرة، إفتقد البسمة والضحك كل من الفرسان والشعراء الأبطال والحدادين والافنان في ربع أناليه.

---

(١) اختصار إسم (أنالية توباري) سيكون (أناليه).

وكانت مدينة (فاراكا) مقر أمير من غانا، أنجب ولداً أطلق عليه إسم سامبا غانا. وحين بلغ ابنه شرخ شبابه، إمتثل لأعراف ربعه فغادر مدينة والده مصطحباً اثنين من الشعراء الجبابرة وفارسين لخدمته، ومضى ليفتح قطراً يكون هو أميره. وكان سامبا غانا لا يزال شاباً، فارتحل معه معلمه الشاعر البطل (تارارافيه). وانطلق الفتى على ما اعتاده من الفرح والسرور. ولم يلبث أن أعلن الحرب على أمير مدينة (أي أنه تحداه لمبارزةٍ فردية)، فتقاتلا على مرأى من أهالي المدينة جميعهم. وانتصر الشاب سامبا غانا. فالتمس منه الأمير المقهور أن يعفوا عنه ويبقيه حياً وأتحفه بمدينته. فقال له الفتى المنتصر:

-إستبقِ مدينتك، فليس لي مطمع فيها!

ولم يلبث سامبا غانا أن قهر جميع أمراء (فاراكا)، لكنه لم يُؤَمِّر نفسه على أية مدينة ولا أي قطر، بل عزف دوماً عن كل ما كسبه في القتال ودأب على الانصراف ضاحكاً مسروراً.

ذات يوم، كان سامبا غانا مسترخياً على ضفة نهر النيجر وإلى جانبه شاعره البطل الذي أنشأ ينشد اشعاراً يمدح فيها: أناليه، وتغنى بجمال الأميرة وأشجانها وعزلتها. وختم إنشاده بقوله:

-من سوف يستولي على ثمانين مدينة، سينال قلب أنالية، ويجعل ثغرها يفتر باسماً ضاحكاً؟...

وما أن سمع سامبا غانا ذاك الثناء عليها، حتى انتصب للحين واقفاً وصاح:

-هيا أيها الفرسان! إسرجوا الخيول! فها نحن ماضون إلى ربوع أناليه!

وارتحل سامبا غانا يواكبه شعراؤه الجبابرة، وغلمانه الفرسان. ولبثوا يندفقون بخيولهم ليل نهار، ويوماً تلو يوم، إلى أن بلغوا مدينة أناليه. ورنا الفتى المحارب إلى الأميرة ولحظ أن ثغرها لا يفتر عن ضحكة ولا بسمة، فقال لها:

-أيتها الأميرة أناليه، ألا ترشديني إلى المدن الأربع والثمانين التي تودين أن أتحفك بها ؟

واستأنف سامبا غانا ترحاله وقال لشاعره تارارافيه :

-إبق إلى جانب أناليه، وغنِ لها، وروح عن نفسها، وأضحكها ولا تكف عما ستفعل حتى أعود !

فامتثل الشاعر لإيعاز سيده وانبرى يغني كل يوم ويشيد بأبطال فاراكا، وبمدينة فاراكا، وبثعبان (عيسى بير) الذي يطوف المياه كما يشتهي، بحيث أن الأهالي يجنون الأرز بوفرة عظيمة في سنةٍ من السنوات، ويعانون من الجوع في الأعوام الأخرى. وأصغت أناليه إلى هاتيك الأناشيد. أما سامبا غانا فجاب الأقطار المجاورة وقاتل أمراءها الواحد منهم تلو الآخر، وأخضع لسلطانه ثمانين أميراً وهو يوعز لكل منهم بما يجب عليه أن يفعل :

-إنطلق إلى الأميرة أناليه وأقر لها بأن مدينتك تندرج في ممتلكات أمارتها.

كذا فعل الأمراء الثمانون، وعددٌ وافر من الفرسان وأعلنوا ولاءهم للأميرة، ومكثوا في مدينتها التي طفقت تتسع وتتعزز فيما بسطت أناليه سلطانها على الأمراء جميعاً، وعلى جميع فرسان الأمصار المحيطة بمدينتها.

وما أن عاد سامبا غانا أدراجه إلى جانب أناليه حتى قال لها :

-أيتها الأميرة أناليه ! كل ما ابتغيت اقتناءه أصبح الآن بين يديك !

-لقد أنجزت المهمة بتمامها. والآن هلم نقترن بالزواج !...

-ولماذا لا تضحكين ؟ لن أقترن بك قبل أن تضحكي !

-لم يكن بوسعي فيما مضى أن أضحك لشدة ألمي المبرح من الخزي الذي لحق بوالدي. والآن ليس في طاقتي أن أضحك لأني جائعة سغبة !

-وكيف لي أن أشبع جوعك ؟

-عليك أن تقهر الآن ثعبان (عيسى بير) الذي يهبنا سنة غلال وافر وسنوات قحط ومحل.

-لقد عجز الرجال جميعاً عن فعل ما تطلبين، أما أنا فسوف اقتدر على قهر هذا الثعبان وإهلاكه !

كذا أجاب سامبا غانا الأميرة، وانصرف من حضرتها. وأمّ فاراكا باحثاً عن ثعبان (عيسى بير) وما انفك يمضي ويبحث حتى أفضى إلى(كوريوميه). لكنه لم يجده. فراح يصعد مجرى النهر. وقصد (باقبا) حيث لم يعثر عليه. فانبرى يصعد في مجرى النهر. عندئذ إلتقى سامبا غانا الثعبان فتعاركا وتباطشا، وكانت المعركة بينهما معركة سجال. وشرع الـ(دجوليبا)- نهر النيجر- يجري تارة من هنا، وتارة من هناك. وطفقت الجبال تنهار، والأرض تتزلزل متصدعةً. وقاتل سامبا غانا الافعوان سحابة ثمانية أعوام، وظهر عليه في نهاية المطاف. وفي غضون ذاك التعارك حطم سامبا غانا ثمان مئة من الرماح، وثمانين من السيوف ولم يبق له سوى مهند ورمح تتقطر منهما دماء ودماء... فناول شاعره تارارافيه الرمح قائلاً له:

-هيا انطلق إلى دارة أناليه وضع الرمح بين يديها وقل لها إني قضيت على الثعبان. وانظر ما إذا تستطيع أناليه أن تبتسم وتضحك

مضى تارارافيه إلى قصر أناليه ونقل إليها البشرى التي كُلّف بأن يبشرها بها، فقالت له:

-عد أدراجك إلى سامبا غانا وقل له أن يأتيني بالثعبان المقهور لكي يصير عبدي فيسوق النهر إلى ربوع بلدي. وحين ستشاهد أناليه الأمير سامبا غانا مصطحباً الثعبان، سأبتسم آنئذ بل سأضحك.

إنثنى تارارافيه عائداً إلى فاراكا كي ينقل الرسالة إلى سيده سامبا غانا فعلم هذا الأمير بما قد قالته الأميرة، فتناول السيف الدامي وأنفذه في صدره وضحك نوبةً أخيرة، قبل أن يرقد مع أجداده الأقدمين. فأخذ تارارافيه السيف الدامي، وامتطى جواده قافلاً إلى مدينة أناليه وقال لها:

-إليك سيف سامبا غانا، فهو متوشح بدم ثعبان رجوليبا وبدم سامبا غانا، وقد ضحك هذا الأمير ضحكته الأخيرة قبل وفاته.

فاستدعت الأميرة كل الأمراء وجميع الفرسان الماكثين في مدينتها. ثم اعتلت صهوة جوادها، وامتطى كل الرجال جيادهم. ومضت أناليه صوب المشرق، وصحبها رجالها بأسرهم. وسلكوا طريقهم حتى بلغوا فاراكا وحين أفضت الأميرة إلى أمام جثمان سامبا غانا رفعت عقيرتها معلنةً:

-إن هذا البطل الجبار كان أعظم عظمائنا السالفين. فشيدوا له ضريحاً يفوق بأبهته كافة ضرائح الملوك والأبطال الأشاوس!

بدأ العمل. وقام ثمانية أضعاف ثمان مئة رجل بحفر الحُفَر. كما أنجز ثمانية أضعاف ثمان مئة رجل تشييد الدارة (أي قبو الضريح). وبنى ثمانية أضعاف ثمان مئة رجل الرواق (أي موضع تقديم الضحايا على أديم الأرض). وجلب ثمانية أضعاف ثمان مئة رجل تراباً، وركموه فوق الرواق، ورصّوا التراب وأحرقوه. فارتفع ثمة جبل (أي هرم يتكون من رجمة[1] عظيمة). وارتفعت قنة الجبل وشهقت.

طفقت أناليه وفرسانها وشعراؤها الجبابرة يصعدون كل مساء قمة الجبل. فكان شعراؤها ينشدون في كل مساءٍ أناشيد الباسل المغوار، ويغني تارارافيه كل

(١) رجمة أو جثوة: كومة أتربه تقام على القبر.

مساءٍ أنشودة سامبا غانا. وفي كل صباح، كانت أناليه تكرر بعد نهوضها من مضجعها ما قالته في الأيام الماضية:

-ليس ارتفاع الجبل كافياً. هيا تابعوا العمل حتى أستطيع أن أشاهد المدن البعيدة. وقام ثمانية أضعاف ثمان مئة رجل بجلب التراب، وركموه فوق الجبل، ورصوه وأحرقوه. وخلال ثمانية أعوام، ارتفع الجبل وسمق وشهق. وانقضت ثمان سنوات، وأشرقت الشمس. فانتصب تارارافيه، وسرّح بصره فيما حوله وجهر صوته قائلاً:

-يا أناليه، بوسعي اليوم أن أرى (فاجانا) المدينة النائية.

-أجل، أرى (فاجانا)! لقد بلغ مثوى سامبا غانا الأخير حجماً عظيماً يجدر باسمه العظيم.

آنئذٍ ضحكت أناليه وقالت:

-والآن، هيا تشتتوا أيها الفرسان والامراء، وانتشروا في ربوع الأرض جمعاء، لكي تصبحوا أبطالاً جبابرة كما كان سامبا غانا.

وضحكت أناليه ضحكةً أخرى، ولفظت أنفاسها الأخيرة! فُدفنت إلى جانب سامبا غانا، في قبو الضريح بمدفن الجبل.

وانصرف ثمانية أضعاف ثمان مئةٍ من الأمراء والشعراء الاشاوس، وانتحى كل منهم منحاه، وقاتلوا واصبحوا جبابرة مردة...

«باسيني- جابو» الساحرة

(المعرفة من أجل الحياة والسلام)

في زمان قديم قديم، كانت امرأة من قبيلة (بوسو) تدعى «باسيني- جابو»[(١)] تعيش مع قومها الذين يقطنون أربع قرى وحسب، ودأبوا فيما مضى على اعتبارها جدة لقبيلة (سوركوي- بوسو) التي تقيم في منطقة تنحدر إلى ربوع (دجينيه). وقد هرمت «باسيني» وأصبحت عجوزاً بالية، لكنها تمتلك بقدرتها أروع ضروب السحر المؤذية.

حين بلغت باسيني فيما مضى سن زواج الفتيات الزنجيقيات[(٢)] رفضت كل خطابها، إذ لم تشعر بأية رغبة في اقترانها بأي شاب على أن الكثير من الفتيان سعوا إلى الزواج بها وأينما حلّت، ألفت العديد من الغلمان يجلسون إليها لكي يحادثوها متحلقين حولها. وخلال زيارة الشبيبة لها، تقدم لهم بكرم جزيل ما يلذهم ويستطيبونه كالأرز ولحم الضان، وبمقدار ما يطعمون من هذا الغذاء الشهي. بيد أن أحداً منهم لا يستطيع مغادرة منزلها دون إذن منها. وإن همّ أحدهم بالانصراف دون أن يلتمس منها تسريحه، وجد نفسه ملتصقاً على «إسكملته»[(٣)] عاجزاً عن المغادرة، قبل أن تشاء الساحرة الحصيفة مغادرته.

ذات ليلة، قدم فتى من قبيلة (بوسو) إلى هذه الساحرة الجميلة. والتقى على طريقه بالخاروف المحظي لدى العائلة الملكية. وإذ ظن الفتى الشاب أن

---

(١) «باسيني»: باختصار الاسم.

(٢) زنجيقي: زنجي إفريقي.

(٣) مقعد صغير ليس له مسند ظهر ولا ساعدين (طربيزة).

الخاروف ابن آوى، قتل برمية سهم ذاك الحيوان الرائع. غير أن الخاروف كان مقدساً، وترتبط حياته إرتباطاً ما بسعادة أسرة المليك.

في الغداة، وجد الخاروف ميتاً، فحمل إلى دارة العاهل. وطفق الربع ينهمكون في مأتم كبير. وبكت زوجة الملك فأوعز للحين بأن يسأل علناً: من قتل الخاروف؟ لكن أحداً لم يشِ بنفسه. ولم يستطع أحد أن يعرف من قتل ذاك الحيوان المسكين.

وأمر المليك، والحال هذه، بإعلان ما يلي في كل بقعة من أرجاء مملكته:

«من سيقتدر على بعث الحياة في الخاروف فلن أسبغ عليه جم التكريم والشرف وحسب، بل سأهبه وفرةً من الذهب والعبيد والمواشي، حتى إنه لن يكون في عوز لشيء ما سحابة سني حياته».

ومن ثم، أرسل العاهل رسالةً إلى باسيني قائلاً لها: أعلم أن كثيرين من الناس يترددون إلى منزلك. فقولي لهم جميعاً أن من سيعيد الخاروف إلى عالم الأحياء، سيلقى مني هدايا وافرة.

فأجابت باسيني الملك بقولها:

-سأقول هذا لجميعهم، وسوف أهدي أنا أيضاً أفضل ما أقتنيه لكي أعثر على إنسان يسعه أن يبعث الحياة مجدداً في هذا الحيوان.

وللحين استحضرت باسيني أصدقاءها بأسرهم وأعلنت لهم ما وطدت العزم عليه:

-سوف أتزوج من أي شاب أو كهل سيقتدر على إحياء الخاروف من جديد. ولن أطلب، مقابل زواجي منه، مالاً ولا حلياً ولا ممتلكات غير ذلك. ولكني أريد أن أرى هذا الحيوان يعود إلى الحياة، لا غير ذلك! وإذا بحشد من الرجال يفدون آنئذ من كل أرجاء المملكة. وكانوا جميعاً (تونغوتو)- أي أنهم يقتنون من سلطان السحر قسطاً عظيماً- فبعضهم يستطيع البقاء تحت الماء ثلاثة أيام. وفي طاقة آخرين أن يتقمصوا أجساد الحيوانات... وطفق كل منهم يمتحن مقدرته السحرية. بيد أن الخاروف لبث ميتاً، بله راح جسده يتفسخ. ولم يكن في حول أحد أن يعيده إلى رحاب الحياة.

وبعيداً عن ذاك المكان، كان يقطن ساحر يدعى (دجينا). وما أن سمع الحديث عن خاروف ميت حتى خال نفسه، بصفته (تونغورو) (١)، مقتدراً أن ينجز تماماً تلك المهمة المستعصية فغادر منزله وقصد باسيني فتحدثت إليه:

-يا (دجينا)! قد سمعت الربع يشيدون بمواهبك. واعلم يقيناً أن لك من السحر سلطات متميزة. أما الأمر الراهن فهو أيضاً متميز تماماً عن غيره: فقد قتل هذا الخاروف منذ بعض الحين، ولا بد من أن نبعثه إلى الحياة. فإن فعلت هذا، سيكون بوسعك أن تتزوج بي.

نظر الساحر دجينا إلى الخاروف. وفي الليلة التي قتل فيها هذا الحيوان، كانت بنات آوى قد هرعت لتفترسه وانتزعت منه فلذة. وسبق للجثة أن بدأت تتفسخ وتفسد، فقد انقضى على موته وقت طويل. لكن الساحر عزم على اختبار طاقة باسيني السحرية فقال لها:

-من اليسير أن أردَّ الحياة إلى هذا الخاروف. ولكن الوحوش قد انتزعت من جوفه فلذة من كبده. فإن كان بطاقتك أن تزوديني بتلك القطعة، سأرجع هذا الحيوان إلى الحياة للحين.

-لو توقف الأمر على هذا وحسب لأنجز بسرعة، وليس ثمة أيسر منه.

كذا أجابت باسيني. واستدعت أحد عبيدها وقالت له:

-هيا اذهب إلى الغابة المجاورة. فهناك أطلال مدينة قديمة جداً. وبالقرب منها تنتصب شجرة باؤوباب (٢) عظيمة. وبحذاء هذه الحميرة، حُفرت حفرة عميقة، وعليك أن تنزل هناك حيث ستجد اثنين من بنات آوى. فقل لهما أن يأتيا إلي بكل سرعة يستطيعانها.

إنطلق العبد إلى الغابة. وشاهد قرب شجرة الباؤوباب الحفرة العميقة فولجها، ووجد ثمة اثنين من بنات آوى فقال لهما:

-باسيني تأمركما بالذهاب فوراً إليها. هيا إليها!

---

(١) ساحر ينعم بمقدرة سحرية عظيمة.

(٢) باؤوباب: شجرة تدعى (حميرة) وهي استوائية ولب ثمرها يؤكل.

وللحين، إنطلقا إليها يزفان بكل سرعة ممكنة. وبلغا القرية حيث دخلا منزل باسيني فقالت لهما:

-هلك خاروف الملك هنا ليلاً بسهم قاتل. وقد مررتما وانتزعتما فلذة من كبده. ألم تفعلا هذا؟

-بلى فعلنا! ولكن منذ ذاك الحين، لم نتبرّز ولم نتقيأ. ولا بد لكل منا أنه يحتفظ في جوفه القطعة التي انتزعها وافترسها. فأوجدي لنا طريقة لنتبرّز وستأخذين فلذة الخاروف التي تريدينها

-هيا! عليكما أن تتقيآ في الحال!

وجهد الحيوانان للتقيؤ، وبعد جهد جهيد إستفرغا الفلذة وقد تم هضمها. وكانت في حالة منكرة تماماً. ولم يستطع الساحر دجينا أن يعيد الكبد إلى سابق عهدها ولا أن يرد إلى الخاروف حياته. فخاطب باسيني:

-لقد برعت حين وجدت الفلذة المفقودة بسلطانك السحري، حتى إني لا يسعني إلا الاعجاب بك والاقرار بتفوقك دون تلكؤ ولا تردد. ولكني عاجز عن إرجاع الخاروف إلى حياته.

ومن ثم، قفل الساحر دجينا عائداً إلى موطنه.

ولبث خاروف الملك يتفسخ وأخذت رائحته تسطع بالمزيد من الشدة. ودأبت الملكة على البكاء ليل نهار إزاء عجز السحرة عن بعث الخاروف إلى الحياة. فأرسل الملك مرة أخرى رسولاً إلى باسيني يسألها:

-ألا تعرفين وسيلة ترجع الخاروف إلى الحياة؟

-حسن! سأفعل هذا أنا نفسي. سيعيش الخاروف من جديد. ولكني سأنصرف من هنا بعد ذلك. ولن أتزوج أبداً أي رجل من قبيلة بوسو، لأن رجال شعبي يفتقدون الكفاءة! ولن أريد أية صلة بهم، وسوف أغادر ربعي دونما عودة إليهم.

كذا قالت باسيني. فاستدعى الملك جميع موسيقيي ربوع (مانديه)[1] لكي يعزفوا على قرعاتهم الموسيقية، فجلس هؤلاء الموسيقيون متحلقين. واستوت

---

(١) موطن قبائل إفريقية تتكلم لغات ولهجات من الاسرة النيجيرية -الكونغولية.

باسيني في وسطهم. وبصفتها (تونغوتو) [1]، كانت جمة شعرها مديدة طويلة، حتى إنهاتجاوزت ظهرها فاستطاعت الجلوس عليها وكأنها مقعد أو حصيرة... وقد اقتنت شعرها هذا بمقدرتها السحرية.

راح الموسيقيون يوقعون نغماماتهم، ويغنون. وانبرى غناؤهم وعزفهم يتسارع تسارعاً مطرداً. واستولى نزق المرح على باسيني، وتعززت كوامن سحرها. فصاحت باسيني وزعقت! ودأب الموسيقيون على إيقاعاتهم المتسارعة. وارتفعت الساحرة عن أديم الأرض، وطفقت تحوم في أعالي الهواء، وسمت تناغي الغيوم. وهناك، في تلافيف السحاب، وتحولت ذراعاها إلى جناحين يماثلان أجنحة الطيور الجسيمة ثم انحدرت على الخاروف انحداراً متئداً.

ولبثت باسيني على متن الخاروف ستة أيام، إحتضنت خلالها الحيوان بجناحيها المنبسطين. ونهضت في اليوم السابع، وإذا بالخاروف قد بعث إلى تمام حياته.

ومن ثم، غادرت باسيني قريتها، فقد أبت بتاتاً أن تستبقي أية صلة لها بربع موطنها. وارتحلت بعيداً حتى بلغت قطراً لا يتحكم بزمام أموره أي زعيم من الرجال، بل كان ثمة ملكة تدعى (نا-مانج). وعندما اقتربت باسيني من عاصمة هذه المملكة، بعثت برسول إلى الملكة ليقول لها:

-هاهي باسيني مقبلة إليكم. فهلمي إلى لقائها قدام أبواب المدينة.

وللحين، جمعت نا-مانج موكباً مهيباً من قومها وانطلقت به كي تستقبل الساحرة المقتدرة (تونغوتو) وترحب بها. وقامت بتحيتها ألطف تحية، قائلة لها:

-لقد سمعت أقوالاً عديدة عن سلطان سحرك الفذ. ألا تبهجين قلبي بالمكوث بعض الحين إلى جانبي، فاستطيع أن أعرب لك عن جم احترامي وإكرامي؟

---

(١) ساحرة مقتدرة جداً.

-كم أنت لطيفة ظريفة. سأمكث حيناً في دارتك ...

كذا أجابت باسيني، ودخلت مدينة الملكة نا-مانج التي أحسنت وفادتها بأفضل الترحيب. وهرع قوم القطر زرافات لأداء التحية لباسيني ولإتحافها بالهدايا معربين عن احترامهم وتبجيلهم

إنقضت بضعة أيام، فقالت الملكة نا-مانج لضيفتها باسيني:

-هل تتلطفين فتقولين لي ما تعرفين.

-أعرف كل ما مضى. إسأليني أجبك!

-لدي ما التمسه منك. بجواري دولة يحكمها ملك طاغية. ولا يزال رجاله يقاتلون رجالي. ومهما كان موقع القتال يظهرون علينا ويهزموننا ... وإليك الآن سؤال: أنت يا باسيني، أتقتدرين على نصرتنا في شدة ضيقنا، فنحارب هذا الملك ونقهره؟

-لا يبدو لي الأمر عسيراً. فحين ستمضين مجدداً مع مقاتليك في حملة عدوك، سأصحبك وسأرى آنئذ ما بوسعي أن أفعل. ولكن إحرصي على أن تذهبي بثور أسود وبخاروف أسود، وبجدي أسود، وبقط أسود وبديك أسود. فمن المؤكد أنني سأحتاجها جميعاً حين سأمضي معك إلى الحرب، بما أني أقطع لك وعداً بمساندتك فتعهدي إذن بإعداد كل ما سبق وقلت لك.

كان الملك العدو يقطن جزيرة تتوسط نهراً عظيماً، بحيث أن موقع إقامته يحاط بالمياه إحاطة كاملة. ويدعى هذا النهر الكبير (وييه). وكان ثلاثة من الجن تمكث في هذا النهر، وتمنح العاهل كل مناعة، فيظفر دوماً في القتال.

وأمت الملكة نا-مانج عدوة النهر (مييه) مصطحبة باسيني وجند القتال، ولم تغفل عن جلبها الثور الأسود، والخاروف الأسود، والجدي الأسود، والقط الأسود، والديك الأسود، وأوعزت الملكة بأن يضرب مخيمها مقابل الجزيرة، حيث تنتصب مدينة العاهل عدوها. وراح العبيد يستقون الماء من النهر ويزودون به المعسكر.

ولما شاهدت الجن العبيد يفدون إلى النهر، تقمص جني في جسد رجل وقعد على الضفة. وعند مرور أحد عبيد الملكة سأله:

-أليس في حملتكم هذه ساحرة مقتدرة تدعى باسيني ؟

-بلى ! فيما بيننا امرأة يطلق عليها هذا الاسم وهي تونغوتو

-إذن، إذهب إليها وقل لها أن تأتي إلى النهر لتلتقي برجل سوف تسر بالتحدث إليه.

-سأفعل ما توصيني به.

كذا أجاب العبد، وقفل راجعاً إلى المعسكر وقصد باسيني وقال لها:

-ثمة على عدوة النهر امرؤ سوف تسرين دونما شك بالتحدث إليه. وهذا ما قاله لي.

مضت الساحرة القديرة إلى الضفة والتقت الجني، فسألها: هل أنت باسيني. أجابت: أجل أنا هي. فقال لها:

-أوصيت العبد بأن يقول لك إنك سوف تسرين دونما شك بالتحدث إلي. أنا واحد من الجن الثلاث المهيمنة على هذه المياه، محتوم علينا الزود عنها من صديقتك نا-مانج وما هو شأنك في هذه الخصومة الناشبة بين المملكتين ؟ وما الذي يدعوك إلى محاربتنا ؟

-الملكة نا-مانج صديقتي، واعتقد أنه يحق لي أن أنصر صديقتي في كافة معضلاتها. ولكن ما الذي يدعوني إلى الاهتمام بجن هذا النهر (وييه) ؟ إذا ما أردت أيها الجني أن تمتثل لأوامر المليك فتساعده، فافعل ! ... وآنئذ سنرى من هو الأعظم، أهو اقتدار سحرك، أم هو سلطان سحري واقتداره.

-أنت يا باسيني فخورة بنفسك كثيراً، لكنهم قد أساؤوا إنباءك. أنت امرأة من قبيلة بوسو. ولماذا تسعين إلى الحرب في هذه البلاد ؟ بوسعك أن تصدقيني، لن تفوزي بأي انتصار ! فنحن جن هذه الربوع. أما أنت، فساحرة غريبة، عظيمة ومقتدرة في غير هذه البقاع، وبالتأكيد لا في قطرنا. إنصرفي عن هذه المهمة يا باسيني !

-لا ، لن أتخلى عن مبتغاي، وسوف أرى الحق في ما تتشدق به من نصائح تنصحني بها

كذا أجابت باسيني وانثنت قافلة إلى المعسكر وعاد الجني فولج النهر مهيباً برفيقيه، ثم صعد إلى عدوة النهر حيث قال لهما :

-لقد تحدثت إلى باسيني . ونصحتها بالانصراف عن الملكة وما تشنه من حرب على عاهلنا . لكن هذه الساحرة لا تزال تزهو بنفسها وتبالغ بما تفعل . فلم يكن لحديثي إليها أية جدوى . فماذا يتحتم علينا أن نصنع ؟

وكان للجن الثلاثة قين فقال لهم : هل تدعوني أفض هذا الامر معها؟ فأجابوه أن نعم ! ... فانطلق للتو عبد الجن قاصداً معسكر الملكة نا٠مانج وتوخى لقاء باسيني فقال لها :

-أهي أنت الساحرة العظيمة تونغوتو ؟

-أجل أنا هي !

-لست سوى قين للجن لا هيبة لي ولا خطورة بيد أنك تستطيعين معرفة الصلة التي تجمعنا كلنا بما سأقول لك : بلغت من العمر ١٨٣ سنة ... وبلغت منه سبع سنوات . غير أني أعلم من الامور والاشياء اكثر منك . فأنا أعرف أباك، وأعرف جدك، وثلاثة أجيال من جدودك الاقدمين . فها أنت الآن تدركين مُكنة سنوات عمري وقدرتها .

-كفاك ! فانت تبالغ في ثرثرة التَبَجُّج والتباهي !

-لا تسخري مني ! صدقيني، لن يحسن بكم أن تقتربوا كثيراً من النهر بمساندة جند الملكة . فالجن يقتنون هذا النهر، ولن يدعوا إمرأة من قبيلة بوسو تنال من حقوقهم وعزتهم !

-قلت لك ألا تثرثر، أيها الصبي الصغير في السابعة من عمره ! وانصرف الآن من هنا ! ولن تستتبع أيها العبد أي تأثير علي .

-لقد فعلت كل ما بوسعي . وسترين إن كان في طاقتك المحافظة على افتخارك وغرورك .

كذا ختم القين حديثه وانصرف منثنياً إلى النهر (وييه). ومثل أمام الملك الذي يقطن في الجزيرة وقال له:

-بعد حين يسير، سوف تنقض عدوتك نا-مانج عليك بكل جندها وبمؤازرة تونغوتو الساحرة المقتدرة. وما عليك إلا أن تلبث ساكناً، أنت ومقاتلوك، وكأنك لا تلحظ شيئاً. فدعهم يرشقون بسهامهم وينقضون برماحهم، ولا تبد حراكاً! وما علينا فعله، سأفعله أنا!

-حسن! سنصنع كما قلت ورغبت!

وقفل عبد الجن إلى أسياده فقال لهم:

-أرجوكم البقاء على حدة! فلا تبادروا إلى أيّة فعلة حين تنشب المعركة، لأني أرغب في أن أفض هذا الأمر بحزم وسرعة.

-حسن! سنمكث على حدة، وسيكفينا أن نرى ما سوف يجري وتصنع.

كذا أجاب أسياد العبد. وانقضت سبعة أيام. وتقدمت الملكة نا-مانج قاصدة عدوة النهر مصطحبة جندها وباسيني. وضربت خيام معسكرها إزاء جزيرة الملك عدوها. وقالت الساحرة للملكة:

-والآن، هيا أرسلي الحيوانات السوداء إلى النهر!

-سأفعل للحين!

ونزلت باسيني إلى النهر، فذبحت الثور الأسود، وأهرقت الدم فتدفق إلى مياه النهر. وذبحت الخاروف الأسود وأساحت دمه فتدفق إلى مياه النهر. وكذا فعلت بالجدي والقط والديك. ومن ثم، قالت للمحاربين إن أوان الهجوم على العدو قد حان.

تسلح جند الملكة نا-مانج وراحوا يرمون مدينة الملك بسهامهم، فلم تبد المدينة أي حراك. ولبث جنود الملكةيرمون سهامهم، ويطلقون النار، حتى نفد البارود والسهام. أما المدينة فلم تبدِ أي حراك. فقالت الملكة:

-والآن، حان الوقت لاجتياز النهر !

آنئذ، إنتصب قين الجن ماخراً المياه. وسما في الهواء يحوم فوق المياه. وطفق لسانه يتعاظم ويستطيل مندلقاً من فمه الذي ما انفك يَعظُم. واستطاع عبد الجن أن يضع لسانه على غرة رأسه، وحتى على قذاله. ولبث اللسان يتضخم جرمه طولاً وعرضاً، حتى اتسع كسحابة من سحب السماء !

وعلى حين بغتة، قذف عبد الجن الصغير بلسانه الرهيب، وألحق ضربةً بجانبٍ من الجند المتشردين على ضفة النهر. وفعل ذلك على كل المدى الذي استطال إليه لسانه، فسحق كل من كان فيه نسمة حياة، وصيره هباء. فلم يبقَ أي آدمي حياً على أديم ذاك الجزء من الارض.

وقلص عبد الجن الصغير لسانه وأعاده إلى غرة رأسه. ثم قذفه ثانية إلى الأمام. فسحق جانباً آخر من جند الملكة وصيره هباءً بشدة ضرباته. ثم سحب من جديد سلاحه الفتاك، وللحين ألحق بلسانه العملاق ضرباتٍ عديدة متكررة بشعب الملكة نا-مانج: فسحقها وجميع من صحبها. ولم يبق من جملة ذاك القوم سوى باسيني، فهي الوحيدة التي لبثت على قيد الحياة فأمسكها قين الجن الصغير، واجتذبها وغاربها في أعماق النهر، هناك حيث مضى بها إلى مثواه.

وثمة قال لها العبد الصغير:

-ما فعلناه بكم كان ضرورياً محتوماً. لقد آلمتك ولكنك أنت التي سعيت إلى هذا المصير. وأريد الآن أن أريك لمحة من سلطان الجن وفنّهم في مضمار السحر، وأن أكشف لك عناصر عظمتك الآتية. هيا انظري بتمعن إلى كل ما أريك وألقنك.

تناول عبد الجن الصغير ثلاث فخارات وقال للساحرة باسيني: أنظري ! إنها كلها فارغة خاوية. ثم تناول ثلاثة أغطية وستر بها الفخارات الثلاث. وبعد حين يسير حسر الأغطية عن الفخارات وإذا بها قد امتلأت. وكانت الفخارة الأولى

طافحة دماً، والثانية مملوءةً بأوراق الشجر، والثالثة مفعمةً بالتوابل السحرية. وسأل القين الساحرة: هل تعرفين الجدوى من استخدام كل هذا؟ فأجابت: لا!. فقال العبد الصغير:

-سأبين لك هذه الجدوى. هيا أرهفي سمعك إليّ ولا تنسي شيئاً!

طفق العبد الصغير يكشف لها عن فعل الأمراض جميعها. وعواقب الآلام، وكافة الظروف الخارقة على وجه المسكونة، مبيناً لها بدقة ما كان يتحتم فعله في هذا الظرف أو ذاك، وكيف تستطيع إبراء مريض من علته، والتوقي من كارثة ما وشيكة.

وشرح لها أن كل ما يستطيع أن يترك أثراً حميداً في ظروف خارقة للمألوف، عند تفشي مرضٍ أو نشوب غائلة ما، لا بد أن يندرج في عداد ما تحتويه كل من هاتيك الفخارات الثلاث.

وقال عبد الجن الصغير للساحرة باسيني:

-لم تفعلي فعل إمرأةٍ حصيفة، وكما يحسن بامرأةٍ من قبيلة بوسو أن تصنع. فلا مناص لربعك من أن يزاولوا صيد السمك، وزراعة الارض، وأن يعكفوا أنفسهم على مهامهم المألوفة. فليس ربعك الـ بوسو قوم حربٍ، وعليهم ألا يقدموا على مزاولة شيء من هذا القبيل ولزام عليك أن تستذكري هذا الأمر مستقبلاً! هيا خذي هذه الفخارات الثلاث، وعودي أدراجك إلى موطنك! وتوسلي بمحتواها كما لقنتك، وسوف تتحلين بالمزيد من الهيبة والاحترام، وأكثر من أية امرأةٍ بوسو قد نعمت بالحياة قبلك.

وعند ئذ، وهب قين الجن الصغير الساحرة باسيني الفخارات الثلاث. فحملتها وانصرفت قافلةً إلى موطنها متزودةً بخبرة جديدة.

أسطورة «نغورانغوران»

إبن التمساح

كان في قديم الزمان السحيق، ساحرٌ تيميٌّ عظيم يدعى «نغورانغوران»، أي ابن التمساح [1].

إليكم كيف جرت ولادته، وهذا هو الأمر الأول، ومافعل خلال حياته، وبأية طريقة مات، وهنا الأمر الثاني. وإن توخينا أن نروي كل ما صنع، فالأمر حقاً مستحيل. وعلاوةً على هذا، من الذي يأمل أن يستذكر كل ما فعل ابن التمساح ؟ ...

دونكم الآن كيفية ولادته، وهذا هو الأمر الأول.

في هاتيك الحقبة من الدهر، كان قوم الـ (فان) يقطنون ضفة نهر عظيم، جد عظيم، حتى إن الناس لا يستطيعون مشاهدة العدوة المقابلة، فيكتفون بصيد الأسماك على ضفتهم. لكنهم ما كانوا يستقلون زوارقهم على ذاك النهر: فلم يقدم بعد أحد على تعليمهم حفر الزوارق الجذعية: ومن دربهم على طريقته في حفر جذوع الأشجار هو (نغوران) فهو الذي لقن أفراد أسرته هذا الفن. أما أسرته فكانت جميع ربعه، وكانوا قوم الـ(فان).

في ماضٍ بعيد بعيد، وفد تمساح هائل ليصرف أيام حياته في ذاك النهر؛ إنه السيد التمساح. وكان حجم رأسه أضخم من هذا الكوخ، وعيناه الجسيمتان تفوقان بحجمهما جدياً بكامله، وبوسع أسنانه الحادة أن تشطر رجلاً شطرين كما أفعل أنا بموزةٍ، (كريس!) [2]. وكانت حراشف هائلة تكسو كامل جسده: وإن

---

(١) سندعوه (نغوران) اختصاراً.

(٢) كريس: صوت القطع

رماه رجلٌ بمزراق نبا المزراق [1] وسقط على الارض دونما جدوى ولئن كان الرامي أفضل الربع قوةً ومتانة. أجل عجزت السهام عن مجرد خدشه، فذاك الحيوان كان عملاقاً رهيباً منيعاً.

ولكن، ذات يوم، قدم التمساح إلى قرية نغوران ولم يكن نغوران قد ولد. وربع الـ(فان) يأتمرون بكلام سيد عظيم يمتثل لأوامره أناسٌ كثيرون. وكان يرأس الـ(فان) وغيرهم كثيرين. وذات يوم قدم التمساح (نغان إيا) إلى قرية الـ(فان) واستدعى كبير القوم قائلاً:

-أيها الرئيس ! هاأنذا أدعوك!

هرع إليه الرئيس للحين. وقال الرئيس التمساح للرئيس الانسان زعيم الـ(فان): -هيا اسمعني! واجمع بالك لما سأقوله لك !

-أذناي صاغيتان إليك.

-ما سوف تصنعه من الآن فصاعداً هو التالي: إني آكل ولكني أجوع كل يوم، وأعتقد أن لحم البشر أفضل لي من لحم الاسماك. فعليك أن تبتاع كل يوم عبداً فتأتيني به إلى ضفة النهر، رجلاً في يوم، وامرأة في الغداة، وفي أول ليلة مقمرة، ستجلب لي فتاة حسنة التزين بالمساحيق ومتلمعة بالدهون. كذا ستفعل. وإن جرؤت على العصيان، سأفترس ربع القرية أجمعين. هيا! انتهى الأمر ! إخرس وانصرف!

وعاد الرئيس التمساح أدراجه إلى النهر دون أن ينبس ببنت شفة أخرى. وراح ربع القرية ينوحون ويندبون ندباً مأتمياً. وطفق كلٌ منهم يقول: لقَد متّ ! أجل! كل واحد قال كذا، كبير القرية والرجال والنساء. وفي الغداة، بكرةً، عند شروق الشمس، كان الرئيس التمساح على عدوة النهر. «واه!واه!» كان فوه هائلاً، وأوفر طولاً من الكوخ هذا، وتضاهي عيناه الجسيمتان جدياً بكامله. فالتماسيح التي نراها في عصرنا لم تعد تماسيح ! وهرع القرويون ليأتوا للرئيس التمساح بما قد طلبه، برجلٍ في يوم، وفي الغداة بامرأةٍ وفي مستهل كل هلال بفتاةٍ شابة متزينة بالحمرة وبالزيت، ومتلمعة بالدهون. وصنعوا ما سبق للتمساح أن

(١) مزراق (مزاريق): رمح قصير.

فرضه عليهم. ولم يجترىء أحد على العصيان: فمحاربوه انبثوا في كل مكان، وهم التماسيح الآخرونه.

كان التمساح يدعى أيضاً (أومبور). والمياه تأتمر بأوامر أومبور، والغابات تمتثل لنواهي أمبور، وقد احتل «مقاتلوه» كل محلة هناك، فهو سيد الغابة ولكنه بخاصة، سيد المياه. وانبرى التمساح المولي يطعم كل يوم إما رجلاً وإما امرأةً، وقد غمرت البهجة كيانه وغدا صديقاً عظيماً لقوم الـ(فان). لكنهم أجمعوا بعزم واحد على هجر القرية والرحيل إلى ربوع أخرى. فقد سبق لزعيمهم أن باع كل مقتنياته كي يبتاع الضحايا. فلم يعد له أي صندوق ولا أي سن فيل عاجي! وكان عليه أن يزود الرئيس التمساح بإنسانٍ كل يوم، بإنسان من ربعه الـ(فان). وأهاب كبير هؤلاء القوم برجاله كلهم فاجتمعوا إليه في كوخ الجماعة. وتحدث إليهم طويلاً، طويلاً. ومن بعده تكلم المحاربون الآخرون طويلاً كما فعل كبيرهم. وفي ختام الحديث والمداولة، أجمع الحضور بأسرهم على رأي إرتأوه بعزم واحد: ألا وهو الرحيل عن ديارهم. وقتذاك قال سيدهم:

-ها نحن قد فرغنا من قضية الرحيل: سنمضي بعيداً، مبتعدين عن قريتنا إلى ما وراء الجبال النائية، وحينما سنرحل بعيداً عن هذا النهر، إلى ما وراء الجبال النائية لن يتمكن أومبور من بعد أن يبلغ مكاننا النائي، وسنسعد برحيلنا إلى البعيد البعيد.

وعزموا على أنهم لم يجددوا بذور الزراعة، وأن القبيلة جمعاء ستهجر ضفاف النهر في نهاية الفصل. وكذا صنعوا...

في مستهل فصل الجفاف، حين تنخفض المياه ويَحسُن الرحيل ويستطاب راحت القبيلة تغادر موطنها. ومضى الربع بخطوات تخف وتزف في اليوم الأول، بمقدار ما كان في طاقتهم أن يخفوا بخطواتهم. وانبرى كل رجل يحث خطى زوجاته. وكانت الزوجات يسرعن خطاهن صامتاتٍ منحنيات تحت عبء المؤونة وادوات الطبخ وأمتعة الديار، لأن القوم يشيلون معهم كل شيء: القدور والاطباق والمدقات والسلل والسيوف والمجارف، أجل كل شيء يقتنونه. ولكل امرأة

عبؤها، وهو عبء باهظ ثقيل. أجل لكل امرأة عبء ثقيل؛ لأنه، علاوة على كل الأمتعة، قد جفف الربع منيهوتاً[1] وشالوه معهم. أجل لكل امرأة عبء ثقيل، فلزام عليها أن تحمل أيضاً الأولاد، ولا سيما الصغار منهم العاجزين عن السير، والأولاد الذين ليس بوسعهم أن يسيروا طويلاً.

وتحتم على الجميع التزام الصمت: فالرجال يصمتون، والنساء يصمتن، والأولاد يبكون. لكن الامهات يقلن: اصمتوا!! وكان كبير القوم في طليعتهم يقود ترحالهم، فهو الوحيد الذي يعرف القطر أفضل معرفة: ألم يمض غالباً إلى الصيد؟ وها هو الآن يتقلد قلادة صنعت من أسنان قرد بدين تيمناً بها.

إي نعم! لقد كان الزعيم صياداً عظيماً.

في اليوم الأول من ارتحالهم، كان الكثير منهم يلتفتون وراءهم خشية سماعهم التمساح يزعق: «واه!واه!». ومن يسير في موخرة القافلة يتولاه الفزع فيتسرب إلى أعماق قلبه! ولكنهم لم يسمعوا أي صوت. واستمر الأمر على هذا المنوال في اليوم الثالث، ولم يسمعوا أي صوت.

غير أن الرئيس التمساح خرج في اليوم الأول من هجرتهم، وصعد من الماء إلى عدوة النهر كما دأب وتعود، قاصداً الموضع الذي اعتاد القوم أن يتركوا فيه العبد المعد للوحش المفترس. وحين وصوله زعق بصوت مجلجل: «واه! واه!» ولم يكن ثمة أي إنسان! ما الأمر؟ وللحين مضى يسلك الدرب إلى القرية حيث صاح منادياً:

-يا كبير القوم! هاأنذا أدعوك!

لا شيء! لم يسمع أية ضجة وحينما دخل القرية ألفى كافة الأكواخ مهجورة. فأم المزارع، فوجد المزارع كلها خالية خاوية. فانبرى يصرخ صراخاً مدوياً: «واه! واه!» وطاف زعيم التماسيح في القرى المجاورة، فألفاها مهجورة بأسرها. وأخذ يجوب جميع المزارع فشاهدهامهجورة بكاملها.[2]

(١) المنيهوت: نبات له جذور درنية ذات مادة نشوية غذائية.

(٢) التكرار يشدد عليه النص!

إستولت على أومبور، عندئذ سورة غضب مُستعرة. وانثنى عائداً إلى النهر حيث غاص في عباب مياهه، مستأنساً بمشورة تيمته، فأنشأ يغني وينشد:

يا أنتِ التي تأمرين الامواه،
أيتها الأرواح المائيات
يا أنت التي تمتثلين لأوامري
هاأنذا أهيب بك
هلمي ! هلمي! إلى نداء سيدك
أجيبي في الحال أجيبي ولا ترددي
سأبعث بالبرق الذي يخترق أجواز السماء
سأبعث بالرعود التي تجوز وتحطم جميع الأشياء.
سأبعث بالرياح العاصفات
التي تجوز مقتلعة أشجار الموز.
سأبعث بالإعصار الذي يهبط من الغمام
فيطمس كل ما يعترضه من عقبات.
وسوف تلبي جميعها صوت زعيمها.
وأنت التي تمتثلين لأوامري
هلا أشرت لي إلى الطريق
الطريق التي سلكها جمع المنهزمين !
يا أرواح المياه ! هيا أجيبي !

* * *

كم كانت دهشته عظيمة ! فأرواح المياه لم تجب ! أحد من الأرواح لم ينبس ببنت شفة !

ما الذي حدث ؟ دونكم ما حدث :

سبق لكبير القوم، قبل مغادرته القرية، أن قدم ضحايا عظيمة لأرواح المياه، ملتمساً صمتها المطبق. وقد وعدته الأرواح بالاستجابة. أجل قطعت له وعداً بقولها : لن نقول شيئاً.

وعاد أومبور يثني مناشدته بلهجة أشد حزماً :

يا أنت التي تقودين الأمواه وتأمرينها !

أنت يا أرواح المياه والأمواج !

أنت جميعاً التي تمتثلين لأوامري،

ها أنذا أهيب بك ! ...

آنئذ، مثلت أرواح المياه بحضرة أومبور وقد اضطرت إلى الانصياع والطاعة. فسألها التمساح غاضباً :

-أين هم القوم؟ هل مروا بمسالكك ؟

-لم نر أحداً ! لم يمروا بمسالكنا !

-لم يمروا بمسالك المياه : أجل لا تقتدر أرواح المياه شق عصا طاعتي !

وراح أومبور ينادي أرواح الغابات :

يا أنت التي تنصاع الغابات لأوامرك !

أيتها الأرواح الغابيات

أنت التي تمتثلين لأوامري !

ها أنذا أهيب بك

هيا ! هيا إلى نداء سيدك !

أجيبي في الحال، أجيبي ولا ترددي [...]

أنت التي تمتثلين لكل ما أتوخى وأريد،

هلا أشرتِ لي إلى الطريق

الطريق التي سلكها جمع الهاربين .

يا أرواح الغابات ! هيا أجيبي ! ...

وكم كانت المفاجأة عظيمة، فلم يجبه أي واحد من هذه الأرواح التي التزمت الصمت فلم تنغُ بحرف واحد !

فما الذي جرى؟ إليكم ما جرى: إن شيخ القوم، قبل ارتحاله عن قريته، قدم ضحايا عظيمة. أجل ! لقد قدم تضحية كبيرة لأرواح الغابات ملتمساً منها التزام الصمت وقطعت له وعداً بقولها: لن نتفوه بكلمة!

وعاود أومبور يكرر مناشدته بالمزيد من الشدة:

يا أنت التي تأمرين الغابات

أنت يا أرواح الغابات

التي تمتثلين لأوامري

إنما أنا الذي أهيب بك ...

فمثلت أرواح الغابات بحضرة أومبو وقد اضطرت إلى الخضوع. فسألها:

-أين القوم ؟ هل مروا بمسالكك ؟

-أجل ! لقد فعلوا !

وراح أومبور يدعو بالتتالي أرواح النهار، وأرواح الليل، وبفضلها علم بالمكان الذي مر به ربع الـ(فان).

وحين انتهى أومبور من مناشدته السحرية، تيقن من الطرق التي سلكها الـ(فان) المنهزمون. وعبثاً حاولوا أن يطمسوا آثار أقدامهم. فقد أنبىء الوحش بدروبهم فمن الذي كشف له سرهم ؟هل هو البرق أم الريح أم العاصفة ؟ إن البرق والريح والعاصفة قد أفشت أمرهم. أجل لقد فعلت !

تابع الـ(فـان) إرتحـالهم زمناً طويلاً، جـد طويل. واجـتـازوا في النهـاية الجبال. وقام الزعيم الكبير باستشارة تيمته فسألها: هل نتوقف هنا؟ فأجابت التيمة التي دأبت منذ اليوم الأول على التقيد بأوامر أومبور (وقد خفي هذا السر عن شيخ القوم) بقولها:

-لا! لن تتوقفوا هنا! فالموقع موقع شؤم وأذية!

فاجتازوا السهول. وعقب اجتيازها والعودة إلى الغابة الفسيحة، الغابة التي تبدو دون نهاية لها، إستشار كبير القوم تيمته سائلاً: هل سنتوقف هنا؟ فأجابت التيمة مرة أخرى: لا بل سيروا وابتعدوا أيضاً. وأفضوا أخيراً إزاء سهل وسيع فسيح، ثم إزاء بحيرة عظيمة كانت تُغلق دونهم كل ممر. وإستشار الزعيم التيمة. وكانت تخضع لإرادة أومبور. فأجابت: أجل، توقفوا هنا!

وكان قوم الـ(فان) قد ساروا بياض نُهُرٍ عديدة وسواد ليالي عديدة: حتى إن الأولاد الصغار قد أصبحوا يافعين، ومن ثم غدوا فتياناً مقاتلين، كما صار الشبان المحاربون رجالاً كهولاً. لقد ساروا أياماً وليالي كثيرة كثيرة، ثم توقفوا على ضفاف البحيرة، حيث بنوا قرى جديدة، وأنشأوا مزارع جديدة، وطفقت الذرة الصفراء تنتج بذوراً جديدة. وقتئذ، جمع الزعيم رجاله ليطلقوا إسماً على قريتهم فأسموها (أكورينغان)-يعني: الإنقاذ من التمساح-.

ولكن، خلال تلك الليلة، حين دنا منتصف الليل، تعالت ضجة وأرعدت، وزعق صراخ يقول: أوه! هيا! تعالوا إلى هنا! وهرع الجميع خارجين، وفرائصهم ترتعد هلعاً وذعراً. وما الذي شاهدوه؟ (لأن القمر كان ينير الأرض بضيائه). كان أومبور في وسط القرية! هناك مقابل كوخ الزعيم الكبير. ما العمل؟ إلى أين الهرب؟ وأين سيختبىء الربع؟ لم يجرؤ أحد منهم على الهزيمة! وحين خرج كبير القوم من كوخه ليرى ما يحدث، «أوه!أوه!» [1]، آنئذ بات الضحية الأولى! لأن أومبور شطره قطعتين بضربة واحدة من أسنانه وازدرده: «كروو، كروو، كواس!»[2] واكتفى التمساح بقوله: ها أنذا (أكورنغان) مولاكم التمساح!

---

(١) أوه: صرخة دهشة وهلع.

(٢) صوت قعقعة فكيّ التمساح.

انقلب أومبور عائداً إلى البحيرة.

واجتمع المقاتلون، وقد انخلعت قلوبهم هلعاً، واختاروا زعيماً آخر، شقيق السابق، طبقاً للقانون. وفي الصباح، أسروا زوجة الزعيم السابق، وذهبوا بها إلى ضفاف البحيرة حيث أوثقوها مضحين بها للتمساح أومبور. وقدم الوحش فيما كانت المرأة تبكي مولولة. «كروو! كروو!»، لقد افترسها الوحش. لكنه عاد إلى القرية عند المساء صاح بالزعيم الجديد: يا كبير القوم، هاأنذا أدعوك إلي!

-وها أنذا أصغي إليك

-هوذا ما آمركم به، أنا، أومبور، وسوف تفعلون ما أريد. ستأتوني، كل يوم، برجلين، برجل صباحاً، وبرجل مساء، وفي الغداة، ستجلبون لي امرأتين، امرأة صباحاً، وامرأة مساء. وفي مستهل كل هلال، ستقدمون لي شابتين من فتياتكم، وقد أكملتا التبرج والتزيّن بالحمرة، وبعد تضمخهما بالزيت. هيا انصرفوا! إني أنا أومبور ملك الغابة، إني أنا أومبور ملك المياه والاعاصير.

ودأب القوم على الخنوع والطاعة خلال سنوات وسنوات. وفي كل صباح وكل مساء، تمتع أومبور بطعامه: برجلين يوماً، وبامرأتين في الغداة، وفتاتين شابتين في الأول من كل شهر قمري. ولبثت الأمور على هذا المنوال ردحاً طويلاً. وتحتم على قوم الـ(فان)، سعياً إلى دفع الجزية البشرية للتمساح، أن يشنوا الحرب على أقوام بعيدة عنهم جداً. وأينما غزوا، ظهروا على الآخرين، لأن أومبور، الزعيم التمساح، يشملهم برعايته وكذا ذاع صيتهم كمحاربين مغاوير.

وتتالت السنون، وأسقطت كل سنة جديدة السنة السابقة، وقام الـ(فان) بتجديد مزارعهم كلما تعاقبت الاعوام العديدة ... لكن عبء أومبور بهظ حقاً كواهلهم. فكيف التحق بهم بعد هروبهم منه؟ لقد ذهلت ذاكرتهم عما سبق أن جرى لهم. ولكن عبء الوحش بهظ كواهلهم وفدحها.

أجل، لقد غاب عن ذهنهم ما قد جرى لهم. وانبرى الفتيان يرددون: لقد تعبنا! هيا بنا ننصرف من هنا! ... فانطلقوا يسيرون إلى الأمام، وتبعهم المقاتلون، والنساء حاملات صرر أمتعتهم خلف المحاربين.

قدم التمساح صباح الغداة إلى شاطىء البحيرة ليأخذ، كما اعتاد، مؤونة قوته اليومي. ونظر وبحث، فلم يجد شيئاً. وحين بلغ القرية لم يشاهد أحداً. فما صنع ؟ أخذ تيمته ودعا للحين أرواح الغابة وقال لها :

-هوذا ما يأمرك به أومبور، زعيمك. لقد ولى عبيدي هاربين وهم الآن في ربوع قطاعك. ينبغي الآن أن تنقطع عليهم كل طريق يسلكونها. يا رياح العواصف، إكسري وجندلي الأشجار أمامهم هيا ! انصرفي ! من يأمرك هو أنا أومبور سيدك !

إنطلقت الأرواح والرياح. فانغلقت المسالك كلها أمام الـ(فان)، وتساقطت الأشجار، واجتاحت الظلمة كل شيء حتى اختلطت بالارض ! وانقض اليأس على قلوب المرتحلين، فارتدوا على أعقابهم قافلين إلى البحيرة. وهناك على الساحة المحاذية لها كان أومبور متلبثاً بانتظارهم. غير أن الشيخوخة قد نخرت قوى التمساح الزعيم، وبدلاً من رجلين، راح يتطلب منهم المزيد قائلاً :

-عليكم أن تقدموا لي كل يوم فتاتين شابتين ضحية يومية لي.

واضطر قوم الـ(فان) إلى الانصياع لأمره فأتوه بشابتين يومياً، بشابتين مطليئين بالحمرة، متلمعتين ومدلكتين بالزيت، كما تتزين الفتيات لزواجهن.

وأخذت فتيات الـ(فان) بالنحيب والعويل : إنه احتفال حزين بخطوبتهن الملوعة غماً وفزعاً ...

الفتاتان تبكيان وتعولان مساء، ولا تبكيان ولا تنطقان صباحاً : فلم تعد والداهما تسمعان أي خبر عنهما : فهما في قعر البحيرة، في المغارة حيث يقطن أومبور، تخدمانه ويتخذ منهما قوته اليومي.

وذات يوم، حدث ما يلي : الفتاة الشابة التي توجب وضعها مساء على عدوة النهر، أي الفتاة التي أتى دورها، كانت (ألينا- كيري)، إبنة زعيم القوم : فتاة شابة جميلة. وكان القوم قد أوثقوها على ضفة البحيرة بصحبة رفيقتها. وهذه الرفيقة لم تعد. ولكن في غداة ذلك اليوم، عند انبلاج، النهار، وجدت إبنة كبير القوم لابثة

على الضفة: كان أومبور قد عفّ عنها، فلم يفترسها. ولذا أطلقوا عليها لقب: «انبثاق الفجر».

وعقب تسعة أشهر، ولدت ابنة الزعيم ولداً، ولداً ذكراً. وأطلق على هذا الوليد إسم (نغورانغوران) اي: إبن التمساح.

كان (نغورانغوران) إذن إبن التمساح، التمساح الزعيم: وهذه هي الحكاية الأولى: (نغورانغوران) قد ولد كذا.

دونكم الآن الأمر الثاني: مصير التمساح أومبور

طفق كلٌّ من نغوران ابن التمساح أومبور وابنة كبير القوم يشب ويترعرع يوماً بعد يوم: واصبح الصبي يافعاً، ثم فتى شاباً، كما غدا زعيماً لشعبه. إنه لزعيمٌ مقتدر وساحر، عالم بالتيمات خبير بها. وكانت فكرتان تراودان ذهنه كرغبتين تستحوذان على قلبه: الانتقام لموت زعيم عرقه، جده ووالدأمه، وإنقاذ شعبه من الضريبة التي أوجبها عليهم التمساح الزعيم.

وإليكم الآن ما قد صنع تحقيقاً لما قرت عزيمته عليه.

يجد الزنوج الافارقة في غاباتهم شجرة مقدسة، وأنتم لا تجهلون هذا الأمر، ويدعونها «النخلة». وإذا جرحت نخلة فالنسغ يسيل منها ويسيل بغزارة. وإن أبقيتَ هذا النسغ يومين أو ثلاثة بعد الاغلاق عليه في أواني فخارية، حظِيتَ على الـ(دزان)، أي الشراب الذي يفرح قلب الانسان. إننا لا نجهل هذا الأمر في أيامنا الراهنة، لكن أجدادنا قد جهلوه. ومن أخبرهم بهذا الأمر، إنما هو نغوران، وأول من شرب الـ(دزان) إنما هو أومبور الزعيم التمساح. ولكن من الذي كشف لـ نغوران عن خمرة الـ(دزان)؟ إنه (نغونومان) الحَجَر التيمة الذي كانت والدته قد أهدته إياه.

وطبقاً لرأي الحجر التيمة، أي (نغونومان)، قال الزعيم نغوران لنساء ربعه:

-هيا! هيئن كل الأواني الفخارية التي بحوزتكن، أجل جميعها! وأتين بها إلى كوخي.

كذا قال نغوران للنسوة: فجلبن كلٍ ما عندهن من فخارات، وكانت كثيرة، جد كثيرة. وقتذاك، خاطبهن الزعيم قائلاً:

-هيا انصرفن جميعكن، وادخلن الغابة، واقترين من الجدول الذي تجبلن من تربته الصلصال، واصنعن المزيد من الفخارات. فمضين إلى جدول تربة الصلصال، وصنعن من الفخارات عدداً وافراً جداً.

ثم قال نغوران للرجال:

-هلموا إلى داخل الغابة! هيا بنا! واقطعوا هناك الاشجار التي سأشير إليها!

وقصدوا جميعاً داخل الغابة متسلحين بفؤوسهم ومدياتهم. وقطعوا الاشجار التي أشار نغوران إليها. وكانت الاشجار نخيلاً. وعقب قطعها جميعاً، جنوا النسغ الذي ساح بغزارة من الشطوب التي أحدثوها بفؤوسهم. وطفقت النسوة يجلبن الفخارات العتيقة منها والجديدة. وحين جهزنها بأجمعها، ملأنها بخمرة الـ(دزان)، وعدن بها إلي القرية. وأخذ نغوران يذوق الشراب كل يوم: وعندما أراد الرجال أن يفعلوا على غراره، حظر عليهم بأمر قاطع أن يحذوا حذوه! غير أن رجلاً إعترض قائلاً:

-بما أن سيدنا نغوران يشرب منه، فسأفعل أنا أيضاً.

وأقدم الرجل على اجتراع الشراب، ولكن خفيةً، وللحين اعتراه الدوار، وصدمته حميا الشراب. فاقترب منه الزعيم نغوران وأطلق عليه الرصاص من بندقيته فقتله. ألقيت جثته في العراء دون أن توارى في التراب لأنه خالف الحظر، وابتذل قرار الزعيم الصارم.

وانقضت ثلاثة أيام. فجمع نغوران ربعه رجالاً ونساءً وقال لهم:

-لقد آن الأوان! هيا احملوا هذه الفخارات واصحبوني إلى شواطىء البحيرة!

حملوا الأواني الفخارية ومضوا معه. وحينما بلغوا شواطىء البحيرة، أصدر نغوران لقومه الأمر التالي:

-عليكم أن تجروا كل هذه الأواني إلى ساحل البحيرة.

ففعلوا للحين. وخاطب النساء بقوله:

-هيا أتوني بالصلصال الذي سبق لي أن أرسلتكن كي تجلبوه لي.

وكذا صنعت النسوة. وعلى شاطىء البحيرة بنى القوم حوضين فسيحين، وباتقان رصوا قعرهما بأقدامهم، وبحرص شديد ملسوا جوانبهما براحات أيديهم. وصبوا، آنذاك، في البحرتين كل ما كانت الفخارات تحويه من شراب الـ(دزان)، دون أن يبقوا فيها أية قطرة. وطفق الزعيم نغوران يصنع تيمة ضخمة. ومن ثم كسرت كافة الأواني وطرحت في البحيرة. وحين فرغوا من شد أسيرتين بوثاق إلى جانب الحوضين، عاد الربع أدراجهم إلى القرية.

أما نغوران، فقد لبث وحيداً متوارياً خلف خُمر من الشجر قرب البحرتين. وفي الساعة التي اعتادها التمساح الزعيم، خرج من المياه. وقصد الأسيرتين المرتعدتين هلعاً. ولكن، بادىء ذي بدء إندهش الوحش وقال، حين بلغ قرب الحوضين:

-ما هذا؟ ما هذا؟

وذاق جرعة صغيرة من المادة المائعة. وعندما استطاب الشراب، صاح صياحاً جهيراً:

-كم هو لذيذ هذا الشراب! فانطلاقاً من الغداة، سآمر ربع الـ(فان) بأن يزودوني به كل يوم.

وعبّ أومبور جرعات مديدة من خمرة الـ(دزان). وراح يجترع، حتى استنفد آخر قطرة منه، ذاهلاً عن الأسيرتين. ولما تضلع من الشراب وأمعن أنشأ يغني:

«شربت الـ(دزان)

وهو شراب يفرح القلب ويبهجه

شربت الـ(دزان)

فأمتعني وأثلج صدري

شربت الـ(دزان)
والزعيم الذي يذعن له الجميع
إنما هو أنا !
أنا عيني، (نغان) أنا !
أنا الزعيم الأوحد !
أومبور سيد الأمواه،
أومبور سيد الغابات !
أنا الزعيم والجميع لي يخضعون !
أنا الزعيم الفذ الوحيد !
قد شربت الـ(دزان)
الشراب الذي يفرح القلب ويبهجه!
شربت الـ(دزان)!
شربت الـ(دزان)،
فأمتعني وأثلج صدري!
شربت الـ(دزان) ! ...

وراح ينداح على رمل الشاطىء وهو يغني دون الاكتراث بالأسيرتين، وقد طفح قلبه حبوراً. ولم يلبث أن نام نوماً ثقيلاً.

واقترب نغوران من أومبور ليتيقن من أنه نائم. ثم فك وثاق الأسيرتين. وبمساعدتهما أوثق التمساح إلى عمود خشبي، بحبل مرير متين. ثم هز مزراقه هزاً شديداً ووجأ به الوحش الراقد: لكن المزراق نبا إلى الخلف عن حراشف الوحش الكثيفة دون أن يخدشه. ولم يفق التمساح من نومه العميق، بل انتفض قليلاً وهو يتساءل:

-ما هذا ؟ لقد لسعتني ناموسة !

فتناول نغوران فأسه وقد صنعت من جلمود صلد. وأهوى على الوحش النائم بضربة هائلة: لكن الفأس نبت دون أن تجرح الحيوان الذي طفق يتخبط:

فانهزمت الاسيرتان فزعاً وهلعاً. إذاك، صنع نغوران تيمة مقتدرة، وخاطبها بقوله:

-أيها الرعد! أيها الرعد! ها أنا أناديك وأهيب بك! هيا إلي بسهام!

وما فرغ من استنجاده حتى هرع الرعد مجلجلاً قاصفاً. غير أنه، حين أدرك أنه مضطر إلى قتل أومبور عج بالصراخ قائلاً:

-إنه والدك! وهو أيضاً مولاي وسيدي!

وإذ جهر بعجزه، ولى هارباً مذعوراً، بيد أن (إيلينا- كيري) أسرعت لنجدة ولدها نغوران فجلبت له (نغونومان) الحجر- التيمة-الجنية. آنئذ صاح نغوران متوسلاً باسم (نغونومان) وأهاب بالرعد صارخاً:

-أيها الرعد! آمرك هيا اضربه! هيا!...

وأذعن الرعد وضرب، فما كان بطاقته أن يتمرد. فضرب أومبور على يأفوخه وبين عينيه. فثبت الوحش في مكانه مصعوقاً ميتاً. إن من قتله هو نغوران، ولكن نغوران لم يهلكه إلا متوسلاً بـ(نغونومان)، الحجر- التيمة-الجنية.

ودونكم الآن ختام هذه الاسطورة.

إنقلب نغوران عائداً إلى القرية بسرعة، وصاح بربعه قائلاً:

-هيا أيها الربع! أنتم أيها الرجال جميعاً، وانتن أيتها النسوة جميعكن، هلموا إليّ بأسركم!

هرع الجميع إلى شاطىء البحيرة. وكان أومبور هناك، مجندلاً بجسده الجسيم الهائل، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة. وخاطب نغوران قومه صارخاً:

-من قتل التمساح أومبور إنما هو أنا نغوران! ومن انتقم لزعيم قومه وعرقه، هو أنا. ومن أنقذكم، هو أنا! أنا نغوران.

واجتاحت البهجة قلوب الربع أجمعين، وهم متحلقون حول جثة الزعيم التمساح. وانبروا يرقصون رقصة الـ(فانكي)، وهي رقصة المآتم العظيمة. أجل، رقصوا رقصة الـ(فانكي) إبتغاءً لتهدئة روح أومبور الشريرة.

وكذا كانت نهاية أومبور

«مايسَا تِنْدَا»
جبّار فروسيّة ومروءَة

من السينيغال

يَروي لنا الشعراء السّحرة أن مايْسَا تِندا كان «دامِيل تيغنِ» : أي عاهل قبائل (كَايُور) و (بَاوْول) في آن معاً[1].

وسبق لبلاد (وَالُوف) أي السينيغال أن شهدت ملوك المقاطعتين يتربّعون على عروشهم، ويصرفونْ اهتمامهم إلى شؤون الإدارة العامة، دون أية نزعة إلى الحرب. على أن الرواة السحرة يُبدون موقفاً قاطعاً من حيث أنّ مايساتندَا قد منح الأفضلية للمعارك، والتلذّذ بِمُتع الحياة، على شؤون الحكم في أرجاء امبراطوريته.

عقب وفاة والده، رَفض (لاتْسُوكابيْه) النبيل، أي مايسا تندا، أن يقطن (لامباييْه): عاصمة(باوول)، ولا (مْبو ل): عاصمة (كايور). فأمرَ بتشييد مدينة إمبراطورية جديدة، وهي (نْغونيْم) التي تقع على تخوم الاقليميْن.

تسنّم مايسا العرشَ ثلاثة وثلاثين عاماً. أما مأثرة سيرته التي صيّرته خليقاً بخلود ذكراه على أوتار القيثارة الزنجيقيّة فهي المعركة الشهيرة التي نشبت مع ملك (ديوباس)[2]

بعدَ أن تقلّد مايسا زمام السلطان في مملكته أبى هذاالملك (مْبْوبيْه سيسيّه) أن يبعث إليه بالهدايا الأعرافيّة. فألحق هذا الاستخفاف بالعاهل مايساتندا إهانة مُنكرة تستحق العقاب،

١- إقليمان من السينغال القديمة و(داميل) لقب الملوك في (كَايُور) و(نيغن) لقب الملوك في (بَاوُول).

٢- إقليم من السينيغال، سكانُه من قبائل (نُون)، بطن من بطون (السيرير) الذي ينتمي إليه الشاعر الفذ (ل. س. سنغور).

ومن ثمّ، إستحضر مايساتندا إلى (نغونيم) أميرَي الاقليمين وأمراء الجيش. وكان هؤلاء يُشكلون كوكبةً من فتيان النبلاء الجبابرة في الحروب [. . .] ومن بينهم رجل لم تخطئ قطّ بندقيتهُ هدفَها، وهو (يامْبيْه نْديْلا). وسبق لرجال السلاح أن وفدوا بأعدادٍ وفيرة من آلاف القُرى المنتشرة في ربوع الاقليمَيْن، علاوة على حشود من لفيفٍ شتى الاقوام.

إشتمل هذا الجيش، إلى جانب الأمراء الملكيّين، على ذَراري حُكّام الاقليمين، والأشراف، وسواد الناس - سوى العبيد- وكان أرباب المِهن ينهضون بشؤون الهندسة والمعتمديّة العسكريّة.

وتداول أركان الجيش سحابةَ مابعد الظهيرة، في ظلالٍ كثيفةٍ لشجرةِ تمر هندي على ساحة (نْغُونيم) الإمبراطورية.

وخاطبهم مايسا تندا:

- لزامٌ علينا أن نقتصّ من (مبوي سيسّيه)! فإن (كايُور) و (باوُول) لا طاقة لهما بالتغاضي عن إهانةٍ من (ديوباس)، فليست ربُوعنا موتُورةً قاصرة[1].

وسرت في الجمع همهمةُ تواطؤ من علية القوم وكافة الشعراء السحرة.

* * *

إبانَ حلول الغسق، راح قومُ (سُوريني) - ويدّعي بعض الرواه أنهم أولياءُ قدّيسونَ - يسترسلون إلى صلواتهم المتُلهفّة. وينطوي هذا، عقَب غُسول دقيقٍ، على ارتداء ثياب بيضاء، وعلى الانتباذ في كوخٍ يُغلَق عليهم بإحكامٍ، ومن ثَمّ على تلاوتهم آيات من كتبهم المقدّسة، وهم يكررونها مئةً وسبع مرآت يُحصيها كلّ منهُم على خرزات سُبحته. وفي إيمانهم أن هذه الآيات تستطيع، في غفوةٍ ضئيلة يغفونها عندَ السحَر، أن تقول لهم بأية طريقة سوف تجري شؤون المستقبل العتيد. فتنبأوا بأن نصراً مؤكداً ستظفرُ به جيوش مايسا في الغداة بُكرةً.

شحذ المحاربون نصالَ رماحهم وشفار سيوفهم، بياضَ النهار بأكمله. واقتلعوا قوائم القُدور، إبتغاءَ لدمجها، بمثابة رصاصات، في شحنات البارود التي يملؤون بها سبطانات البنادق المديدة وكأنّهم يحشون غليون تبغ للتدخين.

١- المَوتُور: المُهان الذي لايستطيع الانتقام.

وعندما أتى المساء، قَدِمَ مايسا. مُصَفِّقاً لرقصة جِنُده الحربية، على الساحة الامبراطورية.

وشَهد هذا الاحتفالَ حاكما الاقليمين وأمراء الحرب: وقد لَفَتَ الانظار أحَدُ جبابرة القيادة يُدعى (يامبْيه نْديلا) وقد ارتدى (خوسّابا) وهو رداء فضفاض كانَ يَجسِّمهُ بنطالٌ وفيرُ الثنايا، أُعدَّ لَهُ بثلاثين ذراعاً من القماش. وكانَ قُبعةٌ من قطن، لها زُنَاق تحت الحنك[1]. وراح (بامته نْديلا) يلوّح بخنجره وقد سبق لعبيده أن أرهفوه رهفاً يقطعُ أيّ لسانٍ لمجرّد أنّه يتحدّث عن سيّدهم مُقتولاً.

وعلى إيقاع «تمتامات» الحروب قطع (يامبيْه نْديلا) وعداً، خلاَل خشوع كلّ مَن كانوا حضوراً وجهر بقَسَمه التالي:

غدا، مهما يكن المكان

حيث يلبثُ (مبُوينْه سيسيّه)

عاهلُ (ديوباس) الذلق اللسان

سوف أضرب عنقه

واخلع رأسه عن كتفيه!

إنبرى الماثلون بين أظهرهم يُغدقون هتافاتٍ تنطق بحقٍّ الإجماع على الموافقة:

إِيْ بالله! يا(يامبيه نديلا)، أيها الجبار ربُّ البندقيّة التي لاتُخطىء هدَفَها!

وطفقت تمتامات الحرب تصدح برنّاتٍ تنمّ عن هتاف الترحاب بالقَسم والقناعة الثابتة بالوفاء به.

أما الشعراء السحرة، إنبرى الماثلون بين أظهرهم يُغدقون هتافاتٍ تنطق بحقٍّ الإجماع على الموافقة:

إِيْ بالله! يا(يامبيه نديلا)، أيها الجبار ربُّ البندقيّة التي لاتُخطىء هدَفَها!

---

١ - زُنَاق: رباط تحت الحنك تُشدّ به القبعة إلى الرأس.

وطفقت تمتامات الحرب تصدح برنّاتٍ تنمّ عن هتاف الترحاب بالقَسم والقناعة الثابتة بالوفاء به.

أما الشعراء السحرة، فأخذوا، في حماسٍ نَزِق، وفي جلجلة التمتامات. ووجيب القلوب، يُشيدون بالمآثر التي تحلّى بها القَائدُ (يامبيهْ نديلا)َ. أمّا هو فما انفكّ يُردّدُ قسم الحرب الذي جهر به مُغتنماً كل صمتٍ تصمتُه أفواهٌ ترحِّبُ بقَسَمه:

غدا، مهما يكن المكان

حيث يلبث (مبوبيهْ سيسيّه)

عاهلُ (ديوباس) الذلق اللسان

سوف أخلع رأسه عن عنقه!

وعَقب هذا القسم، تتابع جميعُ النبلاء الذين لايمتّونَ بصلة إلى الرّحم الملكيّة، والبُورجوازيون، والمهنيّون... وهتف كل منهم بشعار حربه مُشتملاً دوماً على عهد يقطعه: سبْيُ عشرينَ عبداً من عبيد (ديوباس)، وقتل أربعة أعداء بكلّ طلقة رصاص يُطلقها.

* * *

فاجأ السَحَرُ الرطبُ أهالي (نغُونيم) وهم لايزالون في إعياء وضَنَى من شدّة الرقص والقصوف والسُكر خلال سهراتهم.

وطال مكوثُ ربّات المنازل على أسرّة صنُعت من قضبان خشبيّة حُزمت بمرسات من ليف العارشات. أما الديكُ فلم يغادر الركن الدافئ حيث كان قد جثم على الرمَاد متوسّطاً الموقد الذي انطفأ.

أجل، فجأ النهارُ أهالي (نغونيم) فالديك أخذ يهفو بجناحيه ويخفق، وصاحَ حين راحت أشعةُ الشمس تُضفي لوناً قرمزياً على أفق المشرق. وطفقت مدقّات[1] ربات المنازل تدقّ مدويّةً في هاونِ الدقّ. وكُنّ مُسْرعات لانهنّ تخلّفن في العمل. وأوقُدَت مواقدُ صغيرة كي تُدفّئَ عظام شيوخ الربع الذينَ يرتعدون من برد الشتاء صباحاً.

١-(١) مدق (مدقات): يد هاون الدق.

وقتذاك، زحف جيش (كايور) على طريق (ديوباس)، وفي طليعته حاكما الاقليمين وأمراءُ الحرب.

وكانت كسوة جيادهم الأصيلة بقعاء أو شقراء أو بيضاء. وامتطى الجند جياداً مطهمة سوداً كُمتاً... وقد طفق ركب الفرسان يتقدم على إيقاع تمتامات الحرب. والفرسان يتأرجحون على سروجهم العميقة، ولكل منها قربوس [1] أمامي و آخر خلفي بارتفاع ذراع. وكانت سيوفُهم تتدلى على جوانبهم، وقد أوشكت أن تبقر أغمدتها إبّان تحركها، والخيول تهملج [2] بنزق العنفوان وسورة الحَمِيّة.

وعند الظهيرة ولجوا منطقة ملك (ديوباس). وترجل الجيش كي يخلد إلى الراحة قبل القتال.

أما الكشافون فما برحوا يتوغلون. ولم يلبثوا أن اشتبكو بالعدو فور مشاهدتهم أشجار (ديوباس) وأكواخها. ومن استطاع منهم أن يعود إلى معظم الجيش، أكدوا أن (النونيين) -أهالي (ديوباس)- قد استخبروا عن قدوم مايساتندا من أقوال فصيلة جنود جاثمين، فرداً فرداً، على أشجار «الباؤوباب» المحيطة بالقرية.

وأقر هؤلاء المخبرون أيضاً أن جنود (مبوبيه سيسيه) قد احتلوا مواقعهم للقتال في الـ(ديدس) وهي ضربٌ من القلاع الطبيعية تكونها شجيرات شائكة، يسعهم من خلالها إطلاق الرصاص على نحوٍ يثخن الأعداء فيبسلهم.

ما إن تزود أركان الجيش بهذه الأنباء حتى عقدوا مجلسهم لإقرار خطة الهجوم.

والتزم الجيش بمواقعه. أما فريق الهندسة فباشر تحركه.

وعند مغيب الشمس، حش جند مايسا أضغاث أعشاب جافة صنعوا منها حزماً. وطفقوا يزحفون على بطونهم ليضعوها حول المعقل الشائك.

---

(١)قربوس: حنو السرج، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره (المنجد).

(٢) هملج الفرس: مشى بسهولة وسرعة، أو حسن سيره (المنجد).

وحين انتصف الليل أو كاد، إرتفع سور هائل يحيق بجنود (ديوباس) إحاقة تتشكل من صفوف عديدة. لكن منفذاً وحيداً ترك حراً ليصل القرية بالمعقل. وانبثق الفجر، فراح الجنود المزودون بجذوات متقدة يشعلون الحريق. فانبجست ألسنة النار الشعثاء السريعة تنقض على المعقل، وقد اختلطت بتلافيف الدخان الكثيف. وأرغم حرج الموقف ربع (ديوباس) على أحد حلين: فإما يقضون نحبهم خنقاً كما تهلك الأرانب محاصرة في أوجارها، وإما الخروج من ديارهم لخوض المعركة، كما يخوضها شجعان نجباء، مدافعين عن أنفسهم بالسلاح الابيض، على أديم السهل الخالي.

وكلما كان القش المحترق يضمحل، أسرع المحاربون إلى ردفه بحزم احتياطية لاستمرار حريق لا ينطفىء.

وفي هذا السعير من نار متأججة، أخذت الاشجار الصغيرة الخضراء، عقب التوائها ألماً، تلتهب وتلحق ألسنة نارها بالحريق الكبير.

تزوبعت زوابع من أدخنة كثيفة. وغمرت أمواجها الملتفة المؤذية جنود (ديوباس) فطفقت عيونهم تدمع وأوشكوا على الاختناق، فانقضوا على أعدائهم انقضاضاً مفاجئاً، شاهرين مزاريقهم [1] زاعقين زعيق النزق والغضب.

قذفت بنادق جند (كايور)، بفرقعة عظيمة تصم الآذان، شظاياها الحديدية التي أهوت على الحضيض جند (ديوباس) الاوائل وهم يسعون إلى الافلات من معقلهم.

يا لها من مجزرة رهيبة دامية! ... فإن عساكر (مبوبيه سيسيه) الذين كانوا مهاجمو (كايور) يقتلونهم كلما يجهدون في اجتياز المنفذ الوحيد لنجاتهم، قد أغلقوا هذا المنفذ نفسه حين تجندلوا قتلى على الارض. وجميع من خرجوا متأخرين إنشبكت أقدامهم بجمهرة المنازعين، فعقلوا بأسلحة هؤلاء وطعنوا بها. وشرع جند (كايور) يسددون إلى أعدائهم ضربات مبسلة سوف توحي للشعراء السحرة بما يجعلهم ينشدون أناشيد الظفر الموسيقية.

(١) مزراق (مزاريق): رمح قصير.

إلا أن رجال (مبوييه سيسيه) قاتلوا قتال الشجعان البواسل، وقبل هلاكهم بتلك الأدخنة اللاذعة التي كانت تأكل عيونهم، وتخنق رئاتهم، إنطلقت رماح أعدائهم القصيرة بأسراب كثيفة تفقأ عيونهم وتبقر بطونهم. فقد اندفقت هذه الرماح بكرات عديدة وبأسراب اشتدت حدة غضبها، مازجة صفيرها بحشرجات المنازعين، وبصوت هاذ يصوته أحد مقاتلي (كايور) وهو يطلق طلقة قاضية مستذكراً أحد أجداده الاقدمين.

اما ربع (ديوباس) الذين عجزوا عن التملص من المعقل الطافح بالأدخنة، فقد اجتاحتهم سورة اليأس، وهرعوا قدماً ناشدين الهواء النقي، ذاهلين عن أشواك القتاد التي تتوغل في اقدامهم وتمزق ثيابهم وتثخن أبدانهم. وما كانوا يوشكون الخلاص من توقد سعير النيران، حتى يطعنهم مقاتلو (كايور) بخناجرهم طعنات قاتلة في كشوح خواصرهم ونحور صدورهم.

أما (مبوييه سيسيه)، فقد خرج من فجوة أقدم حرسه الاشداء على فتحها خلال الحريق، رغم الادخنة المهلكة خنقاً. وكان من اليسير التعرف عليه ببندقيته التي توشحها التيمات. ونحى إلى القرية، يتبعه كل أهالي (ديوباس) الذين لبثوا على قيد الحياة. واقتفاه (ماصيري عايسا) مصحوباً بغيره من أمراء الحرب، وكان (مبوييه سيسيه) في مقدمة فصيلتين من (كايور). وبعد أن أثخنوا بسيوفهم جميع الفارين الذين ما كانوا يتوخون سوى استنشاق الهواء النقي، التحقوا بحرس (مبوييه سيسيه) الذي أوقفهم مكانهم بوابل كثيف من المزاريق فقُتل منهم مقاتلون كثيرون، وجرح المزيدمنهم، كما أُبسل شعراؤهم السحرة لكن أبطال (كايور) قاموا بهجمة مناوئة ضاربة. وحصدوا بوابل من طلقات بنادقهم كل من تبقى على قيد الحياة من ديادبة حراس ملك (ديوباس). وآنئذ تماماً، امتطى (ماصيري أيسا دييه) جواده وانقض على (مبوييه سيسيه) الذي توقف في الوقت المناسب وأوشك أن يشطر جسد من يثب عليه بضربة من سيفه، لكن المهاجم تلافاها في اللحظة الأخيرة. وسدد (ماصيري أيسا دييه) فوهة بندقيته إلى الملك وأطلق على صدره الرصاصة الفضية التي سبق له أن أوصى بصنعها كي يقتل الملك بها. ومن ثم، إلتفت قائلاً لراويته الساحر:

-لقد وفيت بالوعد الذي قطعته في (كايور).

وفيما كانوا منهمكين في إعمال ظبا السيوف في مقاتلي (ديوباس) هرع الشيوخ والنساء يخرون ساجدين بين أيدي المنتصرين متوسلين أن يرحموهم ويعفوا عنهم. ووضعت معتمدية الجيش يديها على المحاصيل وكافة القطعان. واختار المحاربون عبيداً وقياناً من بين المهزومين، وشد جيش (كابور) الرحال وأخذوا طريق العودة في فوضى وجلبة بهجة عارمة.

* * *

رحبت القرى التي يمر بها المقاتلون الظافرون وأقامت لهم حفلات قصف ولهو بطعام وشراب. ولم يعد الجند إلى (نغونيم) إلا عقب مضي أسبوع بكامله. وكانت (نغونيم) التي أطلق عليها مايسا إسم (مكة)، حسنة التمدين: فثمة سبعة شوارع رئيسية تجتازها، وطوال كل منها سبع قصع تزخر جميعها بالسمن وتنغمس فيها ذبالات[1] مشتعلة. وعلى أضواء هذه القناديل أقامت (مكة) الاحتفال بظفر جيشها. ومن تلك الليلة فما بعدها، كانوا يذبحون كل صباح ثلاثين ثوراً. وبأوتاد خشبية يثبتون على أديم الارض جلوداً تكدس النسوة عليها كدسات من (الكوسكوس)[2] تكاثرت لحومها وسح السمن عليها بغزارة. وكان الرجال والنسوة يطعمون معاً، ويشربون معاً جعة ذرة بيضاء، ويرقصون معاً على إيقاعات «التمتامات» الاحتفالية وسواها من الآلات الموسيقية.

كذا دشن ملك (داميل تيجن مايسا يندا)... وشيد لجلالته بلاط ملكي كان يلتقي فيه أمراء الجيش وعلية القوم الذين تصحبهم شقيقاتهم وصيفات شرف يحطن بالامبراطورة (لانغير). وفي غضون ثلاثة وثلاثين عاماً، كان يذبح ثلاثة وثلاثون ثوراً، وذلك بعيد نهوض مايسا من نومه كل يوم. وعند هبوط الليل، تكوم النسوة كومات من «الكوكوس»، وقد طهيت باللحم، وتشربت بالسمن، ووضعت على جلود أثبتت بأوتاد على أديم الأرض. وعاد مايسا مجدداً يصرف أيامه في نفس النعيم، خلال ثلاثة وثلاثين عاماً، على ضوء قناديل السمن.

---

(١) ذبالة: فتيلة (المصباح).

(٢) أكله مغاربية وتدعى (مغربية).

ومن ثم، لبث ملك مايسا تندا ذائع السمعة، مترامي الصيت في التقاليد القديمة الشفوية. وفي عصرنا، لا يزال أقوام السنيغال يحتفظون بتعبير خاص بلغتهم: (ديكالي ماكاييه مايسا تندا) يعني: التهالك على القصف بالجفان والكؤوس [١]

وطالما استبقى الناس ذاكراتهم، سوف تقترن القيثارة الافريقية بذكرى مايسا تندا وبمآثر الفاتحين الذين استفاض صيتهم وانتشرت سمعتهم. وغالباً ما ستردد القيثارة الزنجيقية ذكرى موقعة (ديوباس) التي نشبت ما بين سوندياتاكيتا الفذ ونابغة مانديغ [٢] وبين «تارا»، في نشيد (الفاتح -الولي) من قوم الـ(توكولور عمر)[٣]

(١) قصف (قصفاً): أقام في أكل وشرب ولهو وأكثر (المنجد). بالجفان والكؤوس: بالطعام والشراب.

(٢) مانديغ: مجموعة من شعوب (مالي) و(السنيغال) وغيرهما يتكلمون لغة نيجرية- كونغولية.

(٣) توكولور: شعب وادي نهر السنغال الذين اعتنقوا الاسلام في القرن الحادي عشر.

المعركة

من الكونغو – كينشاسا

كان ثمّة ساحر تيمي[1] يتكلم عدة لغات زنجيقيّنة[2] محلية، دون أن يستطيع كتابتها. واشتهر بخبرته في خواص الأشجار والجذور. وقد طفق القوم يفدون إليه من قريته ومن جوارها البعيد لاستشارته في أمورهم العصيبة. وكان هذا الساحر التيمي المدعو (ويِنْشي) ينعم بتقدير الجميع واحترامهم. ولكنْ، ليس لأيّ إنسان على قيد الحياة اصدقاء وحسب. وفي منطقة نفوذ وينْشي وسلطته السعيدة، إشتهر رجل آخر يُدعى (دْجُونْغا) وكان هو ايضاً ساحراً تيمياً. غير أنه، علاوة على سحره هذا، تميّز بسوُء ذمّته ووجدانه. وتحتّم على أحدهما العزوف عن موقعه والتخلّي عنه للآخر.

ذات يوم، عثُر على إبن شيخ القرية ميّتاً في الغابة. فتلهّف قلبُ والده حسرةً عليه وأسى. وبعد ظُهر الغداة، جمع كبير القرية رجاله وخاطبهم:

– أعتقد أني نهضت بمُهمّتي حتى الآن، نهوضاً حميداً شريفاً. ولذلك أستنكر أن يُنتزع مني ولدي، بهذه الطريقة الوحشيّة.

خيّم على الجمع دمدمةٌ تذمّر باهظة. وكان فيما بينهم الساحران وينشي و دْجُونغا. وإذا بالساحر دْجُونغا يهمس لكل مَن جلسوا حوله قائلاً:

– نعرف مَن يتلاعب بحياة الآخرين.

فَعَلَ هذا القول فعلته البالغة، مُتنقلاً من فمٍ إلى أذن في الربْع، وتحولّ في النهاية إلى جلبةٍ وعجيجٍ بأنه وينْشي، فهو الذي استأسر روح ابن سيّد القرية.

---

١ – ساحر تيمي: يصنع التيمات ويستخدمها لشفاء المرضى. وهو في الغالب المسؤول عن العبادة الأرواحيّة. والتيمة أو التميمة هي التعويذة المسحورة التي يستخدمها الساحر.

٢ – زنجية إفريقية.

كظم الشيخ غضبه أو كاد. . . وعلى حين بغتة، أصدر إيعازاً، فقام اثنان من الحرّاس بدفع ويِتْشي إلى مُواجهة الشيخ الذي طالبه بكشف الحقيقة:

- هلاّ حدثتني عن موت ولدي؟

- إنّها تُهمة باطلة يتّهمني بها دْجُونغا. وكيف يتسنّى له أن يرميني بهذه التهمة، دون دليل ولا بيّنة؟

أما دْجُونغا فقد وجد ثمة سانحةً مُواتية لكي يتخلص من عدوّه إلى الأبد. فألقى في الجمع الكلمة التالية:

- ياشيخنا! إن هذا الرجل يستأسر أرواح قريتنا كلّها. فمَن منّا قد أقدم على دخول مغارته؟ وإن قُيّض لأحدٍ منا أن يفعل ذلك، فلن يبقى ساعة واحدة على قيد الحياة.

بهذا القول إستقطب دجونغا اهتمام الحُضور وأثار قلقهمُ، واستطاع أن يُقنع الشيخ الذي طفق الغَضَبُ يُستبدّ به، ويعمي بصيرته. فصاح:

- لن أبحث من بعدُ طويلاً عن قاتل ولدي. إن ويِتْشي يستحقّ النفْيَ عن قريتي وربعي.

أمهل كبيرُ القوم ويتشي أسبوعاً لكي يُغادر القرية دونما عودة إليها. وانفضّ شملُ القوم وتفرقوا. . .

مضى ويتشي العجوز، وابتعد وهو يدلف بخطوات امرئٍ مستغرق في حلُم عميق. وكان ينحى إلى كهفه. وأخذت الحيوانات والطيور وحتّى أوراق الشجرِ تتنحى عن درب مروره، وهو يسير كذا مُسترسلاً لهواجسهِ المتشائمة. وبغتةً، اقترب منه فتى شاب وقال له:

- أيّها العجوز ويتشي ألتمسُ منك أن تعلم بأنني على يقينٍ من حكمتك وسيرتك السويّة القويمة.

قطّب الساحر حاجبيه مُحذّراً الشاب:

- ياابني! إنْ شاهدوك بصحبتي، فلن أكون لك إلا مدعاة هموم ومصائب كثيرة.

- إن الظلم الذي يلحقونه بك يُثير اضطرابي ...

وسالت دمعتان على وجنتي العجوز راسمتين عليهما مَسيلَيْن مُوجِعَيْن. وارتفعت يده الابويّة تلفّ بساعدها كاهلَيْ الرجل الشاب، ثم قال له:

- أعلم أنّك يتيم، وتُدعى كاشاما ... هيّا اتبعني!

أفضى بهما الدربُ إلى مغارة سحر ويتشي، وقعد الساحرُ القرفصاءَ في وسطها، على جلدٍ كثيف الوبر وأمام كَرنيب[1] كبير تناوله وأعطاه للشاب كاشاما قائلاً:

- هيا ياابني! إذهب إلى النهر واستق لي ماءً.

إمتثل الشابُ لرغبة العجوز، ثم عاد وقد ملأ الكرنيبَ ماءً شروباً فقال الساحر:

- ضع القرعة هنا أمامي. وأنت ستكون لي شاهداً ... لأني سوف أكتشف مَن قتل ابن كبير قومنا.

وأخذ العجوز ذَروراً أبيض مسحوقاً وألقى به داخلَ الكرنيب. فانطلق منه انبعاثٌ يسيرٌ من دخان أبيض. وقال الساحر هامساً للرجل الشاب المرتعد خوفاً وجزعاً:

- هيّا اقترب لكي ترى بوضوح!

أخذ الدخان الأبيض يتبدّد. وبعد حين زهيد شوهد على سطح الماء دغلٌ كثيف. ومرّ بغتةً ولدٌ صغير، ابنُ شيخ القرية. وفي الطرف الآخر من الدرب حيث يخطو الولد كان يختبئ شخصٌ في عتُمة الاشجار. وحين اقترب الصبيّ، ألقى هذا الشخصُ شيئاً على دربه، رقيةً مؤذية دونما شك، واستعاد موقعهُ المعتم في خمر الاشجار. وكان الولد في غفلة عن نفسه، فتخطّى تلك الرقية المؤذية. وما أن تجاوزها ببضع خطوات حتى ترنّح وهوى فاقداً الحياة. ونهضَ الشخصُ القابع في العتُمة كاشفاً عن ذات عينه كي يستعيد رقيتَه ووسيلةَ سلطته وحَولِه ... وشاهد كاشاما وجهَه فصاح:

---

(١) كرنيب: قرعة مجففة تستعمل كآنية

- إنه دْجُونغا! إنه دجونغا! ...

- أجل إنّه هو بعينه الماكرُ المنافق... بل القاتل...

كذا أجاب العجوز ويتشي وقد صيّرته أسارير محياه مُخيفاً مفزعاً اكثر مما كان. وتفوّه ببضع كلمات فتبدّدت للتو آثار الدخان الابيض وكافة المشهد على سطح الماء. فنهض الساحرُ ووهب كاشاما قلادةً ليفيّة وقال له:

- أهبك هذه القلادة المصنوعة من ليف سحريّ يَحْبُوك بالنجاح والحظ السعيد. وعليك أن تثقَ بهذه القلادة تمامَ الثقة في جميع مكاره حياتك العصيبة.

في الغداة، نهض كاشاما بُكرةً، وانطلق إلى النهر لكي يستحم. وفورَ عودته إلى الكهف، خاطب الساحرَ التيميّ:

- أتاني حلم في هذه الليلة. فقد أُوعز إلي بأنْ أتحدى دجونغا وأبارزه... ولن أنتظر طويلاً لإنجاز التصدّي له. فلا تُضع وقتك سدى لتحاول أن أعزف عما أتوخّى. هيا اتبعني إلى القرية للحال!

وعقبَ ظهيرة ذاك اليوم، عند مغيب الشمس لبث مقاتلو القرية متحلّقينَ، وهم يتابعون باهتمامَ شديد مبارزة كاشاما و دجونغا الذي كانَ قد تصدّى للتحدي بفرح يغمرُ سحنتَه، متيقّناً من انتصاره. أمّا كبير القوم في القرية فقد شرع يرصد حذافير المعركة مُستوياً على كرسيّه الخشبي، ومُتابعاً جميع تطوّرات المبارزة الضارية.

وتعالى رنين تُمتامٍ[1] يُقرعُ قرعاً متقطع الايقاع والطنين وهو يقول:

- هاهما يتباطشان لاهثَين.

صلدةٌ عضلاتُهما كما الجلاميد!

ونواظرهما ترشق بنظراتٍ خاطفاتٍ

هاهما يتعاركان متغامرين...

في وسط تلك الحلقة من الرجال إنبرى دجونغا يتحرك بنزقِ أسدٍ من الأسود فينقضّ على خصمِه أو يتلمّص، ويتّقي ضربةً إثرَ ضربة. وكانَ يؤمنُ أن تيماتة

(١) تمتام: طبل إفريقي يصنع من جذع شجرة.

تذود عنه وتحميه. ومديتُه تحوم في الهواء وتمخره لكي تهوي على هامة كاشاما وجَسَده. أما الفتى الشاب، فقد أُنعم عليه بالخفّة والمهارة الحَذقة، فراح يختفي من قُدامَ خصمه بسرعة تزفّ وتباغت. ولبثَ الطبل يُدوّي ويقول:

- من الذي سيُقتل؟ من الذي سيُقتل؟

لزامٌ أن يتدفق الدم ويترشّش.

هل تسمعون

أنتم يا من عضلاتهم صلدة كما الجلاميد؟

وعلى حين بغتة يهدىء التمتام ضرباته ويقول:

-من الذي سيَقتل؟

هو من يقترن بالشجاعة

وبالعدل وطيبة الفؤاد

فالموت خبث وأذية!...

أجل كانت المبارزة بمديتين. وانبرى المقاتلان يتصببان عرقاً مدراراً. ولم يكن بوسع الحم والعرق والغبار أن تعيق تباطشهما حتى الموت. والطبل يوقع إيقاعاته الرتيبية ويقول:

-هيا أيتها السواعد!

هيا أقذفي!

هيا أطعني!

وأنت أيتها السيقان

هيا صوبي،

فأنت المنيعة بعضلات كما الجلاميد!...

آنئذ لحظ دجونغا قلادة ليفية تطوق عنق كاشاما فأدرك للحين سر صموده السحري بيد أنه قال له:

-لا تعتقدن أنك ستظهر علي ! أكنت تنعم بالحماية أم لا ، فسوف أقدم قلبك ضحية لأرواح جدودنا الاقدمين !

وهب يضاعف عزيمته وجهوده، رغم علمه بأنه قد تحتم عليه أن يهلك. فما أن شاهد القلادة الليفية حتى انسلخت عنه قواه الجمة، وطفق ينثني ويتقهقر، وأخذ كاشاما يظهر عليه ويتفوق. وفي نهاية المطاف، أقدم دجونغا على انقضاض مباغت أودى به إلى منيته الحمراء. فحين تخلت عنه عزيمته وجأته مدية كاشاما في عنقه بأربع طعنات قاتلة. وانبرى التمتام يهزأ ويقول:

-هاهي الدماء تنبجس وتترشش !

إنها هي الدماء التي سنرتوي منها !

أجل ! لقد أفلت دجونغا مديته وترنح ثم هوى متمرغاً بالتراب قدام كاشاما الذي لبث ينتصب كجلمود لا يتزعزع. حينئذ صمت الطبل ممسكاً عن كل رنين وكلم ...

وأقبل كاشاما إلى أمام زعيم القرية وقال:

-هوذا انتقام رجل شريف ألصقت به تهمة ظلوم من فم هذا الرجل الخبيث المنافق يا شيخنا ! ها هو قاتل ابنك يتعفر بالتراب والعار.

وإذا برجل يتقدم ويحل في منتصف حلقة القوم. وكان ذاك الرجل ويتشي وخاطب ربعه:

-هاهي الحقيقة تحق في النهاية إزاء كل بطلان وبهتان. وداعاً أيها الشيخ الجليل العظيم ! سأنصرف تواً لمزاولة طبي وحذقي في ربوع أوفر ضيافة وحفاوة وعدلاً.

لم يعرف كبير القرية أي قرار يقر عليه فقد أذهلته الحقيقة المؤلمة عن سلوك عاجل قويم. لكنه لم يلبث أن نهض عن كرسيه الخشبي، وهرع إلى العجوز الحصيف وإلى الفتى المنتصر لكي يستبقيهما في قريته وربعه. بيد أنهما قد ابتعدا فغاب خيالهما هناك عند الافق، بعيداً عن ناظريه المغرورقين بالدموع !

مبولوكو ووالدته

من الكونغو – كينشاسا

في غابات ربعنا، ثمة حيوان صغير يدعى (مبولوكو).

وما هو اسمه في اللغة الفرنسية ؟ بحسب اعتقادي، لابد أن يكون اسمه الغزال. ولكن عليكم أن تكتفوا باسم مبولوكو.

حين ولد مبولوكو لم يجد بقربه سوى والدته. فقد كانت رصاصات صياد وقد أردت والده قتيلاً. وشب مبولوكو وترعرع حزيناً. وغالباً ما كان يخالط جملة رفاقه ويلعب معهم. غير أنه، في قرارة نفسه يحسدهم، فلكل منهم أب وأم وإخوة، ما عداه، فلم يكن له سوى والدته.

ذات يوم، قال الغزال لأصدقائه:

–هيا بنا نقتل آباءنا وأمهاتنا وأصدقاءنا. وسنأكل لحومهم، ونحتفظ بما يتبقى منها للأيام العجاف الشحيحة بالمطر واللحم. أما يقول بعض الناس أن نهاية العالم وشيكة، وأن كل من يراعي والديه سيقضي نحبه جوعاً وحرماناً ؟ ...

وافق الرفاق على اقتراح مبولوكو، ولا أدري كيف ولماذا. فتفرقوا... ومضى كل واحد منهم ليقتل والديه.

أما الغزال فعاد إلى كوخه واصطحب والدته هارباً بها وخبأها في ثقبٍ «مأرضة» [1]. وكان لا بد من ذكاء قلما تنعم به الغزلان لاكتشاف هذا المخبأ.

ثم عاد أدراجه إلى منزله، وتناول جلد جدّه الذي قضى نحبه مرضاً، وقد أمسى جلده جافاً، فغمسه في الماء، ووضعه في قرعةٍ مضيفاً إليه نسغاً أحمر وقليلاً من لحم فيل طازج. وبدا الغزال وكأنه قتل والدته.

---

(١) مأرضة: عش الأرضة، وهي دويبة تأكل الخشب.

عند المساء، التحق به جميع أصدقائه وكل منهم يحمل لحماً طازجاً.

جاؤوا إليه وقد قتلوا والديهم، فجمعوا الغنيمة وأشعلوا ناراً عظيمة. ويمكنني التأكيد لكم أنه في ذاك المساء لم تقم في العالم أجمع وليمة ضخمة على غرار تلك الوليمة!

يا للأسف! لقد رعن الشبان دون أن يحسبوا للآتي حساباً. فمن سيسدي إليهم النصائح بعد قتلهم والديهم؟ ومن سيقوم بأودهم؟

عقب هذه الوليمة الرهيبة بأسبوع واحد، أدركوا جسامة جريمتهم وطفقوا يهزلون على مرأى من عيون بعضهم البعض، باستثناء مبولوكو: فقد احتفظ بصحة رائعة، لأنه لم يكف عن الشراب والطعام كما دأب على هذا فيما مضى. وكل مساء، في غمرة الرقص، كان يعتذر الغزال من أصدقائه فيقول:

-إسمحوا لي أن أترككم، يا أصدقائي! علي الذهاب لأجتني بعض الفطور لوجبة عشائي.

وينصرف ثم يعود مليء الجوف بالطعام، دون أي اكتراث ولا اهتمام، فوالدته تعدّ له الغذاء في المأرضة.

لكن الفهد- وقد هزل كثيراً، حتى إن الجميع يستطيعون إحصاءَ عظام أضلاعه-لاحظ حيلة مبولوكو ومكيدته. إذ سبق له أن ترصده وشاهده يعود دوماً من جولاته متخم الجوف بالطعام، فقرر مناجياً نفسه:

-سأترصده عما قريب لأرى ما يطعم ويشرب.

ذات مساء، إعتذر الغزال من أصدقائه كعادته، ومضى يطوف في الغابة، فتبعه الفهد. وراح مبولوكو يسلك دروباً ملتوية حرصاً منه على سره، فوصل إلى أمام المأرضة حيث ألجأ والدته، ثم رفع عقيرته بالغناء:

-يا أمي، يا أمي!

ها أنا ابنك

أنا الذي خبأتك

لأبعد عنك المنيّة !

وللحين، أجابه صوت من المأرضة وهو يغني:

-ها هو ولدي وحبيبي

الذي أنقذني من المذبحة !

هيا سريعاً إلى الطعام، سريعاً !

فالآخرون سيموتون جوعاً !

دار مبولوكو حول المأرضة وتوارى في الملجأ. وحين خرج منه، كان مبتسماً لأنه طعم وشبع. أما الفهد، فكان كامناً بين أوراق دغل خضراء، مترقباً ومتفكراً، وطفق يناجي نفسه:

-إن صديقنا خبيث جداً... خبأ والدته في المأرضة هذه، لكنه دفعنا إلى قتل والدينا. سأقوم بإحقاق الحق والعدل.

في صباح الغداة، أتى أصدقاء الفهد ليصطحبوه إلى ضفة النهر، فاعتذر إليهم:

-أشعر بأني متوعك الصحة، سأذهب لأخلد إلى النوم.

وبعد انصراف أصدقائه بصحبة مبولوكو إلى عدوة النهر، قصد الفهد المأرضة. وحين وصل إليها، طفق يغني

-ياأمي، يا أمي !

ها أنا ابنك

أنا الذي خبأتك

لأبعد عنك المنيّة !

في الحال، سمع صوتاً يغني داخل المأرضة وهو يقول:

-ها هو ولدي وحبيبي

الذي أنقذني من المذبحة !

هيا سريعاً إلى الطعام، سريعاً !

فالآخرون سيموتون جوعاً !

ودار الفهد حول المأرضة، وإذا به وجهاً لوجه قدام والدة مبولوكو فافترسها، دون أي إجراء ولا تلكؤ. ولم يترك منها سوى رأسها، فغرسه على وقد ناشبٍ في الأرض خلف الدغل، وانصرف وهو يتلمظ شدقيه شبعاً وارتياحاً.

وحين قدم الغزال إلى أمام المأرضة، رفع صوته وهو يغني، فلم يأته الجواب. وأعاد الكرة، ولم يأته الجواب، وعاود إلى غنائه ولم يكن ثمة من جواب. ودار حول المأرضة، فشاهد رأس والدته بارزاً من الدغل فصاح:

-يا أمي، إني أدعوك منذ زمن طويل.

ولكنه حين لمس هامة والدته سقطت وتدحرجت مرششة دماءها على مبولوكو، فذعر وأدرك أن والدته قد قتلت بدورها.

فبكى وبكى وبكى

وطوال سواد الليل بكى

وتدفقت دموعه جدولاً من العبرات

وجرى جدول الدموع ومضى

فانصب في مياه النهر

ولم يلبث أن غار فيها واختفى ...

جاني الخمور

من الكونغو- كينشاسا

كان لوبوبا جاني خمور النخيل يكسب أودعيلته باستقطار خمرة نخيله وبيع ثمارها . وقد دأب على الاستيقاظ حين ينبري الديك يصيح ، فينطلق إلى حقل نخيله حيث يمضي سحابة نهاره وهو يغني دونما هوادة ، فيثير بصوته وصفارته أصداء رنانة في ثنايا الهواء وأرجائه ، وتتصاعد أنغامها كل صباح وهو ينشد بصوته الجميل :

أنا العصفور يسمو ويعلو

أنا الرجل يتسلق النخيل ،

أنا جاني النخيل

أنا جاني خمور هذه الأشجار ،

أنا العصفور يسمو ويعلو !

وكل من يسلكون صباحاً دروباً أخرى ماضين إلى حقولهم فيسمعون ذاك الصوت وهاتيك الصفارة ، يعرفون أن من يغني مغتبطاً سعيداً هو لوبوبا جاني خمرة النخيل .

ذات يوم ، إنصرف الجاني إلى عمله في حقل النخيل ، حسبما دأب عليه . وسمع بغتة طيراً يغرد . وفي ظن شيوخ القرية أن الطير كان ترغلة . وإذا هي تخاطبه :

يا جاني خمور النخيل !

نسيت هنا قرطاً من ثمار النخيل ،

أنت ياجاني الخمور !

رفع لوبوبا ناظريه مندهشاً، وإذا بطير يتأرجح على ذؤابة نخلة باسقة. ولبث الطير يكرر قوله لجاني الخمور الذي أجاب مندهشاً:

-يا للعجب! عليّ أن أصعد لأرى ما إذا كان هذا الطير صادقاً أم لا ...

وتناول الجاني في الحال حبله، وقد ضفره من ليف وصنعه من سعف النخيل. وأخذ سريعاً ساطوره وانبرى يتسلق النخلة بدفعات متتالية، ولبث تغريد الطير يقوده حتى بلغ قنة النخلة حيث قال:

-وكرامة روح جدي، هذا الطير على حق! هوذا أمامي أربعة أقراط من ثمار النخيل، لم يسبق لي أن شاهدتها. حمتك الآلهة يا ترغلة!

بسرعة، أسقط بساطوره قرطين الواحد منهما تلو الآخر. وجهد يضرب بساطوره ويضرب ويعاود، فأسقط قرطين آخرين. آنئذ رأى لوبوبا عشاً كانت زغاليل الترغلة تهدل فيه آمنة، فلم يقتدر الجاني على احتواء بهجته وفرحته، فصاح:

-آه! هوذا لحم رخيص الثمن من أجل عشاء هذا المساء!

وإذا به ينتزع العش وينزل. وجهدت الترغلة لاستعادة صغارها، ولكن بدون جدوى. فالرجل هو الأقوى. فانبرت الترغلة تقرقر بألم شديد متوسلة إلى الرجل:

-يا جاني الخمور! يا جاني الخمور!

أنا من كشف لك عن هذه الأقراط

وها أنت تنتزع مني عيلتي

وإن أردت أن تشكرني

عف لي عن فراخي الصغيرة!

ودون أن يدرك لوبوبا تماماً ما يصنع، جمع أدواته وجنيه، وعاد أدراجه إلى قريته وكوخه، وما فتئت الترغلة تتعقبه حتى مدخل القرية، وهي غاضبة قافزة من غصن إلى آخر، وتقرقر بقلب كليم جريح:

-ياجاني الخمور !

بدون زغاليلي وعيلتي

سأبيت طيراً قتالاً

ولن أبقى بعد الآن

ترغلة لطيفة وديعةً !

تصام لوبوبا عن شكواها وتهديدها ووعيدها، وولج داره هادئاً مطمئناً، وأمر زوجته أن تصلح له فراخ الترغلة لوقعة العشاء. فارتعد الطير وارتجف هلعاً، إذ سمع ما سمع، فولى هارباً. وهرع القرويون يستنبئون جاني الخمور:

-ما كانت الترغلة تطلب منك وهي تلاحقك ؟

-لا بد أنها كانت تطلب استعادة فراخها التي ادخرتها لعشائي، وهي تعتقد أنها ستعيدني إلى الصواب بالابتزاز والوعيد، بينما أموت جوعاً وسغباً. ألا ليت الأرواح تمحقها !

كذا أجاب لوبوبا. وفي المساء، تناول مع زوجته وأولاده وقعة لحم من صغار الترغلة المجهزة بالأرز وزيت النخيل.

وفي هاتيك الليلة، رقد القرويون كافةً، بعد أن رويت حكايات المساء وفرغوا من رقصات الهجيع الأول من الليل. وأطبق الصمت على القرية. وعلى حين بغتة، إنقض على الأكواخ طير رهيب، وهو يصفر صفيراً مديداً مفجعاً، وقد سبق له أن ارتدى شكلاً خارقاً لا يطاله أي وصف بشري، وانبرى ينشد في انقضاضه:

-ها أنا أنتزع منكم واحداً

في هذه الليلة الليلاء !

ها أنا أنتزع منكم واحداً !

سمع الترغلة جميع القرويين. ومن ثم، هفا الطير الرهيب وطار...

وفي صباح الغداة، رزىء منزل جاني الخمور برزيئة مفجعة رهيبة، فقد مات بكر أولاده، خلال الليلة المنصرمة. فتصاعدت صرخات البكاء والعويل، كما بدأت الاستشارات في كوخ العرّاف. وفي نهاية المطاف، واري القوم الفقيد في تراب القبر عند حلول الغسق، بينما لم يكف لوبوبا عن تمتمته بصوت خفيض:

-لعلها هي تلك الفراخ، فراخ الترغلة! ...

وعقب انقضاء يومين، وتحت جنح الليل، عاد الطير المروع الذي تكتنفه الاسرار وأنشد كما فعل من قبل:

-ها أنا أنتزع منك واحداً ! ...

وفي الغداة، عادت المنية بكرة إلى منزل جاني الخمور وأهلكت ولده التني، وعاود لوبوبا يتمتم بحزن عميق:

-إنها، ولا شك، تلك الفراخ، فراخ الترغلة ! ...

وفيما بعد بأسبوع واحد، إنثنى الطير المشؤوم يحلق فوق القرية، وأنشد المزيد من أناشيده. وعند انبلاج الصباح، فاضت روح رجل في أسرة مجاورة لجاني الخمور.

ومنذ ذاك الزمان، كما أقر لنا شيوخ القرية ووجهاؤها، تحتم أن يموت واحد من الربع، كلما رجع الطير الرهيب إلي القرية في أي هجيع من الليل.

وإلى هذا الحين، لا يزال الطير القاتل يعود لاستيفاء الضريبة التي تدين بها القرية من جراء افتقاد لوبوبا لتبصره وبسبب تصرفه الطائش !

وفي كل ليلة، حين يتعالى صفير طير الشؤم مديداً ثاقباً أديم الصمت والسكون، يتساءل كل قروي على أية أسرة ستنقض نغمته القاتلة. وفي الغداة، يكون الطير قد كرر ضربته المهلكة.

الجدي والأسدُ والظبي

من الكونغو - كينشاسا

منْذُ أن ظفر إبنُ ربِّ العمل بميراث والده الفقيد، كان الجدْي يتعرَّضُ لكل ضُروب الإهانة عقبَ وفاة مُعلّمه. فشعرَ أن عُمر تقاعده عن العمل قد أزف أو كاد. . . ، وأن يوماً وشيكاً سيأتي يقومُ فيه عبد من عبيدِ إبن رب العمل المرحوم بحزّ عنُق الجَدي فيُهلكهُ.

وأدرك الجدي أنّ الفطْنةَ الحكيمة تَحثُّه على أن ينْصرفَ إلى الأدغال، فيعيش ثمَّة حياة انعزال يعمُرها الحزنُ والأسى، بيد أن أيامه ستمضي هناكَ في ملاذٍ من كلِّ همٍّ ومُخاطرةٍ. وطفق يُسِرُّ بحقٍّ إلى نفسه بمايلي:

- سأنعم هناكَ بكلِّ ماترغبُ فيه نفسي من عُشْبٍ نضرٍ وأوراق أشجار يانعة. فهل يمنحُوني هنا، في منزل معلمي المرحوم، أكثر من هذا؟ . . لا! لنْ تلحقَ بي من بعدُ مُشاكسات غيرة العنزات وثغاء الجديان، ولن يطالَني من بعدُ الازدراءُ، ولا الاحتقارُ، ولا الشتائمُ التي يَسُومني بها كلُّ قنٍّ من أقنان مُعلّمي الجديد.

وذاتَ مساء، بالتالي، لم يمثُل الجديُ عندَ نداء التفَقد، وتلبّثَ متوارياً وراءَ كثافة من خمَرِ أشجار الريف[1]. وثمَّ، كانت رائحتُه على وشَك الكشف عنهُ وإلحاق الأذى به، إلا أن الكلبَ الذي تعقّبه إلى ملاذه تظاهرَ بأنه لا يراهُ لأنه كانَ صديقهُ الأمين.

في اليومِ الأول من هرُوب الجدي، جرت الأمور على مايُرام. وطعمَ شبَعهُ من أعشابٍ طريئةٍ تنبتُ في أعقاب حرائقِ الادغال، بين جذوع ما احترقَ منَ

---

(١) خمَر: كل ما يسهم في مواراة الانسان، من شجر وغيره ...

القَصب. ولذّتْ للجدي صحبةُ الظّباء وأفراسِ الأنهار. أما كانت لحيتُه الطويلةُ، وقرناهُ المُحلَّقان، توحي إلى هؤلاء الرفاق الجُدد بذرةٍ من الاستغراب والدهشة؟

وانتهى الأمرُ بهؤلاء الرفقة الجدد إلى تَبَنّي هذا الجدي العجوز الظريف وتمّ الاجماعُ على أنّ هذا النزيلَ الجديدَ بوسعه أن يرعَى في مراعيها بسلامٍ وطمأنينةٍ. . . وذات يومٍ سألَه كابولوكو الظبي بوقاحةٍ:

- لماذا تَدَعُ لحيتَك تطول كلَّ هذا الطول؟

- عمَّ تتحدث، ياظبي؟

- بالتأكيد، لا أتكلم عن ذنبك.

- تبّاً لي! إيْ نعم! نَذرتُ الاحتفاظَ بكلِّ لحيتي إلى أن يكفَّ الظباءُ عن كلِّ فضوليةٍ نافلةٍ.

كذا أجابَ الجديُ الحكيمُ، فرأى الظبيُ أنَّ الاحترازَ من هذا النزيلِ الجديد أمرٌ لامناص منه، سيّما وأنه أمضى طوالَ حياتهِ بين بني الانسان. ثم انثنى الظبيُ يُناجي نفسه:

- مهما يكنْ من أمرٍ، هذا الجديُ حَيوانٌ مُتطورٌ، وقد برهنَ لي عن تطوُّرِه بإجابته!

* * *

صرَفَ الجديُ سوادَ ثلاث ليالٍ أولى في العَراءِ، ولم يكُ ثمّةَ ما يُبعدهُ عن هذا الامر حتى منتصف الليل. ولكنْ، بعد هذا الهجيعِ، يميل الطقس إلى البرودة والضباب الكثيف القرُّ يكتنف جلده ويهطلُ عليه المطرُ من كل صوب. إذاك ينتابُ الجديَ العُطاسُ والسعالُ، ويبرد شدقاهُ وتتجمَّدُ قوائمهُ، ويخضلُّ وبَرهُ، فتنبَري لحيتُه الشائبةُ تقطرُ بالمطرِ فتنكمشُ وتذوي.

ساعتئذٍ، يشعَر الجديُ أنّه عُرضةٌ لمخاطر سباع الدغل الكاسرة التي قد تتمكنُ من الانقضاضِ عليه. فلا بدّ لهُ من العثور علَى ملجأ آخر مهما كلَّف الأمرُ. وراحَ يسعى ويبحثُ. وبعدَ جُهدٍ جهيدٍ، بَصرَ الجديُ بشقّ واسعٍ في صخر

الجبل، فولجهُ. وكانت عيناهُ، باديءَ ذي بدء، مبهورتين بالضوء الساطع خارجَ المغارة، ثم انبرت عيناه تتأقلمان شيئاً فشيئاً علّى غبش [1] المغارة، ولم يكن الامر سهلاً عليه.

وبعد حين يسير، كان لزاماً على الجدي الاعتراف بأنّ الحيوان الرابض في أقصى المغارة لم يكن إلا أسداً هائلاً يتمتع بتمام القوة والحيوية. يا للحظ السيىء! إي نعم! كان حظه سيئاً رديئاً!

فتساءل الجدي: ما العمل ؟؟ هل يعود أدراجه ويولي الادبار بأسرع ما في طاقته ؟؟ يا له حقاً من جهد باطل! فهل لجدي عجوز داجن من الرشاقة والخفة ما لوحوش الادغال الزاخرة بالقوة ؟؟ ولئن ولى هارباً، أما يلتحق به الاسد بقفزتين أو ثلاث فيهصر قذال عنقه هصرة واحدة بمخالبه الذربة المسننة ؟ ...

فتحتم على الجدي أن يتبذخ ويتبجّح إنقاذاً لنفسه، سيما وإن لحيته المتميزة تثير الاستغراب والهيبة في جميع الحيوانات ... أليس بمقدوره اللجوء إلى تلك الوسيلة لكي يفرض رهبته ويدلل على جرأته ؟؟ ... وإذا الجدي يزدلف إلى الأسد الرابض، وكأنه قد وفد خصيصاً للتحدث إليه، فقال له:

-حسن! ها أنا أعثر عليك أخيراً، وقد تأخرت بعض الحين

أما الأسد، فاستحوذت عليه دهشة شديدة من هذه الثقة العظيمة بالنفس، ومن كذا صفاقة وقحة. فتساءل ما قد يكون هذا الحيوان المتصب أمامه بعثنونه الغريب. وارتعدت فرائص الليث فأخذ يتوسل إلى الجدي الذي واجهه، حتى أوشك أن يبلغه. وانبرى الأسد يقول متلعثماً:

-أرجوك! لا تلحق بي الأذى!

توقف الجدي متنازلاً، فسأله الأسد:

-من تكون أنت بهذه اللبدة المتدلية من ذقنك ؟

-أنا أحد سادة الدغل العظام. وهذه اللبدة التي تشاهدها متدلية من ذقني، نذرت ألا أحلقها إلا حين أفرغ من افتراس (٢٠٠) فيل، و(١٠٠) فهد، و(١٠)

---

(١) غبش: اختلاط النور بالظلمة.

أسود. أما الأفيال، فقد بلغت العدد المنشود منها، وقد طعمت من الفهود واحداً فوق الحساب. أما الأسود، فها أنا أباشر اليوم بها. وحالما أنتهي من تمزيق عشرة أسود بقرني جبهتي المنتصبين قدامك، سأنعم بكل الراحة والرضى. ويومئذ يتيسر لي أن أقص لبدتي. فهل تريد أن تكون أول أسد أفترسه اليوم ؟

كان التهديد صريحاً مباشراً. فتحتم على ملك السباع ألا يتلكأ. فإن خطا الجدي إليه خطوة واحدة أخرى، لا بد أنه سينقض عليه ويفترسه. وانخلع قلب الليث رهبة وذعراً، وارتدى لون سحنته شحوب الرماد، وانتفضت لبدته، ولم يجد في ذاك المأزق سوى وسيلة الفرار عبر منفذ آخر للعرين، من حيث كان يصرف عظام طرائده وجلودها. وشعر سيد الادغال بذلّ فراره ومهانته. ولكن، في ما يجل من المخاطر، يفقد الذل سمته المخزية وكونه محنة لعزة النفس، إذ يعتبره الناجي بنفسه الثمن الذي يؤديه للنجاة والسلامة.

* * *

فيما كان الأسد يولي هارباً، إلتقى الظبي كابولوكو الذي شُل لسانه عن الكلام إزاء ما بدا على ملك السباع من الفزع وشعث اللبدة، فقال له:

-ما بك؟ ترى ما الذي يستفزك فتعدو بهذه السرعة الخاطفة وهذا الهلع المذهل ؟

- دخل وحش عريني ! و-ح-ش ها-ئل م-خ-ي-ف تتدلى لبدته من ذقنه ... هل تدري ما قال لي ؟ «إفترست (٢٠٠) فيل و(١٠٠) من الفهود، ونذرت ألا أحلق لحيتي (وهذا هو الاسم الذي يطلقه على لبدته المتدلية من ذقنه) إلا بعد أن أفترس (١٠) أسود. فهل تريد أن تكون أول أسد أفترسه ؟» ... ولم أحظ على سلامتي إلا بالفرار والهرب السريع منه ... فلا تسألني المزيد من الأسئلة ! ... لعل هذا الوحش لا يزال يتعقبني ... والله يعلم إن كان بوسعه أن يفترسني بلقمتين حين يدركني ويربض عليّ...

هذه الرواية الموجزة لكل ما حدث للأسد لم تذكر الظبي كابولوكو، في الوهلة الأولى، بهيئة الجدي الوادعة، وبذاك الجدي الذيَ خاطبه منذ بضعة من

الأيام. ولكن، بشيء من التفكر والتمعن إستذكر الظبي كابولوكو أمراً غريباً، ألا وهو «اللبدة المتدلية من الذقن». فقبض على ذنب الأسد قائلاً له:

-لحظة واحـدة، من فـضلك ! ألم ينبت لهـذا الوحش الرهيب قـرنان، محلقان على جبينه ؟

-أوشكت أن أنسى قـول ذلك. إي نعم ! له قـر-نا-ن م-خ-ي-فـان، وعينان تخلعان القلب رهبة، وله ظلف في نهاية كل من قوائمه.

-وهل يدعوك كل هذا المظهر إلى الفرار السريع بعيداً بعيداً عن عرينك، خوفاً وفزعاً ؟

وشرع كابولوكو يقهقه قهقهات مدوية فأغضب الأسد وأغاظه. ثم نظر محدثه نظرة دعت ملك الادغال إلى أن يسترد شعوره بحقيقة الأمور. واستطرد الظبي بقوله:

-يا مولاي ! إحتراماً لجلالة عاهل الغابات أرجوك أن تسترد الآن كامل حواسك السليمة. فالحيوان الذي شاهدته فأرعدك هولاً وهلعاً، ما هو سوى جدي عـجوز إنه جدي داجن، وجدي تافه أَبِقَ من مُعلّمه، لأنه شاخ وهرم فاستحق أن يحزوا عنقه ويطعموا لحمه.

-هل أنت واثق تماماً مما تقول ؟

-إي وحياتك يا مولاي ! وذات يوم دفعته إلى الاعتراف بأنه جدي جبان وحسب، وقد يصلح ليكون فريسة لابن آوى أو لكلب عسبور [1]. وإذ هزيء بجلالتك، فهذا الجدي خليق بعقاب وجيع أليم... هيا بنا ! تفضل لنعد معاً إلى عرينك، ومن المؤكد أننا سنعثر عليه قابعاً هناك.

***

ها هو الأسد يعود أدراجه، وقد أنعشت أقوال الظبي كوامن إقدامه الملكي. وطفق ذنبه يتأرجح على كفله بمسحة من التلذذ بمتعة الثأر الذي سيثأره هو بعينه من ذاك الحيوان المقيت الملتحي بلحية مديدة متطاولة.

---

(١) عسبور: ولد الكلب من الذئبة.

وبرغم هذا، أفسح الليث المجال لكابولوكو لكي يلج العرين قدامه ... وإذ شاهد الجدي المسكين أن الأسد يعود وبصحبته رفيق من رفاقه، تيقن أن الظبي قد تآمر عليه وأضمر له خيانة مقيتة. فالجميع يعرف هذا الحيوان الذائع الصيت بخبثه في كافة الادغال، فهو من يعثر على حلول لجميع المشكلات السياسية، وهو المهرج الذي يفتقد كل رصانة والذي لا يثوب ولايتوب. أليس هو من يخترع أنعم التوابل وأشهاها في مطابخ أقطاب نزلاء الاحراج والغابات ؟

آنئذ، إنبرى الجدي يأسف على أيام آمنة أمضاها بين ظهراني الآدميين. بيد أن الخطر غدا ملحاً داهماً، كيما يتوه في مثل تلك الاعتبارات والتأسفات. وما يسترعي الآن أقصى اهتمامه إنما هو استرداد كل ما يستبطنه من طاقة وحيلة ودهاء!

وإذا بالجدي يصيح بغتة ويزدلف بتؤدة إلى كابولوكو مواجهة، دونما مواربة، ويزعق به زعيق السخط والغضب:

-ما هذا؟ ! أبهذه الطريقة تطيع ما أمرتك أن تفعله ؟ ألم آمرك بألا تأتيني بأسد واحد بل بعشرة أسود ؟! ... سأجازيك على إهمالك وافتقاد إخلاصك لطاعتي! ...

أما الليث، فلم يصغ إلى المزيد من ذاك التهديد والوعيد. وإذ ساوره الشك في أن كابولوكو قد أوقعه في شرك الخيانة القاتلة، إنثنى يعدو مولياً، متيقناً من أنه قد أتيحت له نجاة ثانية من ذاك الوحش الملتحي الرهيب الذي سبق أن نذر نذراً صريحاً بأنه سيفترس عشرة أسود قبل الإقدام على حلق لحيته المديدة المتطاولة ... أجل، لقد ولى الليث هارباً ولا يزال ...

إمرأة تتفوق
على أبطال

من بلاد هاوسافي نجيريا

تزوج «سيراني كوروسامبا» (سامبا) [١] إمرأة من قرية «توماكورو». وانطلق، ذات يوم، مصطحباً زوجته إلى هذه القرية بغية زيارة حميه وحماته. وركبت المرأة على ثور حمل وجر. أما الرجل فامتطى جواده، بعد أن وهب زوجته عبداً ليحمل لها أمتعتها. ووصل المسافرون إلى «توماكورو» حيث مكثوا ثلاثة أيام. وقد سبق لوالدي الزوجة أن أعدا جعة جمة من العسل. وطفق جميعهم يطعمون ويشربون، ولم يكف «سامبا» عن السكر كل يوم. وعند انقضاء الزيارة، قال لزوجته.

-ها هو يوم العودة إلى ديارنا. هيا! تقدميني على ظهر الثور واصطحبي عبدك. أما أنا، فسألبث بعض الحين لأني أرغب في احتساء البقية من جعة العسل هذه الطيبة، ولن أتأخر مطلقاً عن اللحاق بكما عند الظهيرة. هيا اركبي ثورك وارحلي قبلي مع عبدك الأمين.

راحت الزوجة تسلك طريق العودة وعبدها يلازمها.

وفي ذاك اليوم عينه، مضى سبعة وستون بطلاً من جبابرة قرية «سيحو» عائدين إلى ربعهم، عقب جهود مضنية في إنجاز عملية سطو ونهب. بيد أن الحظ ناصبهم العداء، فارتدوا إلى قريتهم خالي الوفاض، وقلوبهم زاخرة بالأسى والانقباض.

---

(١) سندعوه (سامبا) فقط.

كـان بين أولئك الرفـاق أشـهـر جـبـابرة البـأس في العـصـور الخـاليـة بتلك المنطقة، أمثال «ماسياسي دياري»، و«بوسو مامادو أمادو»، وغيرهما... وبخاصة «بيجانا» الذي أطلق عليه اسم «دجالي»-أي الموسيـقي- . ويروى أن هذا الاسم أطلق عليه نظراً لعزفه على قيثارته وهو ينشد ويغني، ولاستجدائه الهدايا على غرار عدد وفير من أولئك الشعراء الموسيقيين الذين يضربون في الأرض سعياً إلى كسب المال والهبات . وإن اتّفقَ أنْ وَعدَ أحدُ المُعجبين «دجالي» الموسيقيَّ بهدية ما، أخذ يقُرفص في الغداة لدى الباب، منتظراً أن يُهدى ما وُعدبه . وكان الموسيقيُّ «دجالي» متُحلّياً بصبرٍ جمّ، وعنادٍ لايعرف التخاذل .

في ذاك اليوم بعينه، كان لصوص «سيجو» السبعةُ والستون يسلكون طريقهَمُ والنَّهَمُ يحدو بهم إلى أيةِ مغامرةٍ جديدة مُجدية تُتيح لهم بعض العزاء، فلايعودون بخفّي حنُين . وفي هاتيكَ الغضونَ نظر أحدُ الحبابرة إلى العبيد وقال :

- أُوهْ، أُوهْ! عسـاه يكون رجلاً يرتحلُ على دابّة حـملٍ ذاك الانسـان الذي يسعى مقترباً من هنا!

وألقى الابطالُ الآخرو ن نظرهم إلى البعيد وقالوا :

- لا، ليس برجلٍ من يجلس على الدابّة بل إمرأة، والأكـيـدُ أنهـا جـمـيلة وثريّة، فثمّة عبدٌ يسير إلى جانبها .

واقترح بضعةٌ منهم :

- سندلّ هذه المرأة على طريق قريتنا «سيجو»، لتتعلم بذلك كيفَ تتعرّفُ على الناس .

- من المحتمل إذن أنّ حملتَنا التعسة مقبلةٌ على نهايةٍ ممتعة جداً!

كذا قال الآخرون . وانطلق اللصوصُ السبعة والستون إلى زوجة «سامبا»، واقتربوا منها، وتحلّقوا حولها، فصاَحت بهم :

- أيّ قطاع طرق أنتم؟! أيّ صعـاليك سُـوقـيـيّن أنتم، لكي تجـرؤوا على التعرّض لامرأة شريفة!؟ . . أما تخجلون، في حضرةسيدة وفي وضح النهار، من أن ترُاودكم أفكارُ السلب والنهب؟ إني أدركُ جلياً مايدور في خاطرِ كلٍّ منكم!

إستولت الدهشةُ على أولئك الجبابرة. إلا أن أحدهم خاطب المرأة بسؤاله:

- ياامرأة، كيف تجرؤين على التحدث كذا إلى أنبل أبطال «سيجو» السبعة والستين؟

- آه! لاريب أنكم أبطال عظماء لكي تتجرأوا على ماتفعلون حيالَ امرأة. لكن انتظروا قليلاً حتى يأتي زوجي. فسوف يُصيّركم «تُضرّطون» خوفاً وجزعاً. آنئذٍ سترتعد فرائصكم قدّامي.

وإذا بالموسيقيّ «دجالي» ينقرُ أوتار قيثارته ويقول:

- إنْ لم تكن جُرأةُ زوج هذه الإمرأة جديرةً بها، فلا بدّ، أقلّه، أن نتغنى بهذه السيدة الذلقة اللسان... ياأمرأة، مَنْ يكون زوجُك؟

- من هو زوجي؟! أهذا هو سؤالك؟ أتريد حقاً أن تعرف من هو؟ حسناً!... إذهبوا واختبئوا مع أحضنتكم الصغيرة في جحور فئران الحقول، وفي أعشاش طيور الأشجار، وامكثوا ثمة بحذر وسيكون هذا أفضلَ ما تفعلون للتعرّف إلى زوجي، دون أن تجازفوا بأنفسكم ولئلا تطأكم سنابكُ جواده المُطهّم.

إذّاك، قال «ماسيّاسي دياريّ» أحد أولئك اللصوص:

- ياامرأة! عليك مهما كلف الامرُ، أن ترافقينا إلى «سيجو» قريتنا، كيما يتسنّى للملك أن يُشاهدَ مخلوقةً خارقة الخصال مثلك فهل سبق لإنسان أن سمع يوماً عصفُوراً نظيرك يُهدهد ويغرّد؟ هلمّي معنا إلى «سيجو».

- هيّا انصرفوا من أمام وجهي فها هو زوجي يأتي من هناك. وإني لأراه ثملاً، وقد يغدو الأمر وبَالاً عليكم أجمعين. هيّا انجو بأنفسكم، فقد يكونُ من المساس بكرامتكم أن تجازفوا بارتباكات مُذلّة لرُجولتكم، أنتم الجبابرة المغاوير، يامن تُرهِقون في وضح النهار إمرأة ليست بصَحبةِ زوجها. هيّا انقلعوا عنّي، فها أنا أرى زوجي قد أخذت فيه الخمرُ فثمل.

- لابدّ أن يكون بعلُك بطلاً غريب الاطوار! قولي لنا إن كان إلهاً أم ضبعاً!...

- إن اختفيتم في جُحر فأرة فسيبدو لكم إلهاً، وإن تواريتم في عُش عصفورٍ، فعساكم ترونه ضبعاً، يارجالاً قلّت نباهتهُم وافتقدوا عاقلتهم.

كان زوجُها يمتطي جوادَه مُقترباً بآيةٍ من الرفق والتأني. وما أن سمع جلَبة الشجار حتى اشرأبّت عنقُه، وتنحّى اللصوصُ، ونظروا إلى الفارس وهو يسعى الهُوينى إليهم، وقد تعذّر عليه أن يستوي بوقارٍ على سرج ركُوبته، لشدّة ماتسلّط عليه من سوَرة جعة العسل غير أنه تناول بندقيتهُ وأطلق طلقة في الهواء يُمنةً، وثانيةً يُسرةً وثالثةً أمامَه.

وأخذ يُدخّنُ غليونه، وينفث نفثاتٍ ضخمةً، وهو يُخاطبُ جبابرة «سيجو»:

- تباً لكم من رجال مزُعجين مُضايقين!...

إذّاك انقضّ عليه أحدُ الجبابرة، وأطلق عليه النار فأخطأه. أما «سامبا» فجندل المهاجمَ بطلقةٍ أطلقها دون مبالاة. وانبرى بطلٌ ثانٍ يطلق على الزوج النار. فسدّد إليه «سامبا» فوهة بندقيته فأرداه قتيلاً، وسقط عن صهوة جواده فهوى أرضاً. ولقّم زوجُ المرأة بندقيتهُ وسدّدها إلى مهاجمٍ آخر فأصابه. وفعَل كذا بثالثٍ ورابعٍ ولم يُخطئهما. فراح جبابرة «سيجو» يُولّون الأدبار.

وهمزَ «سامبا» مطيتَه ونخسها في إثرهم، فأسر ثلاثةً منهُم. ثم استؤنفت المعركة إذ ارتدّ عليه العديدُ من لصوص «سيجو» وهم يطلقون النار عليه. أما الموسيقي «دجالي»، فانهمك بالعزف على قيثارته وانبرى يُنشدُ مايلي:

- ياجبابرة «سيجو»! لاتنَسوا مجد أسمائكم! ياأبطال «سيجو»! لاتنسوا أنكم ستّونَ، ولئنْ سمَّمَكُم فمُ امرأةٍ وسعي الناسُ إلى ذبحِكم! لاتَنسوا أنكم حقاً أبطال، ياجبابرة «سيجو» أنتم الستين!.. (1)

أما بطل «كالا» الزوجُ المقدام، فانهمك بتعقّب اللصوص المنهزمين. وعلى حين بغتةٍ دنا الموسيقيُ «دجالي» من المرأة فقال لها:

١- يسعى الموسيقي الى بث الشجاعة في قلوب رفاقه الابطال.

- كيما يتغنّى الربعُ بهذه المعركة، كما يجدرُ بها ويليق، لابدّ من مُوسيقيّ. فهؤلاء الفارّون سينصرفون تماماً عن إثارة ذكرها والحديث عنها وعندما يتغنى الموسيقي بهذه الحادثة، فالمرأة الباسلة التي تعرّف إليها والتي يرومُ التغني بها ستكون قد ابتعدت كثيراً ولن تستطيع أن تُتحفه بهدية لائقة.

وإذا بزوجة «سامبا» تُملّصُ أحد الخاتمين الذهبيّين الوازنيْن من إصبعها، وفي الحين نفحَت «دجالي» به!

وعاد الزوج مصطحباً أسراه الثلاثة عنوة، واستأسرهم لامرأته وحذرهم قائلاً

احترزوا أن تسقط زوجتي عن متن ثورها مذعورة حين تشاهد وجوهكم المخيفة إلى جانبها!

من ثمّ، استأنفوا مسيرتهم قافلين إلى ديارهم.

وكان «دجالي» الموسيقي قد التحق بصحبة المنهزمين.

وبعد أن تجمّعوا تحت ظلال شجرة وارفة وقعد قربَهم يبظّ أوتار قيثارته وينقرها قائلاً: «واحدٌ... ستون!». ونظر إليه الابطال الجبابرة وقال له أحدهُم:

- لن تروي للملك ماجرى لنا، أليسَ هكذا؟

وتناول الموسيقيُّ الخاتَمَ الذهبيَّ هديةَ زوجة «سامبا» فعلّقه على عنق قيثارته وطفق يبظّ أوتارها مُردّداً: «واحد... ستون!» فانسحب زملاؤهُ الابطال متوارين خلْفَ الشجرة، فخاطبهم «ماسيّاسي دياريّ»:

- إن «دجالي» يعني بكلامه أن بطلَ «كالاّ» كان وحده إزاء ستين. وسوف يسرد ما حدث بالتأكيد على الملك والربع جميعاً.

-يعني أنه ظفر بخاتم من زوجة جبار «كالا» لكي يتغنّى بها، ويعني أننا ستون وأنه سيلوذ بالصمت إن أعطيناه ستين خاتماً ذهبياً.

كذا كانت محادثتهم. وبعد أن تداولوا وتشاوروا، رجعوا إلى «دجالي» فقال له أحدهم:

- سيهبُك كلٌّ واحد منّا خاتماً ذهبياً، حال عودتنا إلى «سيجو»، على أنّك لن تنطق بكلمة واحدة أمامَ الملكِ والقوم عن كل الشرّ الذي أوقعه بنا جبّار «كالا».

- هل ستفعلون هذا فور عودتنا الى ديارنا؟

- إيْ نعم! سنفعل!

وحينما انثنى الابطالُ إلى «سيجو» قال الملك:

- هل في أفواهكم بُشرى حسنة؟

- أجل! فقد نظّفنا الدارةَ كلّها، وقامت حُزمةٌ من القش بتكنيس كلِّ طفيليّ فيْها.

كذا أجاب «دجالي» الملكَ. فقال العاهلُ إنه لا يفهمُ. فسأله الموسيقيّ

- هل تعرف أغنية «واحد . . . ستون»؟

- لا، لا أعرفها.

- إنها الأغنية التي يُغنّيها ربعنُا في كل مكان...

برَّ بعضُ أبطال «سيجو» بوعدهم، وأعطوا «دجالي» بعض الذهب. أما الآخرون فأخلفوا بما وعدوا، وحين كان الموسيقيُّ يلتقي أحد المَدينين لهُ، يأخذُ بنقر أوتار قيثارته ويغني: «واحد . . . ستون!» وإن تظاهر المدينُ بأنّه يجهلُ فحوى الكلام، سأله «دجالي» قائلاً:

- هل تعرف المرأة التي تتغنى بأمور غريبة؟ وهل تعرف من هزم بعض الابطال إلى داخل جحور الفئران، والآخرين منهُم إلى داخل أعشاش العصافير، وهل تعرف من هو إلهٌ في رأي البعض، ومن هو ضبع في رأي الآخرين؟

واضطر جميع اللصوص إلى بذل المال، الواحدُ منهم تلو الآخر، بل دفع بعضُهم المال عن صديقٍ قضى نحبه، أو عن رفيقٍ حبيسِ السجون. ولم يمض زمن طويل حتى حاز «دجالي» ستين خاتماً ذهبياً.

سمع العاهلُ من هنا وهناك نُتفَ الاخبار عن هاتيك المعركة الزريّة فاستدعى الموسيقيَّ وأمَره قائلاً:

- هيّا، إرو لي هذه الحكاية بأكملها!

- لابد لي أَولاً أن أتحدث إلى رفاقي وأن يمثلوا بحضرتك.

كذا فعل الرفاقُ جميعهم عند المساء، غير أن الموسيقي سبق له أن علّق على قيثارته الخواتم الواحد والستين. ساعتئذ سأله المليك:

- ماهي الاغنية التي حدثّتني عنها؟

- هذه هي يامولاي: «واحد... ستون»! ألم يقطع الرجال وعداً بأن يهبوني هذه الخواتم الذهبية؟ ألم يتلكّأوا؟ ألم يثُيروا صعوباتٍ عديدة؟ ألم يأتمروا ويتشاوروا تحت ظل شجرة وارفة؟

وعقب هذه الإجابة، تناول «دجالي» قيثارتَه ونقر أوتارها وانبرى يُغني:

- أُغنّي بحضرة عاهلٍ عظيم. وهل سيَمنحُ ملكُنا المُغَنّيَ المسكينَ ستين خاتماً ذهبياً؟

فأوعز الملك بإحضار ستين خاتماً ذهبياً ووهبها للموسيقي. وهكذا غَنم «دجالي» مئة وواحداً وعشرين خاتماً من ذهب. وراح يتغنى بقصة «سامبا» والستين جبّاراً من «سيجو».

وعقب ذلك، شرع الموسيقي «دجالي» يتغنى بقصة «سامبا تاسَمْبا» وإليكموها:

كان «سيراني كورو سامبا» يُقاتِل إلى جانب أخيه الاصغر «سامبا تاسمبا». وعلى حين بغتة قتل قُطّاعُ الطرق جواده، فخرّ صريعاً على الارض. فصاح «سامبا تاسمبا» قائلاً لأخيه البكر:

- هيّا! إقفز على فرسي رديفا لي!

- كلاّ! أموتُ ولا أركب رديفاً مثل امرأة!

كذا أجاب «سيراني كورو سامبا»، فتوسل إليه شقيقهُ الاصغر ثلاثاً أن يردفَه على ركوبته، فأبى أخوهُ البكرُ ثلاثاً. ولكن، حينما أغار الاعداء مُقتربين منهُما، أخذ «سامبا» برأي أخيه، فنشط قافزاً على مطية شقيقهِ الأصغر ونجا بنفسه رديفاً له.

وهكذا تسجَّلَ اسمُ «سامبا تاسمبا» هو أيضاً في أُغنية الموسيقي «دجالي» الذي ذاع صيتُه وترامى الى البعيد.

الوالد وأبناؤه الثلاثة

من الكونغو - كينشاسا

أنجب رجل ثلاثة أولاد، وعُني بتنشئتهم وتدريبهم على الحدادة مهنته، كما علمهم استقطار خمر النخيل، وهو فن سبق له أن أتقنه وحذقه، علاوة على بناء المنازل الزنجيقية [1]، إذ ينبغي لكل امرىء أن يعرف كافة هذه الأمور المجدية.

وحين بلغ أنجاله عمر الزواج، عقد قران كل منهم على زوجة صالحة، مستعيناً بأقاربه. وانصرف كل من أبنائه الثلاثة إلى قرية مختلفة، كيما يحيى فيها، وينجب الأولاد، حسب رغبة الاجداد الأقدمين.

وأجمع القوم على أن هذا الوالد قد أحسن التصرف حيال أبنائه الثلاثة. أما هو فلم يرض بسهولة بما صنع لهم. فصمم ذات يوم أن يمضي لزيارتهم، الواحد تلو الآخر.

قال لزوجته: أعدي لي مزود سفري فأنا ذاهب لأتفقد أحوال ولدي البكر. وانطلق فعلاً لزيارة بكر أولاده.

وما أن شاهد البكر أباه، إستذكر كل ما أنعم عليه أبواه من منات وجميل التصرفات. فبادر يبسط على الأرض جلد غزال وأجلس عليه أباه بطريقة تليق بكرامته. ثم أخذا يتجاذبان أطراف الحديث.

غير أن الهواء كان ثقيلاً، وتراكمت دواكن المزون والغيوم الماردة عند الأفق، وانبرى هزيم الرعد يهدر بغتةويقصف. فقال الابن:

---

(١) زنجيقية: زنجيقية إفريقية.

-هاهي العاصفة آتية، ولا بد أن أضعك في مأمن منها.

وحيث أن الحديث قد أمسى فاتراً بينهما، دل الابن أباه على كوخ لم ينجز بعد منه سوى هيكله، ولم يكن على هيكل السطح أية حزمة من أغصان ولا قش. وحين وهنت شدة الرياح ولانت، أخذت قطرات ضخمة تتساقط، ثم انهمر وابل من الأمطار. وعلى نحو عجيب لم يلحق البلل بالوالد، رغم أنه افتقر إلى أية حماية، فلا سطح يقي الكوخ ولا سقف. وعلى أن الإعصار كان متناهي الشدة والعنف، لم تتلوث ثياب الوالد بأية قطرة من شآبيب الامطار المنهمرة.

ثم انجلى جلد السماء وصحا. وإذ كان النهار في بداية ضحاه، هم الوالد باستئناف رحلته قافلاً إلى قريته. وحيث أن الحيرة قد استولت عليه مما جرى له، طفق يفكر وهو يعود أدراجه ويتساءل: «بأية خدعة توخى بكر أولادي أن يخدعني ؟ أدخلني كوخاً لا سطح له ولا سقف، وبرغم هذا لم تبل الأمطار ثيابي! ...»

لم يولِ الوالد هذا الأمر اهتماماً بالغاً.

وعقب مضي بضعة أيام، تناول رمحه ومزود ترحاله، ومضى إلى قرية ابنه الثني. وما أن تعرف الابن إلى والده من بعيد حتى هرع إليه وأدخله فناء داره، وبسط له حصيرة وسيعة فسيحة من حصائر بلدته وجلس كلاهما عليه جلسة رفاه وراحة. وروى كل واحد منهما على الآخر القصص والاخبار. وبعد حين يسير، تظاهر الوالد بالإنصراف، فقال له ثنيه:

-لاتذهب هكذا سريعاً! أود استخراج قليل من خمر النخيل لكي ترطب جوفك.

وللحين، تناول شبكة صيد كبيرة، وتسلق أشجار النخيل، وأفرغ في الشبكة، ست أو سبع قرعات متتاليات من الخمرة الجيدة، دون أن تتسلل قطرة خمر واحدة من خلال تفاريج شبكة صيد السمك

وإذ أنعم الوالد نظره في الشبكة الطافحة بالخمر تولى العجب قرارة نفسه فقال:

-يا للغرابة ! يا للعجب العجاب !

لكن الوالد لم يفض بشيء إلى ولده. ونهض يودعه وقد رطب جوفه بخمر النخيل الطازجة فاستأنف مسيرته منكفئاً إلى داره.

وفيما كان سائراً، تساءل الوالد عن حقيقة الحيلة التي توخى ثنيه أن يحتالها عليه، إذ جمع في شبكة الصيد خمرة النخيل اللذيذة فقدمها له شراباًممتعاً.

* * *

بينما راح الوالد يعمل الفكر فيما جرى، سلك تلقائياً الطريق إلى صغير عيلته. وخف طبعاً هذا الابن إلى لقاء أبيه. وحين رحب به داخل المنزل، فرد له حصيرة جميلة من حصر المحلة، وأجلسه عليها.

وشرع كلاهما يتناقلان الأخبار الصغيرة. وحيث أن الوالد كان يعلم أن صغير أسرته حداد حذق، تناول شفرة بلطةمن داخل جراب أسفاره وقال له:

-رأيت أنك تقتدر على أن تعيد لهذه الشفرة حدها القاطع. أما رأيي صائب؟

أعد الإبن ناركور الحدادة، وأحكم وضع الصنبور بين مدرتين من الفخار، وضبط فوهة منفاخه، وأخذ ولد صغير يحرك المقبضين اللذين ينفخان وينفسان رئة المنفاخ بحركات متناوبة. ولم يعتم حديد البلطة أن اكتسب حمرة متوهجة. آنئذ، دعا الابن الاصغر زوجته وأشار إليها بأن تتمدد على أديم الأرض. ودون أن يرجوها الامتثال لإشارته، إضجعت الزوجة على الحضيض، وانتظرت، وكأنها قد استخدمت دوماً كسندان حدادة لزوجها.

وأمسك الحداد بشفرة الفأس المتوهجة، متوسلاً بملقط غمسه في الماء، ووضع الحديد متوهجاً على جوف زوجته وانبرى ينجز عمله طارقاً الحديد بكل ما أوتي من عزم وقوة. ثم أعاد الحديد إلى النار ليعزز احمراره وتوهجه، وعلى المنوال نفسه، تناوله بملقط ووضعه متوازناً تمام التوازن على جوف زوجته،

وراح يطرق دون أي اضطراب منه ولا قلق. وإذ أولج الحديد في النار للمرة الثالثة، طرقه حتى أكسبه أخيراً شكلاً جميل الاستدارة، وحدّاً ذَرِباً يمكن الحطاب من قطع شجرة قطعاً لا تردد فيه ولا هوادة.

لو قيض لك أن شاهدت ذاك المشهد، لصرخت مستنكراً هاتيك الجريمة!... غير أن المرأة نظرت زوجها يعيد الفأس إلى حميها، ونهضت على أبسط نحو ممكن في العالم. ونفضت رأسها نفضة يسيرة لكي تسقط عنه تربة علقت بقذالها، ثم انصرفت إلى داخل كوخها. ولم يخلف الأمر أي حرق على كامل جسدها، ولم يند عنها أي حس ولا نأمة أنين أو تذمر!

لم يصدق الوالدما شاهده بأم عينه. ومهما أجهد ذهنه، لم يكن بوسعه أن يكشف الحيلة التي توخى ولده الأصغر أن يحتالها عليه. وأزلق الوالدشفرة بلطته إلى قعر مزود أسفاره، وهم بالانصراف. وخاطب الابن والده قائلاً:

-يا أبي! يزعم إخوتي أن الطرائد كثيرة حالياً في محلة سكناك وجوارها، فهل الأمر صحيح؟

-إي نعم! ثمة الكثير منها.

-إذن، نود المضي إلى دياركم لكي نصطاد هناك.

-تعالوا، تعالوا! سأرحب بكم وأسهل! بل سأرافقكم بتمام الرضى والسرور.

* * *

ومر من الأيام ثلاثة أو أربعة، وليس للوقت هنا أية أهمية. وتزود الأبناء الثلاثة ببضع البواطي من خمرة النخيل اللذيذة، ومضوا إلى ضيعة والدهم، فاستقبلهم بلطف وحنان، وبسط لهم أوسع ما لديه من الحصر لكي يجلسوا عليها جميعاً. فقعدوا، وأخذوا في الحال يتنادرون بآخر ما خبروا من القصص والأخبار. غير أن الابن البكر بادر والده بقوله:

-لكننا أتيناك بقصد الصيد، وقد غدا اللحم نادراً في ربوع بقاعنا. ويبدو أن الطرائد كثيرة في محلتك وجوارها، يا أبي.

كان الوالد يعرف قصدهم، وأنهم وفدوا إليه رغبة في القنص والصيد، ولهذا دعاهم إلى قضاء الليل في قريته. وفي بكرة الغداة، عند انبلاج الشفق، تناول كل منهم بندقيته، وقليلاً من البارود والرصاص، وانطلقوا جميعاً إلى الصيد. وما أن بلغوا داخل الغابة حتى شاهد الوالد فيلاً ذكراً مارداً. فأسند بندقيته على كتفه، وأطلق طلقة واحدة، هوى بها الفيل وانهار أرضاً، فافتقد حركته بل حياته.

إلتف الأبناء الثلاثة حول الصيد القتيل، وبتروا ذيله هدية لوالدهم. وسأل الابن البكر:

-لكن، كيف نقطع هذا الحيوان الهائل؟ ليس لدينا أية فأس نتوسل بها.

-لا أهمية لهذا يا ابني! عد حالاً إلى القرية وأتني بفأسي التي شحذها لي أخوك الصغير لتوه، وجدد حقاً نصلها.

وابتهج بكر الأولاد حين علم أنه يستطيع بعد هنيهة أن يقطع جسد الفيل. وهرع إلى الضيعة وهو يخف بكل طاقة سرعته.

ولما بلغ الأكواخ الأولى طرق مسمعيه أصوات بكاء وعويل. فتساءل قائلاً بصوت عال:

-غادرنا الضيعة لتونا، وتركنا الجميع في كامل الصحة والعافية، فمن الذي مات إذن؟

أجابته إمرأة وهي ترنو إليه آسفة مشفقة:

-لم يتألم والدك كثيراً، وقد ارتحل وكأنه قنديل نفد زيته لتوه.

لم يصدق الابن البكر ما سمعت أذناه. لا! ليس من الممكن أن يكون والده قد لفظ أنفاسه الأخيرة. ألم يتركه للتو متمتعاً بتمام العافية؟ أجل، غادره هناك، بصحبة أخويه قرب جثة الفيل الذي اصطادوه.

ومهما يكن من أمر، إنحنى خاشعاً على الجثمان المسجى في المنزل الابوي، وتيقن آنئذ أن الفقيد هو والده وتعذر عليه أن يخفي دهشته وذهوله، فسأل النواحات وجميع من كانوا يذرفون الدموع:

-أمن الممكن أن يحدث هذا الأمر؟ تركته مع أخوي منذ أقل من برهة وجيزه، وهو الذي أرسلني لأحمل إليه فأسه!...

ودون المزيد من الاسئلة والتساؤلات، إنقلب عائداً إلى أخويه الصيادين... يا للدهشة المذهلة التي انتابته حين شاهد بصحبتهما والده جالساً جلسة في غاية السكينة والهدوء، لدى أسفل شجرة. وسأله والده:

-يا ابني! أين فأسي؟ هل أتيتني بها؟

لم يجرؤ البكر أن يروي له ماشاهده بأم عينه في الضيعة. واضطر الوالد إلى إرسال ابنه الثني فقال له:

-أرجو أن تكون أوفر نباهة من أخيك! إذهب واجلب لي فأسي من داري!

لكن، لما بلغ الرجل الشاب أكواخ القرية الأولى، سمع صياح البكاء والعويل المتصاعد، وطفق الربع يلتقونه بنظرات حنق واستنكار، إذ يبصرونه متمتعاً بالعافية الكاملة، ومسحة هدوء تعلو سحنته. وبادره أحدهم بسؤال وقح:

-أهذا هو وقت النزهة وقد توفي والدك؟

أذهلت هذه الكلمات الشاب الثني ودخل فناء دار أبيه، وإذا به مسجى على حصيرة، وقد أسند رأسه على ركبتي زوجته الأولى فيما كانت بقية حليلاته يبكين معولات. فقال لهن الثني:

-تركته منذ هنيهة وهو الذي أرسلني إلى هنا لأنقل إليه فأسه، وها أنا أجده قدامي جثة هامدة!

ورشقته النسوة بنظرات تندد بتصرفه، وأنحت عليه والدته باللائمة، فقد كان قلبه قاسياً دونما هوادة قساوة عود فأس أبيه.

وكان من الأفضل له ألا يناقشهن. وقفل عائداً بحزن عميق، ومضى إلى الغابة ليخبر أخويه بالكارثة التي ألمت بأسرتهم.

وهناك في الغابة، كان والده أول من شاهده عائداً إليه، فبادره بالسؤال:

-هل أتيتني بفأسي يا ابني ؟

لم يقتدر الثني على النطق بكلمة واحدة، وكأن ضربة عنيفة هوت على يأفوخ رأسه. فقال له والده:

-أرى تماماً أنني لا أستطيع انتظار أي شيء منك، فها أنا أبعث بابني الاصغر.

وقال الوالد موصياً إبنه هذا:

-أسرع أنت، يا بني ! وأتني بفأسي هذه المرة !

ما كان الشاب يرتاب بأي أمر ما، وانطلق للحين. لكنه، على غرار ما حدث لأخويه، ما أن بلغ الأكواخ الأولى من الضيعة حتى سمع بكاء الربع وعويلهم. ونادى صبياً يمر بقربه وسأله عما حدث. بيد أن هذا الصبي إلتقط عصاً وكأنه يهدد به الرجل الشاب. وعندما سأل ولداً آخر عن المتوفى في القرية أجابه: هو والدك بذاته.

وخلال اقتراب الابن الأصغر من دار أبيه، كان بعض الرجال يلحقون به الإهانة والسباب قائلين:

-لا شك في أن هؤلاء الأبناء يتقاعسون عن نجدة والدهم، حين تأزف ساعة وفاته، فهم أبناء ينهمكون بإحكام السحر والفتنة وحسب.

لم يدرك صغير العائلة فحوى هذا الكلام إلا حين شاهد جثمان والده المسجى على حصيرة الموتى. وحيث أنه كان نقي السريرة والوجدان إستبد به الألم، فلم يفطن لفأس أبيه، وقد وفد لينقلها إليه.

فانصرف، وهو يخف بأسرع ما استطاع ليخبر أخويه بالحادث المشؤوم.

وهناك في الغابة، كما جرى سابقاً، كان الشخص الأول الذي بصر به حين وصوله هو والده بذاته الذي بادره بقوله:

-أرى أن يلزمني الذهاب إلى داري لأجلب فأسي، بما أن أحداً منكم لم يحزم أمره ليأتيني بها.

فقال الابن الأصغر لوالده وهو يكتم بكاءه ونحيبه:

-لم أستطع أن أجد الفأس يا أبي.

وصحب الأبناء الثلاثة والدهم ليجلبوا معه الفأس من داره. وحين بلغوا القرية إذا هي قد تحولت إلى أوضاعها الطبيعية، فالأولاد يصيحون دونما هوادة، والديوك تطلق زقاءها عالياً... ولم يكن ثمة بكاء ولا نحيب على أي ميت ما.

وكانت النسوة في فناء دار الوالد ينهمكن بدق جذور ودرنات «المنيهوت»[1] وهن مسترسلات في الغناء على إيقاع «التمتامات».

لم يصدق الأبناء الثلاثة ما يشاهدونه حق المشاهدة. ولم يكن الوالد مسجى على حصيرة الراحلين، بل انبرى يتحدث مبتهجاً إلى كل من يلتقيهم ويحيونه طوال سابلة الطريق.

من كان بوسعه أن يفسر لهم مغامرة كهذه؟ لم يكن ثمة شك بالنسبة إليهم، فكل واحد منهم يفهم، وهو ينظر الآخرين، أنهم قد وقعوا ضحايا تخيلات شاذة وغرائب الأوهام المذهلة.

والتفت الوالد إلى أبنائه الثلاثة وسألهم ضاحكاً:

-ترى، من هو الأقوى، كما يبدو لكم، أنا أم أنتم؟

آنئذ أدرك الأبناء أنه توخى تلقينهم درساً لأنهم حاولوا أن يخدعوه ويوهموه، قبل ذاك الحين ببضعة أيام، إذ كان أحدهم يطرق الحديد المتوهج على جوف زوجته، والآخر يجمع خمر النخيل بشبكة لصيد السمك، وقام بكرهم بإيواء والده من المطر في كوخ لا سطح له ولا سقف.

(١) المنيهوت: نبتة ذات جذور لها درنات نشوية صالحة للغذاء.

الساحرة و«مارا ندينبونيه»

كان ثمة في قديم الزمان ساحرة رهيبة لها سبع بنات بارعات الجمال. وقد شاع أن كل شاب يقضي ليلة مع إحداهن أكلته الساحرة فاختفى أثره. ونعرف أن الساحرات ينفردن بخصوصية مميزة ألا وهي أنهن يأكلن لحوم البشر.

كان في ربوع الساحرة ثمانية إخوة وأصغرهم سناً يكاد يبلغ من العمر بضعة أشهر وحسب، ويدعى «ماراندينبونيه» (سندعوه «ماران») يعني الولد الشرير.

ذات يوم نصح «ماران» إخوته بأن يذهبوا ليضجعوا مع بنات الساحرة الرهيبة. إلا أنهم سألوه باستغراب:

-هل تجهل أن القوم لم يروا قط أحد عشاق تلك الفتيات يعود إلى ذويه؟

-إتبعوا نصيحتي لكي ننتقم منها، ولا تخشوا شيئاً.

كذا أجاب «ماران»، مشجعاً إخوته. فذهبوا إلى منزل الساحرة، واستقبلتهم بكل ترحاب، واعدة نفسها بأنها ستطعم من لحومهم الشهية. فقدمت لهم وجبة لذيذة سخية، ثم قالت لهم:

-هيا يا أولادي، ليسترح كل واحد منكم في أحد الأكواخ وسوف تجدون رفيقات ممتعات طوال ليلتكم.

ومضى كل منهم إلى كوخ.

أما «ماران»، ولم يقدم له أي طعام فرفع صوته قائلاً:

-وأنا، يا جدتي، سوف أضجع معك أليس كذلك؟

أجابت الساحرة العجوز:

-أجل يا بني ! سنضجع معاً .

وحين انصرف الاخوة الشباب، مضى كل واحد إلى الكوخ الذي عين له . ودخل «ماران» والعجوز الساحرة كوخاً واضجعا جنباً إلى جنب .

وما أن أزف منتصف الليل حتى أحت العجوز أحات صغيرةلكي تتأكد من نوم «ماران» الصغير، فلم ينبس بأية كلمة بل لم يتحرك . وحين نهضت من مضجعها سألها «ماران» قائلاً :

-هيه ! ماما ! أين تذهبين ؟

-كيف ! أنت لا تنام يا صغيري ؟

-أنا لا أنام قبل أن تسكب أمي على رأسي سلة من الماء .

-إنتظر إذن يا ابني الصغير !

كذا قالت الساحرة، وتناولت سلة ومضت لتملأها من ماء البئر . ولكن طوال طريقها إلى الكوخ، كانت السلة تفرغ ماءها . وطفقت الساحرة تعيد الكرة وتثني . وفي نهاية المطاف قضت سحابة الليل منهمكة بإيجادحل لهذه المعضلة المستعصية، ألا وهي نقل الماء بسلة .

وانقضى اليوم التالي دون أي حادث مزعج . وعندما حان المساء، عاد الاخوة الشباب ليغازلوا الفتيات الشابات، وعاد «ماران» لينام مع الساحرة العجوز .

وإذ أعيت من التعب والنعاس الثقيل، بعد أن قضت الليلة المنصرمة في أرق وعمل، طفقت تغط في نوم مستحكم . وما أن اقتربت الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى نهض «ماران» بكل تؤدة وهدوء، وانطلق ينتقل من كوخ إلى آخر ويقول لكل من إخوته :

-ضع إبنة الساحرة على حافة السرير بدلاً منك واسترها بغطائك .

وبعـد اتخـاذ هذا الاحتـيـاط عـاد «مـاران» واضجـع جانب العـجـوز . وعند منتـصف الليل إسـتـيـقظت السـاحـرة وأحت بلطف عـدة أحـات، ثـم تململت ونهضت، ولم يتحرك «ماران». فاقتربت العجوز لتتأكد من نوم الولد الصغير. وحين وثقت من نومه، غادرت كوخها. وانطلقت متنقلة من كوخ إلى آخر وهي تذبح كل من هو على طرف كل سرير. ثم عادت أدراجها، وأعدت مرقاً بدم ضحاياها. وما أن أوشكت تتناول طعامها، صاح «ماران»

-ماما، أريد أنا أيضاً قليلاً من هذا الطعام.

-كيف ! يا بني، هل تأكل من دم الانسان ؟

-إي نعم، إنه طيب لذيذ.

كذا أجابها «ماران»، دون أن يبدو عليه أي تأثر أو اضطراب.

وبعد تناول وجبة الطعام عاد كلاهما إلى مضجعهما. واسترسلت الساحرة العجوز إلى نوم ثقيل، فانطلق «ماران» إلى إخوته يقول لهم:

-هيا أنجوا بأنفسكم ! فحين ستدرك العجوز ما حل بها من فواجع فلن تعفو عنكم.

وعاد «ماران» ليحتل من جديد موضعه إلى جانب الساحرة.

وفي الصباح قالت «لماران»:

-إذهب وانظر ما إذا إخوتك قد استيقظوا !

وعاد «ماران» قائلاً:

-لم يستيقظوا بعد، فهم يسترخون في نوم ثقيل.

وفيما بعد بقليل سألت الساحرة «ماران»

-ماذا يصنع إذن إخوتك حتى الآن ؟

-أوه ! لقد انصرفوا منذ زمن طويل. لكن بناتك نائمات نوماً لا نهاية له. وما أن أنبأها بالكارثة حتى انهزم مطلقاً ساقيه للريح.

وإذ شعرت الساحرة أن بلية ما أصيبت بها خفت مسرعة إلى أكواخ بناتها، واكتشفت المكيدة التي وقعت ضحيتها. فأقسمت أنها سوف تنتقم من هذا الصعلوك «ماران الصغير».

وكانت الساحرة تتمتع بقدرة عظيمة- على شاكلة كافة الساحرات- تتحول بها إلى أي شيء أو حيوان تريده. فمضت إلى قرية «ماران» حيث لم تَنمُ أية شجرة «باؤوباب» (١) وهذا ما يضطر السكان إلى الذهاب بعيداً بعيداً ليجلبوا أوراقاً خضراء من أجل تتبيل أنواع المرق. وحولت الساحرة نفسها إلى شجرة «باؤوباب» رائعة. وهرع صغار القرية يتسلقون الشجرة ويلعبون على أغصانها.

غير أن «ماران» لم يتسلق معهم، بل راح يتساءل:

-كيف ! هل بإمكان شجرة «باؤوباب» بهذه الضخامة أن تنبت من الأرض في ليلة واحدة وكأنها فطر من الفطور ؟

وأجابت الشجرة:

-بكل تأكيد، وإن أردت أن تقطف أوراقي فأهلاً بك.

حينئذ انخفض غصن من «الباؤوباب» نحو الطفل ماران ليحثه على الصعود. أما الطفل فقال:

-أوه، ما هذا ! شجرة تتكلم وتمد أغصانها ! هذا أمر غير طبيعي. إن أردتم فاصعدوا لقطف أوراقها، أما أنا فسأبقى هنا.

وارتعدت «الباؤوباب» غضباً. وإذ شاهدت «ماران» ينعزل عنها إختفت الشجرة حاملة معها كل الأولاد الصغار الطائشين وهم يقطفون أوراقها.

---

(١) باؤوباب: شجرة تدعى «حُميرة» وتنبت في المناطق الاستوائية. وقد يبلغ محيط جذعها عشرين متراً، وفي ثمرها لب يؤكل.

وتوقعت الساحرة أن سكان القرية سيرسلون «ماران» لاسترداد أولادهم. وكانت تتمتع مسبقاً بامكانية انتقامها منه فيما تلتذ بأكلها ولداً كل يوم. غير أن «ماران» لم يمض إليها.

وذات يوم شاهد الأولاد الصغار خلف قرية «ماران» حماراً فالتاً ينعم بكل حريته، فهرعوا إليه يمسكون به، ثم تنافسوا في ركوبه. وقدم «ماران» فجأة، ولم يعد ثمة مكان على ظهر الحمار. ولكن الدابة أطالت حالاً متنها ومطته مجاملة الطفل «ماران» فخاطب نفسه قائلاً: أوه! هوذا حمار لا بد وأن يكون من فصيلة «الباؤوباب»!

وحين ابتعد «ماران» إختفى الحمار خاطفاً معه كل الأولاد الذين يركبونه. فصاحت الامهات المفجوعات بفقد أولادهن، مستنجدات بالطفل:

-يا «ماران»! أنت لك من التبصر ما يكفي كيلا لا تقع في شراك السحرة. ها نحن نضرع إليك أن تتوسل بقصارى جهدك لتعيد إلينا أولادنا بحيلة من حيلك.

وعدهن «ماران» بإنقاذ أولادهن. ومضى حاملاً جلد جدي يحتوي على قطعة لحم مجففة.

وكان للساحرة ابنة أخيرة صغيرة السن في عمر الطفل الصغير. وكانت تقتني بقرة نتوجاً، تعيش دوماً كالعجوز في خوف مستديم من «ماران». وحين أزف وضع البقرة قالت العجوز:

-إن وضعت بقرتي عجلاً صغيراً أصهب اللون، فهذا يعني أن «ماران» سوف يكون في جوف هذا العجل الصغير. وإن ولدت بقرتي عجلاً صغيراً أبيض، فهذا يعني أن «ماران» لن يكون في بطن العجل.

وولدت البقرة عجلاً أبيض، ومنذئذ لبثت الساحرة دونما حذر. غير أن الولد- وهو أوفر حيلة من العجوز- كان رغم ذلك في جوف العجل الصغير الابيض.

وكبقية العجول الصغيرة، كان العجل يقفز قفزات سريعة ويخف بخفة شديدة. وإذ كان يمر بجانب الاولاد الصغار قال لهم:

حين تتركني العجوز حراً فيما بينكم، أمسكوا بذنبي وبأذني وبكل ما تستطيعون إمساكه مني وسوف أعيدكم إلى قريتنا.

وكذا كان. فيئست الساحرة يأساً شديداً. غير أنها أمسكت بالطفل «ماران»، إما لأنها تصرفت تصرفاً أوفر مهارة، وإما لأن «ماران» كان مصمماً على حيلة. ووضعت العجوز سجينها في جلد جدي وربطته بكل عناية، ثم أدخلته في جلد جدي آخر أغلقته بإحكام. وأولجت كل هذا داخل جلد جدي ثالث متين جداً، ثم أوثقت ربطه بإتقان.

ووضعت الساحرة ابنتها الصغيرة قرب «ماران» لكي تحرسه، بينما طفقت هي تحفر في فناء بيتها بئراً ألقت فيها حطباً وأعشاباً وأوقدت فيها ناراً عظيمة.

في هذه الاثناء، سمعت الابنة الصغيرة «ماران» يدمدم ويقضم شيئاً يأكله فسألته ما إذا كان معه مؤونة يطعمها. فأجابها أنه يتحلى بأكل حلويات لذيذة شهية. فطلبت منه أن يهبها شيئاً منها. فقال لها:

-كيف تريدين أن أقتسم معك الحلوى وأنا موثوق سجين كما أنا عليه. فكي رباطي وسوف نرى...

وفتحت الابنة الصغيرة الطائشة جلود الجدي، فخرج منها «ماران». وإذا به يعري طفلة الساحرة من ثيابها ويضعها مكانه مع ثيابه وحاجاته الخاصة به، وأغلق عليها جلود الجدي واختفى مرتدياً ثياب الطفلة.

وأتت الساحرة وأمسكت جلد الجدي فسمعت صوتاً ناعماً لطيفاً يقول لها:

-يا ماما! إحترسي جيداً! فقد وضعني الولد مكانه! أنا ابنتك الصغيرة فلا تقتليني!

-إي نعم، إني أعرفك يا «ماران». بإمكانك أن تقلد صوت ابنتي الصغيرة.

ولن يغير هذا شيئاً من مصيرك الرهيب. ودونما تردد ألقت الساحرة الصرة في موقد النار المتأججة، وبعد قليل انفجر جسد الطفلة فاندفع إذاك «ماران» قدام العجوز يصيح بها:

-حسناً! أيتها الساحرة العجوز! لقد قتلت أيضاً ابنتك الصغيرة الأخيرة.

ونجا الطفل بنفسه وفر هارباً ولا يزال...

أما العجوز الساحرة، فجلست تبكي وتنوح وتلطم وجهها لأنها قتلت بيديها جميع بناتها. ومنذ ذاك الحين، طفقت تفكر في وسيلة من وسائلها السحرية لتنتقم بها من الطفل الشرير «ماران».

ويقول الرواة أنها لم تعثر بعد على وسيلة تشفي غليل حقدها ونقمتها.

الحقيقة والكذب

ذات يوم، أخذ «الكذب والحقيقة» عصا ترحالهما معاً، وقال «الكذب» بلطف لرفيقته «الحقيقة»:

-خلال ترحالنا، تتكلمين أنت لا أنا، وأينما نمضي، لأن القوم لن يرحبوا بنا إن علموا من أنا.

وفي المنزل الأول حيث نزلا، أهلت بهما زوجة رب البيت قبل أن يعود قرينها عند هبوط الليل. وما أن قدم حتى طلب من امرأته أن تقدم له الطعام فقالت له إنها لم تعد بعد شيئاً لعشائه. لكن في حقيقة الأمر، سبق لها أن طهت في الظهيرة وجبة الغداء لشخصين وخبأت نصف الوجبة. وبرغم أن رجلها لم يعلم بشيء من هذا إستشاط غضباً، فقد عاد من الحقول جائعاً سغباً. والتفت إلى الغريبين الضيفين وسألهما:

-هل تريان تصرف هذه المرأة تصرف ربة بيت صالحة؟

ولزم الكذب جانب الصمت الحكيم. إلا أن الحقيقة لم يكن بوسعها إلا أن تجيب. فقالت بصدق إن ربةمنزل صالحة يترتب عليها إعداد كل شيء لعودة زوجها. حينئذ تملكت الزوجة سورة غيظ وسخط على الغريبين لأنهما أذنا لنفسيهما بالتدخل في شؤون العائلة وفي نهاية المطاف ألقت بهما إلى قارعة الطريق.

واستأنف الكذب والحقيقة رحلتهما وبلغا ضيعة ثانية حيث وجدا الأولاد منهمكين في اقتسام بقرة عاقر ذبحت لتوها، وقد استبد بها التَربّل والسمنة.

وحين دخل المسافران دار عمدة القرية إلتقيا بأولاد أتوا إلى العمدة لتوهم برأس البقرة وأشلائها قائلين له : «هذه هي حصتك» .

بيد أن الجميع يعرفون أنه من شؤون العمدة أن يقسم الحصص في هذه الحال . وخاطب العمدة الغريبين وقد حضرا تفاصيل كل ما حدث ، فسألهما :

-من تريان أنه الآمر الناهي في هذه الضيعة ؟

فأجابت الحقيقة دونما تردد :

-يبدو لنا أنهم الاولاد .

وما أن سمع العمدة هذه الإجابة حتى أرغى وأزبد من الحنق الشديد ، وأوعز بطرد هذين الغريبين لوقاحتهما الشديدة .

عندئذ ، قال الكذب للحقيقة رفيقته :

-الحق أقول لك لا أستطيع من بعد أن أتخلى لك عن تدبير أمورنا ، فسوف تدفعين بنا إلى الموت جوعاً . بعد هذا الحين ، سأقوم أنا بمهمة تسيير شؤوننا . فتخلت الحقيقة عن النهوض بتدبير أمورهما وقول الحق والصدق .

وبعد قليل ، بلغا ضيعة ثالثة ، وجلسا في ظل شجرة قرب بئر ، وكانت صرخات شديدة تنبعث من القرية . وعلم الرفيقان أن محظية الملك قد قضت نحبها .

وقدمت خادمة لتستقي ماء ، وهي تبكي غماً وحزناً . فاقترب الكذب منها وسألها :

-ما هي المصيبة التي تبكيك كل هذا البكاء وتُصيّر جميع القوم ينتحبون في قريتكم ؟

فأجابت :

-ماتت سيدتنا الصالحة زوجة الملك المحظية لديه .

-كيف ! كل هذه الضجة بسبب أمر بسيط جداً ! هيا ! إذهبي وقولي للملك ألا يحزن ولا يغتم من بعد، فأنا قادر، منذ سنوات وسنوات، أن أعيد الأموات إلى الحياة.

وإذا بالملك يرسل بخروف جميل إلى المسافرين متمنياً لهما حسن الوفادة، وأوعز بأن يقال للكذب أن يتمهل، وأنه سيلجأ إلى مواهبه الخارقة حين سيرى الأمر مواتياً.

وفي الغداة وما بعد الغداة، أهدى المليك خروفاً آخر جميلاً، مكرراً للكذب كل ما سبق وقيل له. وتظاهر الكذب بأنه فارغ الصبر وأرسل من يخبر الملك بأنه عازم على الانصراف من القرية إن لم يستدعه في اليوم التالي. واتفق أن دعي الكذب إلى المثول بحضرة العاهل في اليوم التالي. وحين أزفت الساعة، مثل الكذب في حضرة جلالته الذي سأله أولاً عن أجر خدماته، وعرض عليه في نهاية المطاف حصة مئوية من كل مقتنياته الملكية. ورفض الكذب قائلاً:

-أريد نصف ممتلكاتك، يا جلالة الملك !

وأذعن العاهل أمام شهود وقبل بهذا الاجر.

آنئذ، أمر الكذب ببناء كوخ، تماماً فوق الموقع حيث دفنت محظية الملك. وحين أنجز البناء بكامله، ولجه الكذب وحيداً، متوسلاً بأدوات للنبش والحفر، وتأكد من أن كل المنافذ موصدة بإحكام.

وبعد إنقضاء فترة طويلة في عمل كان القوم يخمنونه حثيثاً مضنياً، سمعوا الكذب يتحدث بصوت عال وكأنه يتشاجر مع العديد من الأفراد. ثم خرج الكذب قائلاً للملك:

-هاهي الأمور قد صارت شاقة معقدة. فما أن بعثت زوجتك من الموت، حتى أمسك والدك بقدميها وهو يقول لي:

-خل هذه المرأة هنا ! فما هي منفعتها على الأرض؟ وماذا ستعمل لك؟ أما أنا، فإن أخرجتني من الموت إلى الحياة، فرأت عيناي النور من جديد فلن أعطيك

نصف ما يمتلكه ولدي بل سأهديك ثلاثة أرباعه لأني كنت أغنى منه بكثير. وما أن أنهى كلامه حتى ظهر جدك ودفع بوالدك إلى الوراء وطرده عارضاً علي أكثر من ذلك. والآن، كل أجدادك مجتمعون هنا في الكوخ ولا أدري إلى من منهم أستجيب. ولكن، لكي لا أجعلك ترتبك ارتباكاً مفرطاً، قل لي فقط، من تريد منهم أن أبعثه إلى الحياة: هل هو والدك أم جدك أم زوجتك التي تفضلها؟ ... فأجاب العاهل دون أية لحظة من التردد:

-زوجتي، زوجتي!

لأن الملك كان يرتعد لمجرد التفكير في أنه قد يرى ظهور والده العجوز الذي سبق له أن استبقاه ردحاً طويلاً تحت وصايته المستبدة.

وقال الكذب:

-دون شك، ولكن والدك يعرض علي أكثر مما وعدتني به، وسوف أفقد ثروة طائلة إن أضعت فرصة سخية كهذه.

ولما رأى الكذب المليك مذعوراً، أردف قائلاً:

-إلا إن أعطيتني- لكي أخفيه نهائياً- ما كنت قد وعدت بإعطائي لإرجاع زوجتك من بين الأموات.

وقال لفيف من العرافين، وقد سبق لهم أن ساهموا في اغتيال العاهل السابق المقتول:

-بالحقيقة، هذا هو الأمر الأفضل.

وتنهد المليك من أقصى أعماقه قائلاً:

-حسناً! ليبق والدي حيث هو الآن وكذلك زوجتي...

وهكذا كان، ولأن الكذب لم يبعث أحداً من الموت، ظفر بثروة الملك الذي لم يلبث أن تزوج من جديد كي ينسى زوجته المحظية المرحومة.

لماذا الرجال قوامون...

في بداية الحياة البشرية، أراد الله أن يمتحن مروءة قلب الرجل وأنثوية قلب المرأة. فاستدعى الرجل على حدة ووضع بين يديه مدية قاطعة وقال له:

-إصغ إلي جيداً! في هذه الليلة حين ستخلد زوجتك إلى نوم عميق، عليك أن تذبحها من الوريد إلى الوريد.

ثم استدعى الله زوجة الرجل وسلحها بمدية ذربة جداً وقال لها:

-إصغي إلي جيداً! في هذه الليلة، حين سيأوي حليلك إلى مضجعه فينام نوماً ثقيلاً، عليك أن تحزي سريعاً رقبته.

* * *

انئذ، إنصرف الرجل والحزن العميق يعمر أركان قلبه. وراح يتفكر فيما طلبه الله منه:

-أمن الممكن أن أذبح زوجتي! وهي أيضاً شقيقتي! يستحيل علي أن أقترف هذه الجريمة الشنيعة! كلا ثم كلا! لن أقوم بهذه الفعلة الفظيعة!

أما زوجة الرجل فانصرفت. وتحت جنح الليل تسلحت بالمدية ومضت مصممة على ذبح زوجها النائم.

بيد أن الله بادرها باشمئزاز يقول لها:

-يا لك من زوجة وحشية خائنة ! وحيث أن قلبك عامر بالخبث والخيانة، فلن تلمس يداك حديد الأسلحة طوال عمرك ! هيا إلى عملك فمن هذا الحين وإلى الأبد يقتصر على نِطاقَيْ منزلك وحقلك !

ثم خاطب الله زوجها الشهم قائلاً :

-أما أنت أيها الرجل النبيل فحيث أن قلبك عامر بالمروءة الطيبة السمحة، هاأنذا أحبوك الحق في أن تكون قواماً على زوجتك . وبقوة السلاح سوف تذود دوماً عن عيلتك وربعك !

لانسيني ومريمة
نهاية الحريم

كان في قديم الزمان، بقرية «بيريكو» من قطر «فولاه»، سيد من علية القوم، قدير ثري يدعى «بكري»، وفي حوزته قطعان لا حصر لها، وحقول ينهض بزراعتها العديد من العبيد زراعة جد مجدية. وكان لديه ما يشير إلى ثروته الطائلة: دارة للحريم تشتمل على إحدى وعشرين زوجة. وإذ تأججت حدة غيرته عليهن، دأب- شأن جميع القوم الاثرياء في ذاك الزمان- على إبقائهن حبيسات على الدوام في دارة مُحَوَّطة، وأغلقها ببوابة حظر اجتيازها على كل الرجال، تحت طائلة موت زؤام.

ومن الصدفة أن امرأة عجوزاً تدعى «نعيمة» كانت تصرف بقية عمرها مع ولدها الوحيد «لانسيني»، في جوار دارة زوجات «بكري». وسبق لهذه العجوز أن أتقنت خبرتها بأعشاب الادغال، ومعالجة المرضى، واستطلاع مستقبل الايام على أديم الرمال متوسلة بجوزات «الكولا» العندمية. وحظيت بتلك المواهب وإعتبار ربعها واحترامهم، فأفسح لها المجال للتردد إلى دارة «بكري».

أما ولدها «لانسيني» فكان شاباً جميل التكوين، قوي البنية ماهر التصرف، وقد تملكته هواية الصيد تملكاً شديداً. وذات يوم، مر إزاء بوابة مدخل دارة «بكري»، فبصر في فنائها إحدى نساء سيد المكان تدعى«مريمة» وهي تدق ذرة صفراء وتسحنها. كانت «مريمة» خلاسية هيفاء القوام، حسنة تقاطيع المحيا. وسبق لها، بغية دق الذرة بمزيد من الراحة، أن خلعت وزرتها، فلم تبق على جسدها سوى نطاق من جلد.

ما أن شاهدها «لانسيني» حتى شعر أنه قد أصيب في حبة قلبه. وعقب عودته إلى كوخه، أفضى بمكنون فؤاده لوالدته قائلاً لها أنه سوف يقتل نفسه إن لم تجد في ذاك اليوم بذاته وسيلة تيسر له ولوج دارة «بكري». واستولت الخشية على والدته العجوز، فمضت في الحال إلى «مريمة» وأسهبت في الحديث إليها، ثم عادت أدراجها والبسمة تعلو شفتيها.

* * *

هرعت الأم إلى حداد القرية وأوصته بأن يصنع لها صندوقاً كبيراً محفوراً في جذع شجرة قابوق (١) ضخمة ففعل. وأدخلت العجوز ولدها في الصندوق وأحكمت إغلاقه. ثم ذهبت لتلتقي «بكري» وقالت له:

-تحية أيها الرجل المحترم! إن ولدي قد انصرف لتوه مرتحلاً إلى «ندارا»، وترك لي صندوقاً مليئاً بالثياب وحاجات أخرى. ولست سوى امرأة عجوز مسكينة تفتقد الحول والقوة. وقد يصير هذا الصندوق في غير مأمن من اللصوص في كوخي الذي غالباً ما أغادره. فها أنذا ألجأ إليك ملتمسة منك أن أودعه في دارة نسائك. وقد قطعت لي «مريمة» وعداً بالحفاظ عليه في كوخ مضجعها حتى يعود ولدي من رحلته.

وإذ كان «بكري» جزيل الكرم والمجاملة، أذن بسهولة للعجوز أن تفعل ما طلبت.

في المساء نفسه، ساعة ينتهي سرد الحكايات وتنبري الضباع تعوي في الأدغال، فتحت «مريمة» الصندوق ولبث «لانسيني» في صحبتها.

* * *

إنقضت تسعة أشهر ونعمت «مريمة» بالأمومة. واعتقد «بكري» أنه رزق بوليد جديد، وأطلق عليه إسم «موريبا». ثم أقام على شرفه احتفالات عظيمة دعي

(١) قابوق: نوع من الشجر الكبير ومن الفصيلة الخبازية (المنهل).

إليهـا عليه قوم قريتـه. وأشـار بأن يضحى بثـور وثلاثة خراف وخلال يومين بتمامهما، لبثت القرعات زاخرة بالأرز الساخن، والقرب مترعة بالجعة وخمر النخيل.

في تلك الغضون، قبع «لانسيني» دون هوادة في مخبئه، وهو يخلد إلى النوم طوال النهار بأكمله، ويصرف أوقات يقظته طوال الليل إلى جانب «مريمة». ولم يستحوذ الملل عليه ولا عليها سحابة ثلاثة أعوام.

بيد أن سرهما قد افتضح أمره، ذات ليلة، على يد امرأة تدعى «ساتاما»، حيث لم يكن في طاقتها أن تصون سرهما. فبلغ الخبر لتوه أذني «بكري» سيد الدارة. وهرع واحد من القوم محذراً الأم العجوز «نعيمة» في حين مناسب، فتمكنت من إفساح المجال لهرب ولدها من الدارة.

أما «بكري»، فمضى إلى كوخ مضجع «مريمة»، وفي صحبته إثنان من أعيان محلته، بقصد العمل على فتح ذاك الصندوق. لكنهم لم يعثروا فيه إلا على بضعة أردية زنجيقية[1]. وملابس فضفاضة ووزرات وأخفاف ذوات أشركة. وفي تلك الآونة، وفدت «نعيمة» العجوز تبشرهم بعودة ابنها من رحلته الطويلة إلى «ندارا»، وطلبت إلى سيد الدارة أن تسترد الصندوق الذي كانت قد أوكلته إليهم...

* * *

برغم أن «بكري» لم يكتشف أية دلالة يدين بها «مريمة»، لم يعترف باخفاق مسعاه. فاستشار حكماء ربعه. ثم أوعز بأن يعلن، على صداح الابواق وقرع الطبول، أمره باستدعاء كافة رجال قومه الاصحاء. وما أن انعقد جمعهم، حتى أشار سيد الدارة إليهم، فاصطفوا حوله في نصف دائرة. واستدعى قبالته كافة زوجاته الواحدة والعشرين وطلب من كل واحدة منهن أن تحتضن ولدها ثم قال للأمهات:

-هيا! قلن لأولادكن أن يقدموا إلى تقبيل والدهم!

كررت الأمهات لأولادهن ما أمر به «بكري» فهرع إليه عشرون ولداً. أما

---

(١) زنجيقية: زنجية إفريقية.

الواحد والعشرون «موريبا» وحده، فبعد أن خطا بضع خطوات، ارتد إلى والدته باكياً. فقال شيوخ الربع لسيد الدارة «بكري»:

-لاجرم أن هذا الصبي ليس ابنك!

آنئذ، كررت «مريمة» قولها لابنها «موريبا»:

-هيا يا ولدي! هيا اذهب وعانق والدك!

فـانطلق الصـبي مـجـدداً، وبعـد بضع دقـائق من التـردد، نحى إلى والده «لانسيني» الضائع بين رجال الحشد.

حين أدرك «لانسيني» أن أمره قد افتضح، لم يعد يتردد، فأمسك بولده وعانقه مخاطباً «بكري»:

-يا كبير القرية! أجل هذا ولدي. فرغم كل أوامرك ورغم كافة احتياطاتك، ولجت دارتك حيث صرفت من عـمري ثلاث سنوات. إلى هناك قمت برحلتي الطويلة قاصداً «ندارا». لقد فعلت فعلتي لأني أحببت «مريمة». ولو لم اقتدر على التقرب منها لقتلت نفسي. وها أنت الآن على علم من أمري، ولك الطاقة والحرية في عقابي كما تشاء، فلست أخشى الآن الموت الزؤام:

كذا تحدث الشاب إلى «بكري» فأجابه في الحال:

-كلا، كلا، يا «لانسيني»! لن تلحق بك أذية! هذا الصبي هو ابنك فاحتفظ بها حليلة لك! وعلاوة على هذا، أهبك بقرة حلوباً وعشراء، ومعها ثلاثة خراف، فأنت حقاً شاب يتحلى بالإقدام والفخار.

آنئذ، إلتفت «بكري» إلى أعيان قومه مستطرداً:

-أما نحن، فمنذ هذا الحين نرى من النافل أن نوصد الأبواب على نسائنا. فأعظم ما احتطنا به، وأعظم الدارات التي بنينا، لن تستطيع ردعهن عن الخيانة إن صممن على خيانتنا.

منذ ذاك اليوم، لم تعد النساء الزنجيقيات حبيسات بحرص شديد في دارات الحريم.

خادم أسود لكاهن أبيض

من الكاميرون

أدعى «توندي أوندوا»، ويدعى والداي «توندي» و«زانا». ومنذ أن «عمدني»(١) الكاهن، أطلق علي إسم «يوسف». وأنا أنتمي إلى قبيلة أمي «ماكا» وإلى قبيلة أبي «نجم». وسبق قديماً لعرقي أن كان في عداد أكلة لحوم البشر. ومنذ أن وفد البيض إلى ربوعنا، أدركنا أن كل إنسان غيرنا يتميز عن الحيوان بعقله وإنسانيته.

يدعي أهل قريتي أني تسببت بوفاة والدي لأني التجأت إلى منزل كاهن أبيض، عشية الاحتفال ببداية مسارّتي(٢)، إذ توجب علي أن أتعرف إلى الأفعى الذائعة الصيت التي تشمل كل فرد من عرقي بالرعاية والحدب عليه. أما الأب الكاهن «جيلبير» فهو يعتقد أن «الروح القدس» الإلهي هو الذي استدرج خطواتي إلى منزله. وحقاً أقول إني لم أقصد منزله إلا للاقتراب من «الرجل الأبيض» الذي كانت جمة شعره الأبيض على شاكلة لحية سنبلة الذرة الصفراء، والذي يرتدي ثيابه كما تفعل النسوة، ويعطي صغار الزنجيقيين مكعبات صغيرة حلوة المذاق.

كنا عصبة من الصبيان الوثنيين الذين يتبعون «الكاهن المرسل» في تنقله من كوخ إلى كوخ، ملتمساً انضمام ربع قومي إلى الديانة الجديدة. وكان «الأب الكاهن» يعرف بضع كلمات من لغة «نجم» قبيلة والدي. غير أنه يلفظها لفظاً سيئاً

(١) عمد إنساناً: غسله بماء المعمودية التي تعتبر أول أسرار الدين المسيحي...

(٢) مسارة: احتفال لتلقين أسرار الديانات الوثنية أو الطوائف السرية.

جداً، بحيث أنها تتخذ معاني فاحشة، الأمر الذي يسدي للجميع قسطاً من التسلية ويوفر للكاهن بعض النجاح، وهو يلقي إلينا مكعبات السكر الحلوة كما تلقى الحبوب إلى الدجاج فتنشب آنئذ معركة حقيقية فيما بيننا لحيازة قطع السكر البيضاء اللذيذة المذاق، والتي لا نتلقفها أو نلتقطها إلا بخدوش تدمي ركبنا، وبضربات تورم عيوننا، وتجرح وجوهنا جروحاً أليمة.

وكانت مشاهد التوزيع هذه تتحول أحياناً إلى مشاجرات بين الأولاد، ومن ثم بين والديهم. وذات يوم، انبرت والدتي تقاتل والدة «تيناتي» رفيق لعبي ومرحي، لأنه قد لوى ذراعي لإرغامي على التخلي عن قطعتين من السكر استوليت عليهما بثمن باهظ ألا وهو نزيف أصابني في أنفي. وأوشك ذاك العراك أن ينقلب إلى مذبحة دامية فراح بعض الجيران يصدون والدي عن فج رأس والد رفيقي «تيناتي» الذي طفق يهدد بأنه سوف يجأ كرش أبي بطعنة من مزراقه [1]

وبعد أن هدّأ الربع روع أبوينا وطيبوا قلبيهما، هب إلي والدي وشرر الغضب يتناثر من عينيه، وتسلح بخيزرانته الهندية، وأمرني بأن ألحق به إلى وراء الكوخ. وثمة قال لي:

-يا «توندي»! أنت بالحقيقة سبب كل هذه المشاكل. وسوف تزعجنا شراهتك وتضيعنا. ويبدو لي أنك لا تأكل كفاية في بيتنا. وفي عشية الاحتفال «بمسارّتك»، تشعر بالحاجة إلى اجتياز الجدول لتلتقط قطع السكر من ذاك «الرجل- المرأة» [2] دون أن تعرفه حق المعرفة.

غير أني كنت أعرف تماماً والدي. فهو يقتني سحر السوط حين يسوط واحداً منا، وحين ينقض فيجلدني ووالدتي التي تذود عني. وبعدها، يتحتم علينا أن ننتظر أسبوعاً لنتماثل إلى الشفاء تماثلاً كاملاً.

عندما خاطبني أبي، وقفت على بعد كاف من خيزرانته. وإذا هو يسوط بها الهواء فيصدر عنها صفير حقيقي. وراح يواجهني وأنا أنكفىء متقهقراً. فقال لي:

---

(١) مزراق: رمح صغير. وجأ: طعن.

(٢) الرجل- المرأة: يعني هنا الكاهن الذي يرتدي ثيابه الطويلة كما تفعل النسوة.

-ألا تريد أن تتوقف ؟ ... لم يعد لي ساقان قويتان لألحق بك . وأنت تعرف أني قادر على انتظارك مئة سنة لأعاقبك . تعال إلي هنا ، لأنتهي بسرعة من هذه «الشغلة» (١)

وأخذت أحتج بقولي :

-ما فعلت شيئاً يا أبي لكي تضربني .

-آه ! كيف ، كيف ؟ وتتجرأ أيضاً على القول بأنك لم تفعل شيئاً ؟ لو لم تكن شرهاً كما أنت حقاً ، ولو لم يكن دمك من دم الشرهين الجاري في أوردة أمك ، لَمَا ذهبت لتزاحم غيرك (كما يفعل الجرذ وهو أنت) على قطع السكر التي يوزعها عليكم هذا الابيض اللعين ! ولماذا لويت ذراعاك ، ولماذا ضربت أمك ، ولماذا رغبت أنا في أن أفج رأس «تيناتي» العجوز فأسيل دمه ! أنصحك بأن تتوقف ولا تتراجع ! ... وإن تراجعت خطوة واحدة إلى الوراء ، لاعتبرت أنك تهينني فيمكنك ساعتها أن تنام مع أمك (٢) ! ...

آنئذ ، توقفت . وانقض علي وصير خيزرانته تصفر على كتفي العاريتين ، فأخذت أتلوى مثل دودة تحت حم الشمس . وصاح بي والدي :

-هيّا ، دُر ! وارفع ذراعيك ! فأنا لا أريد أن أقلع إحدى عينيك !

-يا أبي سامحني !

-أنت تكرر دوماً هذا الكلام حين أبدأ بضربك . أما اليوم ، فلا بد لي أن أضربك حتى يروح كل غضبي .

وهكذا كان توسلي بدون جدوى . وما كان بوسعي أن أصرخ لئلا يجتمع الجيران علينا ، فيصفني رفاقي بضعف البنات ، ويعني هذا الأمر أنني سأنعزل عن فريقنا الذي أطلقنا عليه اسم «الشبيبة-التي-ستغدو-قريباً-رجالاً» . وتمكن والدي من ضربي ضربة أخرى أوشكت أن أتلافاها . فقال لي :

---

(١) شغلة : عمل ، مهمة .

(٢) كفتاة ، لا كرجل !

-إن تهربت أيضاً من ضرباتي فبإمكانك أن تنام مع جدتك، أمي أنا.

لكي يتفادى والدي أن يضربني سدى، كان دأبه اللجوء إلى هذا الابتزاز الذي يلزمني بالاستسلام طوعاً لسوطه. فقلت له:

-ما أهنتك، ولا أقدر أن أنام مع أمي ولا أمك! ولا أريد أن تضربني بعد هذا اليوم! وها هي المشكلة!

-ولك الجرأة أن تكلمني بهذه اللهجة! ... هاهي قطرة من سائلي تكلمني بهذه الطريقة! ... توقف وإلا لعنتك!

راح والدي يلهث ويختنق غضباً. ولم أشاهده قط ساخطاً كل ذاك السخط والحنق، ولبثت أرتد وأتقهقر، ولاحقني إلى ماوراء الخصوص [1] طوال زهاء مئة خطوة. وقال فجأة:

-حسن! سأرى أين تقضي هذه الليلة! سأقول لأمك أنك شتمتنا. ومن أجل أن تدخل كوخنا، فطريقك الوحيد يمر بباب بدني.

ومن ثم، أدار لي ظهره. وما كنت أدري إلى أين التجىء. وكان لي عم لاأحبه، فهو مصاب بقشرة الجرب. وعلى غرار زوجته، تفوح منه رائحة السمك النتنة، فأشمئز من دخول كوخهما. وكان الليل حالكاً وأضواء اليراعات الغمازة، تظهر بوضوح للعيان، فيما تنبىء ضربات المدق بوقعة طعام المساء.

إنكفأت بهدوء إلى خلف كوخنا، ونظرت من خلال خصاص [2] الجدار وتصدعاته، وهو من تراب مدكوك. وإذا والدي يدير لي ظهره، والعم المقرف يجلس مقابله، والجميع يطعمون، ورائحة القنفذ الذكية تسطع وتفوح. وسبق لنا أن عثرنا على القنفذ، وقد التهم النمل نصفه وهو عالق، منذ يومين، بأحد فخاخ أبي. فأثارت رائحة الطعام شهيتي. أما كان الجميع يعلمون أن والدتي تشتهر بتتبيل القنافذ وقد ترامت شهرتها بعيداً؟ ...

(١) خص، خصوص: مأوى أو بيت من قصب أو شجر.
(٢) خصاص: خلل أو خرق أو فرج في باب أو جدار.

وقال عمي وقد امتلأ فمه طعاماً:

-بالحقيقة، هذا هو أول قنفذ في هذا الموسم.

ولم ينبس والدي بأية كلمة حين سدد سبابته إلى ما فوق رأسه حيث يصف جماجم الحيوانات التي اصطادها بالفخاخ... وقالت والدتي:

-كلوا الطعام كله! وحصة «توندي» تركتها في القدرة

فانتصب والدي بطفرة مباغتة، وفهمت لدى تلعثمه أن الأمور ستفضي إلى أزمة شديدة. وصاح آمراً بحزم وإصرار:

-هاتي إلى هنا حصة «توندي»، ولن تلمس شفتاه هذا القنفذ، وهذه العقوبة تعلمه أن يطيعني.

-أنت تعرف أنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح. فماذا سيأكل عند عودته؟

-لن يأكل شيئاً! لا!...

كذا أجاب والدي إجابة قاطعة. فأضاف عمي:

-إن أردت أن يطيعك، إحرمه من الأكل... ولكن هذا القنفذ رائع بالحقيقة.

نهضت والدتي وأتتهم بحصتي في القدرة. وشاهدت يدي والدي وعمي تتوغلان فيها، ثم سمعت والدتي تبكي. وللمرة الأولى في حياتي عن على بالي أن أنتقم من والدي...

انطلقت إلى محلة الكاهن الأبيض. وعقب تردد طويل قرعت باب كوخه، فوجدته يتناول وجبة طعامه. وأدهشته زيارتي. وشرحت له بالإيماء تصميمي على الإلتحاق به، دونما انقطاع. فانبرى يضحك ضحكة عريضة حتى بانت ثناياه ونواجذه. وهذا ما أضفى على فمه شكل هلال القمر. وبقيت بلا حراك لدى الباب. فأومأ إلي بيده أن أقترب، وحَيّد لي بقية وجبة طعامه. فبدت لي غريبة الطعم لذيذة النكهة.

تابعنا حديثنا بالإيماء. وأدركت أن الكاهن الابيض قد قبل أن أنضم إليه. وهكذا اصبحت خادم الأب «جيلبير» المحترم.

متقاعد مزارع

من ساحل العاج

كان «كليمبييه» قد أمضى عطلته المدرسية في قرية «بوديا»، ومزرعة عمه «أسوان كوفي» الذي رحب به فور نزوله من القطار. ولحظ وفرة من الغضون قد توغلت في محيا العم فخددته. ومن كل جانب لأرنبتي أنفه، توزعت أسارير أخرى يتخيل المرء أن العَرَقَ قد ترك اثاره فيها، عقب اجتياح الشيب لحيته مستبداً بها.

بعد أن تناول أحد الحمالين الحقيبة طفق «كليمبييه» ينظر إلى عمه متسائلاً: «لماذا هرم العم بهذه السرعة الشديدة؟ فها هو ظهره قد أخذ ينثني، كما راحت مشيته تتباطأ.» ولبث «كليمبييه» يتساءل ولايني: «ما الذي يحدث؟»

وانبرى كل من يلتقونهما على الطريق يطرحون السؤال نفسه:

-هل هذا هو ابنك الصغير؟

-إي نعم! إنه هو.

-حسن! ياصغيري، والدك رجل طيب حقاً، وواجبك أن تعكف جيداً على دراستك في المدرسة. وحين ستبلغ الرشد وتصير رجلاً، لابد أن تتحلى بطيبة الخلق على غراره.

في الغداة، بُكرةً، إرتحل العم وحفيده «كيليمبييه» مترجلين إلى المزرعة الواقعة على بعد أربعين كيلو متراً من المدينة. وفي الضيعات الصغيرة المتتالية

طوال الطريق، راح المسافران يشاهدان البائعين الجوالين من قبائل «ديولا» و«هاوسا» يجلسون إزاء بضائعهم المعروضة، والغلاية وجلد الصلاة على متناول أيديهم، وقد تشققت أقدامهم لكثرة ما ترجلوا، وتغضن أديم جماجمهم لثقل ما شالوا عليها.

انبرى العم، سحابة يوم مسيرهما، يروي لابن أخيه كيف سبق له أن ابتاع أرض مزرعته، فقال:

في يوم من الأيام، خلال أحد أسفاري، رأيت هذه الغابة، وفجأة طرأت على بالي فكرة الزرع. يلزمني الاعتراف بأنني، أثناء خدمتي العسكرية في فرنسا، دعاني أحد رؤسائي وسألني:

-ماذا ستفعل بعد خدمتك؟

- سأكون موظفاً.

-ولم لا تزرع؟ ... أي زرع كان ...

لم آخذ كلامه مأخذ الجد. وفيما بعد، عنت لي فجأة فكرة الزرع. ولكن يا ابني، كان هذا الأمر يقتضي مني الانقطاع عن بهجة الحياة والأعراس وحفلات الرقص حتى الفجر، وعن البزات الجديدة المنشاة الجامدة والتي تتألق برهجة جدتها الكاملة.

برغم ذلك، حزمت رأيي على الزرع، وعانيت من قلق نهايات الشهور وعشتها. وتصرفت في الظروف الحرجة العصبية، وكافحت نفقات تفوق مجمل راتبي. وبعد أن لبثت مقهوراً دونما هوادة بقي لي في أعماق قلبي، كما للآخرين، قلق الأيام التالية يا له من نضال يقوم المرء به ضد نفسه، للاحتفاظ بالفلس الأخير الذي لابد له أن يطير! أجل، لقد خبرت ذاك النضال وعانيت منه. فمعاش التقاعد، ياولدي لا يحل المشكلة مطلقاً. فأنا معيل أسرة، ويتقدم بي العمر، وعلى الدوام تنحرف صحتي بتوعك أو آخر، وأتساءل كم من الأيام باستطاعة باستطاعة المعاش أن يدوم، إن تحتم علي ألا أعتمد إلا عليه وحسب.

لا مناص من الاعتراف بأننا سلكنا في البداية طريقاً غير صحيحة. ولكن، هل كان الخطأ خطأنا؟ فمع استيطان الأوروبي في بلادنا نشأت وظائف الكتبة، إما في الإدارات وإما في التجارة،

دوماً في كل الأحوال، إلى جانب الأوروبي. لقد دأب تفكيرنا جميعاً على هذا المنوال، والأوروبي سيد ومولى بالغ الحول والقوة: له سجنه وجباية الضرائب، وزمام الخير والشر طوع يديه ... ويترتب علينا أن نعيش بتقفي وطأة قدميه، وأن نحيى في ظلاله، لكي ننعم بقسط من الطمأنينة والسلام.

خارج المدن، حين ننظر إلى من يبعث بهم الأوروبي إلينا أولئك الذين يتصرفون مرتدين سترتهم السوداء، ومتقبعين «بشاشية»[1] حمراء والسوط يلازم قبضة يد كل منهم، فما كان الأوروبي يبدو لنا إلا كارثة هائلة تهيمن على عالم الزنوج، ونحن نعتبره شريراً كبعض عفاريت المياه، أوجن الأدغال. فالوسيلة الوحيدة لاكتساب مصالحته كامنة في خدمته وبقاء مصاحبته. وكل واحد منا يتشبث بأن يغدو ولده كاتباً في الادارات. ومن هنا نجم زوال النزعة إلى أشغال الأرض والعزوف عنها.

كان الزرع والتجذر في التربة، ورفض الاستئصال منها، والامتناع عن الانحراف بموجة «الموضات» العارمة، وانصراف الزنجي عن الإنسياق، والتخبط في أعاصير تصورات متناقضة بمقدار أشد أو أقل، كانت كل هذه الأمور تعني- وا أسفي !- أن المرء منامصمم على البقاء «متوحشاً»، فيما كانت المدن تجتذب الناس بشدة وتسحر قلوبهم.

ينبغي القول أيضاً، إن القوم راحوا يهرعون إلى المدن تخلصاً من ربقة كافة القبائل التي ترزح القرى تحت نير هيمنتها

رأيت بداية هذه المزرعة قبل وفاة عمك «ندابيان»وحين عدنا بعد عشرة أشهر من الاحتفالات المأتمية، كانت الأدغال قد استردت حقوقها على المزرعة.

(١) نوع من الطرابيش أو القلنسوات

وترتب علي أن أستعيد العمل كاملاً ومنذ بدايته. آه! سترى يا ولدي، ثمة عمل وفير، فأنا أكافح كل يوم العارشات والأعشاب والأشواك والأمطار والرياح والشمس والحشرات والقردة النهابة والحيوانات المؤذية، والله يعلم كم هي كثيرة! وعلي البقاء ليل نهار شديد التيقظ والحذر.

هل تهب الريح وتعصف بشدة؟ فأقول لنفسي «هذه الريح ستسقط أزهار أشجار البن فيمسي المحصول رديئاً». وحين تمطر السماء قبل أوانها، يتعسر علينا إحراق الحقول وبالتالي يصعب علينا استحصال منتوج قوتنا، وعندئذ تسعى إلينا المجاعة. وهل تتأخر الامطار، على العكس من هذا؟ إذن نلبث عرضة للجوع وتكون فترة الزرع قد انقضت... وهل سقطت شجرة ما؟ ألم تكسر لنا زشجار البن أو أشجار الكاكاو؟ فنحن في انشغال البال الدائم، كما هي أيدينا منهمكة دونما هوادة، وعلى مراقبة كل شيء لـلتأكد أن كل الأمور على ما يرام... فليس إنشاء مزرعة ضرباً من اللعب، يا ولدي، وليس ثمة أي قريب يساعدك حينما تفتقد المال. من يأتي لا يلبث أن ينصرف فهو لا يستطيع التمهل والتلبث ولا وقت له للانتظار. فالحياةتخف وتمضيسريعاً ويتحتم على كل امرىء أن يعيش وأن يجني بسرعة ثمرة كده وأتعابه.

أما أنا، فلست على عجلة من أمري لأني أريد منك متابعة هذا العمل الذي يقتلني كل يوم. ولا بد لكافة جهودي وحرماني أن تثمر ثمارها، وعليكم جميعاً أن تتابعوني وينبغي لكل منكم أن يدمج حجره في هذا البناء الحضاري.

لا تزال شاباً، يا ولدي، وغالباً ما سأحدثك عن جميع هذه الأمور لكي تستذكرها.

العمل! وبعد العمل الاستقلال، يا ولدي، عليك ألا تصير عبءاً على أحد، هذا هو شعار جيلكم. ويهيب بك الواجب دونما هوادة أن تولي عن كل إنسان لا يحب العمل!.

الولد الأسود

من غينيا

١- صهر الذهب السحري

إن العملية التي كانت تُتابع أمام عيني بعيدة عن مجرد صهر الذهب، إلا ظاهراً. لاشك في أنها تستهدف هذا الصهر، ولكنها أمر آخر أيضاً: إنها عملية سحرية، بوسع العفاريت أن تأذن بها، أو أن تنبذها. وبالتالي، كان يهيمن حول والدي ذاك الصمت المطبق، وذاك الترقب القلق.

بالنظر إلى الترقب والقلق، كنت أدرك رغم أني لم أزل ولداً، أن ليس ثمة مطلقاً من عمل يفوق إعداد ذهب الحلي وصنعه. كنت أنتظر عيداً وأتيت لمشاهدته. وتبدى الأمر بالواقع عيداً حقاً. لكن له متابعات واستطالات تفوتني بأجمعها، إذا لم يتح لي عمري إدراكها برمتها، غير أني في اشتباه من أمرها، مع اعتباري ذاك الترقب والقلق بمثابة ظاهرة دينية، يترصدها الجميع حين يراقبون عملية مزج المعادن في البوتقة.

عندما ولج الذهب أخيراً طور الانصهار، أوشكت أن أصرخ، جميعاً كذا، لو لم يكن المحظور يردعنا عن كل صيحة أو نأمة. كنت أرتعش، ولاجرم أن الجميع كانوا يرتعشون، عندما ينظرون والدي وهو يحرك عجيناً عسجدياً لايزال وازناً باهظاً، بينما يفضي فيه جمر الحطب إلى حدود التلف والتلاشي. وتابعت عملية الصهر الثانية، على جناح السرعة، فاكتسب الذهب انئذ سيولة تحاكي سيولة المياه. فلم تكن العفاريت قد انصرفت عن هذه العملية! ...

قال والدي: قرب الأجرة!

وبذلك رفع المحظور الذي كم افواهنا فلبثنا صامتين حتى ذاك الحين. وكانت الآجرة التي يضعها عامل متمرن قرب الموقد مجوفة ومطلية بقسط وافر من سمن (الكاريتيه) [1]. وأخرج والدي البوتقة من المجمرة وأمالها بتؤدة. فشاهدت الذهب يسيل فيدخل الآجرة، أجل رأيته يسيل مسال نار مائعة. ولم يكن هذا في الحقيقة سوى خط ناري جد نحيل، لكنه يتوقد متوهجاً، ويبث بريقاً متلمعاً. وكلما ساح وولج الآجرة، أز السمن ونش متلهباً، فتحول دخاناً ثقيلاً يقتحم الحناجر ويلسع العيون، فيصيرنا جميعاً على شاكلة واحدة بالسعال وتذريف الدموع.

تبادر آنئذ إلى ذهني أن والدي بوسعه أن يوكل هذا الصهر إلى أحد معاونيه الذين لا يفتقدون شيئاً من الخبرة، فقد زاولوا مئة مرة هذه العملية الإعدادية. ولوعهد إلى أحدهم بهذه المهمة لأنجز الصهر إنجازاً آية في الجودة. ولكن سبق لي وقلت إن أبي كان يهمهم طوال انهماكه بالعمل، دون أن يسمعنا ما ينطق به من هاتيك الكلمات السرية التعزيمية، فقد كان يوجهها إلى ما كان يحظر علينا أن نراه أو نسمعه، إلى ما نعجز عن رؤيته وسماعه. تلك هي الكلم التي جسدت الحدث الجوهري الهام. فإن مجمل التعاويذ والتعازيم لعفاريت النار والريح والإبريز وكل تعزيم وتعويذ للأرواح المؤذية، وكل ذاك العلم، من قسمة أُوقِفَت على والدي، فهو يتفرد في اقتنائها وقيادة هذا العمل وإنجازه.

إن أعرافنا، علاوة على هذا، تقصي عن صنع الذهب وصياغته كل تدخل لا يقوم به الصانع نفسه. فهو حقاً القمين على اقتناء سر العزائم والرقيات، لأن صنع الذهب، إلى جانب كونه نشاطاً يتسم بمهارة فائقة، يلبث عملاً يقتضى الثقة والضمير، ومهمة لا تسند إلى امرىء ما، إلا في اعقاب تفكر ملي وبراهين ثابتة. وأخيراً لا أعتقد أن أي صانع يرتضى العدول عن هذه المهنةولعلي مضطر إلى

(١) الكاريتيه: شجرة إفريقية استوائية تفرز حبوبها مادة دسمة تؤكل وهي سمن (الكارينيه) - قاموس لاروس -.

القول: هذا المشهد المسرحي!) التي تتجسد فيها درايته على نحو ساطع، وتعجز أعماله كحداد أو ميكانيكي وحتى كنحات، أن تتسم بها في أي حين من الأحيان، برغم أن مهارته ليست أدنى في هذه المناشط الأوفر تواضعاً، ومع أن التماثيل التي ينشئها النحات من الخشب بضربات من بلطته الصغيرة لا تندرج بين الأعمال المتواضعة.

أما الآن وقد برد الذهب في قعر الأجرة، فانبرى والدي يطرقه ويمطه. ومن ثم، بدأت فترة عمله بصفته صائغاً. وسبق لي الاطلاع على أن والدي، قبل مباشرته هذه المرحلة، ما كان يتقاعس قط عن مداعبته سراً الحية الصغيرة الملتفة تحت فرو خروف يرتديه. وما من شبهة في أنها كانت طريقة والدي في اعتماده على عون ما، سعياً منه إلى ما يتبقى إنجازه، وهو الأشد صعوبة وتعقيداً.

ولكن، أما كان من الشؤون الخارقة، أو الحوادث الأعجوبية، أن تلك الحية الصغيرة السوداء تلبث، في تلك المرحلة وحسب، ملفوفة دونما انقطاع تحت فرو الخروف الذي يلتحف به والدي؟ ... ولم تكن الحية ماثلة دوماً تحت الفرو، ولا تقوم بزيارة والدي زيارة يومية. غير أنها حاضرة كلما ينجز صنع الذهب وصياغته. أما أنا، فما كنت أندهش من حضورها. فمنذ أن حدثني ذات مساء عن عفريت عرقه الأسود، لم تساورني بعد الدهشة. أليس طبيعياً أن تمثل الحية هناك، وهي المطلعة على المستقبل؟ أما كانت تميط لوالدي الستار عن الأيام الآتية؟ بلى! كان هذا الأمر يتجلى تجلياً بيناً: أما كانت الحية الصغيرة تطلعه على كل الأمور؟ وثمة سبب إضافي لاعتقادي وقناعتي المطلقة هذه.

لابد للحرفي صانع الذهب أن يتنقى بادىء ذي بدء من أدران بدنه، فيغتسل غسولاً متقناً، وأن يتعفف بالطبع، عن كل وصال جنسي طوال مناشط مهنته الفعلية. وحيث أن والدي دأب على احترام كافة الطقوس ما كان في طاقته أن يخطىء في إنصياعه لتلك القاعدة. إلا أني لم ألحظ قط أنه ينعزل عن داره، بل يتشبث بمهمته، بمعزل عن مزاولته لأي عمل إعدادي. وكان ينجلي للعيان أن

أبي- وقد سبق لعفريته الاسود الصغير أن أشعره خلال الحلم بالمهمة التي تنتظره في الغداة- قد تهيأ لهذه المهمة، منذ نهوضه من مضجعه، بل كان يلج مشغله عفيفاً نقياً، وقد ضمخ جسده بمواد سحرية يخبئها في العديد من قدوره التعويذية.

أضف إلى هذا الواقع اعتقادي بأن والدي ما كان قط يجوز عتبة مشغله، إلا وهو نقي طاهر طقوسياً. ولا أتوخى البتة بهذا التوثق أن أضفي عليه من الفضائل ما يفوق فضائله. ولا جرم أنه رجل يتقاسم مع نظرائه أوهانهم. غير أني ألفيته دوماً متعنتاً في احترامه الطقوس والتشبث بها.

المرأة التي كان والدي يعد لها الحلية، قدمت مرات عديدة، لكي ترصد شتى مراحل الصياغة. أما في هذه المناسبة، فقد وفدت خصيصاً، متوخية ألا تفوتها أية هنة من دقائق هذا المشهد العجيب في نظرها ونظرنا أجمعين. حيث أن الخيط الذهبي الذي فرغ والدي من مده ومطه كان في طور التحول إلى حلية لهذه الزبونة المتربصة.

هاهي المرأة تلتهم بناظريها السلك الذهبي النحيل، وتترصده وهو يتقوقع بشكله الحلزوني الهادىء، ويتقوقع على نحو لا يخطىء هدفه حول الصفيحة التي يعتمدها الخيط الذهبي. وكان والدي يرمق الزبونة بطرف خفي، فيما أشاهد من حين إلى حين ابتسامة تعدو على شفتيه: لأن ترقب الزبونة النهم يبهجه. وبغتة سألها:

-هل ترتعدين؟

-هل أرتعد؟ ...

كذا كانت إجابتها ونحن نضحك إزاء سحنتها التي تهتز هزة شهوة أمام الالتفاف الهرمي، حيث أخذ والدي يحصر بين التعرجات حبيبات ذهبية منمنمة. وفي نهاية المطاف حين أقدم أبي على إتمام العمل واضعاً في ذروة الحلية جذاذة ذهب أوفر حجماً، إنبرت المرأة تقفز قفزات تنم عن سرور، بله عن بهجة عارمة.

وفيما راح والدي يستعرض الحلية بين أنامله، متوخياً إظهار تناسقها، لم يكن بوسع أحد أن يعرب عن افتتانه بحماس يفوق حماس الزبونة. وعجز عن ذلك الشاعر الساحر الافريقي المتمرس في مهنته. فهو لم يكف خلال كل مراحل التحول عن تسريع تواتر كلامه، متسرعاً بايقاع يخف ويزف متهافتاً بكلم المديح والملاطفة كلما كانت الحلية تتجسد تجسدها النهائي، فيسمو الشاعر إلى سمت الاطراء بموهبة والدي الفذة وقريحته المبدعة.

لا ريب أن الشاعر الساحر الافريقي كان يشترك في نشاط والدي اشتراكاً غريباً- وأوشكت أن أقول: اشتراكاً مباشراً فعلياً- فهو يتمثل من سعادة الابتكار والابداع، ويصيح صيحة فرحة مدوية وينقر أوتار قيثارته كرجل هبط عليه الإلهام، ويمرح وكأنه هو الحرفي عينه أي والدي نفسه، وكأن الحلية تكونت بصنع يديه. فلم يعد المتزلف والمقرظ المأجور، ولم يعد ذاك الانسان الذي في طاقة كل واحد وأي واحد من الربع أن يمتدح خدماته: بل غدا رجلاً يبتكر حقاً أغنية جديدة، متأثراً بسلطان ضرورة ما تنبجس من قاع سريرته السحيقة.

وما أن أنجز والدي عملية لحم الجذاذة الأضخم حجماً، فصيرها تتبوأ قمة الهرم حتى أذن للآخرين مشاهدة إتمامه العمل بإعجاب لم يتح للشاعر الساحر أن يتمالك ذاته فترة طويلة، فأنشد «الدوجا» أي الأغنية العظيمة التي لا تنشد إلا لمن ذاعت شهرتهم وترامى ذكرهم بعيداً، والتي لا يرقص على إيقاع ألحانها سوى أولئك الرجال ذوي السؤددو العظمة.

لم تكن هاتيك «الدوجا» إلا أغنية رهيبة تتحدى كل نشيد قد لا يخاطر الشاعر الراوية بإنشادها دون احتياط ما فهي أغنية قد لايجازف المرء الذي تنشد له دون احتراس. وبعد أن تم إشعار والدي خلال الحلم، إستطاع اتخاذ بعض الحيطة منذ فجر ذاك اليوم. أما الراوية الشاعر فقد اضطر إلى اتخاذ هذه

الاحتياطات فيما مضى حالما عقد الاتفاق مع المرأة. وعلى غرار أبي طلى جسده بالتعاويذ، فصير نفسه منيعاً عزيز الجانب إزاء العفاريت المؤذية التي قد لا تتوانى أغنية «الدوجا» عن إفلاتها من معاقلها، كما حصن نفسه حيال زملائه أنفسهم- فربما اعترتهم غيرة ما حياله-وهم لا ينتظرون سوى هذه الأغنية وإثارة النفوس النزقة، وافتقاد التحكم بالذات الناجم عن هذا النشيد، لكي يطلقوا عليه أذيات سحرهم والمقدور.

حين استهلال «الدوجا» كان والدي ينتصب رافعاً عقيرته بصرخة يشوبها الزهو والبهجة على حد سواء. وانبرى يلوح بيده اليمنى وهي تقبض عود المطرقة التي تجسد رمز مهنته، وبيده اليسرى وهي تمسك بقرن خروف مفعم بمواد سحرية، ويرقص آنئذ رقصة مجد وفخار.

ما أن فرغ من رقصته حتى تهافت حوله كافة العمال والمتمرنين، وراح الأصدقاء والزبائن ينتظرون دورهم، إلى جانب الزبونة التي أعدت الحلية لها. وطفق الجميع يمدحونه مديحاً سخياً، وهنأوا بالمناسبة نفسها الشاعر الساحر، فانهالت عليه الهدايا- وتكاد هذه الهدايا تشكل جميع موارد حياته المتشردة التي يحياها على غرارما فعل شعراء الغرب المتجولون في العصور الوسطى- وكان المرح يتوهج في محياه وقد استحوذ عليه حماس الرقص والاطراء، فأخذ يهدي كلاً من الحضور جوزات (الكولا) هاتيك النقود الزهيدة في مجاملات (غينيا) وكياسة تصرفها.

ولم يتبق إذاك على والدي إلا أن يضفي على هاتيك الحلية لوناً أحمر متوسلاً بقليل من الماء يضاف إليه (الكلور) والملح البحري. وكان بوسعي الانصراف، فقد اختتم العيد وانقضى بأفضل الاحوال.

٢- أغنيات الحصادين

أومأ أحدهم بإشارة إلى الحصادين فطفقوا يسلكون طريقهم وتخللتُ بينهم، وسرت على إيقاع «التمتامات» (١) والشبان يقذفون بمناجلهم الصغيرة في الهواء، ويتلقفونها إبان طيرانها، صارخين صرخات تنم حقاً عن المتعة والابتهاج، فيما كانوا يخطون خطوات راقصة في أعقاب قارعي الطبول.

بالحقيقة، قد توجب علي آنئذ الالتزام إلتزاماً حكيماً ومتعقلاً بما سبق لجدتي أن أوصتني به إذ حظرت علي الاختلاط المفرط بأولئك المشعبذين الشعراء. بيد أنه كان في تلك الشعبذات وهاتيك المناجل الحائمة التي راحت غزالة الشمس تقصفها ببروق وامضة مفاجئة، أجل، كان في جملة هذا المشهد حيوية عارمة المرح وفي الهواء بهجة زاخرة، وفي «التمتامات» فيض من النشاط الحي. فهل بوسعي أن أنزوي؟

وعلاوة على أن فصل السنة السائد وقتئذ ما كان يفسح لي المجال للتنحي عنهم والانعزال، وكل شيء في كانون الأول/ ديسمبر مزهر يعبق بالنفحات الزكية، وكل شيء يتربع على ذؤابة الشباب وطراوته، فبدا لي يومئذ أن الربيع مشفوع بالصيف، وأن الريف المفعم بالمياه طويلاً، والمرهق بغيمات كامدات الكآبة ينتزع انتقامه بكلتا يديه ويتفجر: فليست السماء في أي يوم انقضى أوفر صفاء وأشد سطوعاً وتألقاً، فالعصافير تزقزق ثملة والبهجة تجوب كل حدب وصوب، وفي كل ركن تنبجس الفرحة وتدوي في اعماق القلوب جميعها.

كان ذاك الفصل الجميل، مع كل ما يحتضنه (وما لا يحتضنه وكل ما ينشده بوفرة وأريحية)، هو الذي يحدوني إلى أن أهتز سروراً وأتمايل جذلاً.

وعقب بلوغ الرجال أولاً الحقل المعد للحصاد، تصافوا على حافته، وجذوعهم عارية، ومناجلهم متأهبة. فدعاهم آنذاك عمي (ولربما فلاح آخر) إلى مباشرة مهمتهم فالحصاد ينجز بمعية الآخرين، ويسدي كل إمرىء عونه في

(١) تمتام: طبل إفريقي يصنع من جذع شجرة مجوف (التمتامات).

مناشطجميع الحصادين. وفي الحين، إنحنت الجذوع العارية على المدى الذهبي الشاسع وانبرت المناجل تباشر الحصاد. ولم يكن النسيم وحده آنئذ يرعش الحقل بل يرعشه الرجال بمناجلهم وسواعدهم الفتية.

شرعت المناجل تروح وتؤوب بحركة رشيقة مدهشة منزهة عن كافة الاخطاء والهفوات. وتوجب على المناجل أن تقطع كل ساق سنبلة بين العقدة الأولى والورقة الأخيرة التي ينبغي إزالتها. إي نعم! لم تخطىء المناجل قط مهمتها فالحصّاد يمنح مؤازرته لا تباع تلك الطريقة التي لايشوبها الخطأ: فهو يتناول السنبلة بيده ويعرضها على نصل المنجل، فيقطف على هذا المنوال سنبلة تلو سنبلة. وبرغم هذا، كانت رشاقة رواح المنجل وإيابه مباغتة، وحقاً مدهشة ثم إن كل حصّاد توخى أن ينيط زهوه وشرفه بإحكام نشاطه، وبأوفر ثقة وسرعة، فيتقدم، وضمة من السنابل في يده ... واستناداً إلى عدد هذه الضمات وأهميتها يصدر أنداده رأيهم في عمله وجدواه.

أما عمي الشاب، فكان رائعاً في حصاد الأرز هذا، متفوقاً على أفضل الحصادين وأوفرهم مهارة. فتتبعته مزهواً متقفياً إياه خطوة فخطوة، متلقيا من يديه حزم السنابل ... وما أن أمسك الحزمة بيدي، حتى أنزع السنابل عن أوراقها، وأنظم طولها تنظيماً متكافئاً، ثم أكدسها بتوضيب متناسق. وأوقف انتباهي الشديد على ثباتها لئلا تتعرض لأية هزة مفرطة. فالأرز يجنى دوماً بالغ النضوج، وحين تطاله أية هزة طائشة، تفقد السنبلة قسطاً من حياتها. وما كنت أوثق الحزم بعد تكوينها على ذاك المنوال، فقد أوكل هذا العمل إلي مسؤولية الرجال، بل أتيح لي، عقب ربط الحزم، أن أنقلها إلى مركز الحقل حيث أنصبها واقفة مستقيمة.

وكلما انقضت فترة الضحى، إشتدت فورة الحرارة، وارتدت مسحة من الرعشة والكثافة، بل صلابةمشفوعة بغلالة من غبار دقيق يبعث من المدرات المدوسة ومن القش الذي تثيره الرياح.

وفيما كان عمي يزيل بحركة شديدة من يده ما تقطر من تعرق جبينه ونَحْرِه، وهو يطالب بابريقه الفخاري، أبادره بجلب الابريق من تحت ظلال أوراق الاشجار حيث يقبع في أحضان الرطوبة. وأقدمه له قائلاً:

-أتترك لي قليلاً من الماء؟

-ماهذا القول! ... لن أشرب بالطبع كل ما يحتويه من الماء.

وكنت أرنو إليه يعبّ جرعات طويلة، عبّ زرنقة مديدة، ومن ثم يعيد إلي فخارة الماء وهو يقول:

-هيا بنا! ... هاهو وضعنا قد غدا أفضل الآن. فهذا الغبار يقذر فاه كل منا وحلقه.

وكنت أحكم شفتي على فوهة إبريق الفخار فتنزلق إلى داخل جوفي برودة الماء، فتشع بداخلي فجأة. إلا أنها ترطب الجوف ترطيباً خداعاً سريع الزوال، ومن ثم ينضح جسدي كله بالعرق الغزير. وقال لي عمي:

-إخلع قميصك فهو مبلول، ولا خير في احتفاظك به مبلولاً على صدرك.

ويعاود عمي إلى عمله وأعود أتبعه خطوة فخطوة، بزهو واعتزاز مدركاً أننا نتبوأ المكان الأول. وسألت عمي:

-ألم تتعب؟

-ولماذا أتعب!؟

-منجلك ينطلق بسرعة.

-أجل، ينطلق ...

-ونحن الأوائل!

-آه! نعم؟

-لكنك تعرف هذا تماماً. فلماذا تقول: آه، نعم؟

-أعرف، وعلى ذلك، لن أتباهى بالواقع!

-لا، لن نفعل! ...

وأخذت أتساءل إن كان بمقدوري التشبه به، يوماً ما، أو الارتقاء إلى مستواه. وسألته:

-هل تتركني أحصد أنا أيضاً؟

-وجدتك؟ ما سوف تقول جدتك؟ ليس هذا المنجل لعبة أطفال، وأنت تجهل كم نصله حاد قاطع.

-أرى هذا.

-إذن، ليس الحصاد عملك. ولا أعتقد أنه سيكون يوماً ما. بعد حين لربما...

بيد أني ما كنت أفضل إقصائي كذا عن الشغل في الحقول. «بعد حين»؟ ... . ولماذا «بعد حين» هذا؟ ... إذ كان يبدو لي، أنا أيضاً، أنني قد أستطيع أن أصير حصاداً، حصاداً نظير الآخرين. فهل... وسألني عمي:

-حسناً! هل أنت مستغرق في حلم من الأحلام؟ ...

لم أجب، بل تناولت حزمة السنابل التي يمدها إلي، ونزعت أوراق أسواقها، ونسّقت طولها. أجل كنت حقاً مستغرقاً في حلم لأن حياتي لم تكن هناك... بل لم تكن في مشغل صياغة والدي. فأين كانت حياتي؟ ... وارتعدت فرائصي إزاء هذه الحياة المجهولة. أليس من الأيسر علي أن أتابع عمل والدي؟ ... واسترسلت في خواطري متسائلاً: «المدرسة... المدرسة... هل أحب المدرسة هذا الحب العظيم؟ ... » غير أني قد أفضلها... وأعمامي... أجل، كان لي أعمام قد تابعوا بكثير من البساطة عمل آبائهم. وسبق لبعض منهم أن شقوا طرقاً أخرى لحياتهم. كما فعل أشقاء أبي الذين ذهبوا إلى (كوناكري)، والأخ التوأم لعمي (لانسانا)... ولكن، أين هو ذاك العم في تلك الآونة؟ ... وسألني عمي الشاب:

-والآن، أما زلت غريقاً في حلمك؟

-نعم... لا... لا... أنا...

-إن أغرقت في أحلامك، فلن تكون بعد من الأوائل.

-كنت أفكر بعمي الثني «بو» أين هو الآن؟

-الله يعلم! إبان زيارته الأخيرة، كان... ها أنا لم أعد أعرف أين كان... فهو لا يبقى مطلقاً في الموضع نفسه. إنه يحاكي الطيور، وليس بوسعه البقاء على أغصان الأشجار، ولا بد له من فضاء السماء بكامله!...

-وأنا، هل سأصير يوماً ما كطيور السماء؟...

-ما هذا القول السخيف؟

-حسناً، تقول إن عمي الثني يشبه الطيور.

-وهل تريد التمثل به؟

-لا أدري.

-لايزال أمامك متسع من الوقت للتفكر في مصيرك ومهما تكن من أمر، وبانتظار النتيجة، خلصني من هذه الحزمة.

واستأنف عمي الشاب حصاده وجنيه، برغم أن جسده كان يتصبب عرقاً غزيراً. فقد انثنى إلى عمله وكأنه يباشره للنوبة الأولى التي تتسم بالحماس ذاته... بيد أن الحمّ يرهقه بأواره الباهظ وكذلك الهواء، بينما يتسلل العناء إلى حنايا كافة مفاصله. أما جرعات الماء، فلم تعد تكفي لتبديد ذاك التعب أولإقصائه، ودأبنا نكافحه بالأناشيد والأغاني. وكذا بقية الحصادين.

وكان عمي يقول لي: هيا، غنّ معنا!...

ولبث «التمتام» يقتفي خطواتنا المتوغلة في الحقل ويوقع الاصوات على إيقاعه، والكورس غالباً ما يرفع عقيرته بالغناء، والحماس يحدونا ويحثنا، وأحياناً ما نخفض جداً أصواتنا، فنغني على نحو يكاد لا يسمع، وعلى هذا المنوال، يهفو التعب بجناحيه فينصرف عنا، ويخف سعار الحر الباهظ.

ساعتئذ، إن رفعت ناظري إلى الحصادين، مقاطعاً مسيرتي برهة من الزمان، وإن نظرت خط الحصادين المديد، تولتني دهشة ممتعة، وطربت من عذوبة نواظرهم الطافحة بتلكم الرقة اللامحدودة، وبلطف نظراتهم الوادعة- وإني لقاصر عن التعبير الحقيقي: فهي نظرات قصية ولكأنها شاردة- فهم يسرحون من حين إلى حين أنظارهم على ما حولهم بأجمعه. ورغم أنهم جميعاً تراءوا لي آنئذ

على بعد فراسخ من عملهم، وأن عيونهم على بعد فراسخ من موقع شغلهم، فلم يعتر مهارتهم أي خطل أو عيب. فأيديهم ومناجلهم مواظبة على حركاتها المتتالية، منزهة عن كل شائبة وخلل.

وماذا كانت تبصره تلك النواظر؟ لا أدري! هل هو الجوار؟ لربما... وقد يكون الأشجار البعيدة والسماء القصية القصية. ولربما الأمر مختلف عن هذا. فقد ترمق هاتيك النواظر شيئاً ما. ولأنها لم تكن تبصر شيئاً من العالم المنظور، فقد تبدو هاتيك النظرات بعيدة المدى نائية، ولكأنها شاردة عن الواقع غائبة.

وسبق لصف الحصادين المديد أن توغل في الحقل... أما يكفي ذاك الجهد، وهاتيك الجذوع السوداء، أنها تنحني قدام هامات السنابل؟ ورجالنا هؤلاء يحصدون وينشدون، ويغني كورسهم وهم يجنون موسمهم، وتتناغم أصواتهم وحركات سواعدهم فجميعهم متآلفون في جميع ما ينجزون! متحدون في المهمة نفسها، وفي الغناء ذاته، والروح عينه صلة متبادلة بينهم تشدهم وتوثق بعضهم بالآخرين. فكل فرد منهم وجميعهم قاطبة يتذوقون هذه المسرة، وهي المسرة عينها، بله هي بهجة إنجاز الشغل إنجازاً جماعياً.

وعلاوة على مكافحتهم العناء وحم الطقس هل كانت هاتيك المتعة هي التي تبث الحياة فيهم وتصيرهم يتهافتون على الاغنيات والأناشيد؟ أجل، كانت تلك المتعة هي اللذة التي تتجلى بينة لكل عيان. وهي اللذة نفسها التي تولج في العيون ذاك القسط الوفير من العذوبة، كل هاتيك الرقة التي لبثت تثير اندهاشي طالما وَجَدتُني إلى جانبهم وبين ظهرانيهم، وفي حنايا تلك النعومة، برغم أني لم أكن تماماً بمعيتهم: فلست سوى تلميذ يزورهم، ولكم وددت أن أنسى هذا الأمر طوعاً وبطيبة خاطر!

كنت حقاً أنسى ذاك الأمر، فما زلت آنذاك جد صغير وأنسى بسهولة. وكل ما يطرأ على ذهني قلما يمكث فيه طويلاً، فيغدو كيانه أقل تماسكاً من سحب تجوز رحاب السماء. وكنت في عمر- ولا أزال- ينفق المرء فيه حياته الآنية، فخلالها، مجرد احتلالي الموقع الأول في صف من الحصادين قد اتخذ من الأهمية ما يفوق مستقبل عمري بأكمله...

الانسان والحيوان

تفاهم ثم خصام

من السينيغال

يروي لنا الاقدمون، وقد تكون روايتهم صحيحة أولا تكون...

يروون لنا أن امرأة زنجيقية [1] كانت تعيش في مملكة «تيكرور». ولم يكن لها من هذا العالم سوى صبي وحقل تستنبت منه القطن.

حين يحل فصل الحصاد والقطاف، ما كان القوم في أي مكان آخر يشاهدون بإعجاب كنافج قطن ناعمة وبيضاء مثلما يرونها في ذاك الحقل، فكأنهم يبصرون بيضاً طازجاً يعلو قمم آلاف من سوق النبتات الخضراء.

ويضيف الاقدمون أن الصبي «سامبا» منذ نعومة أظفاره الأولى، كان يمضي أوقاته وهو يمرح في الحقل المزروع، فينسل إلى أشد أركان هذا الحقل بعداً وغموضاً.

---

(١) زنجيقي: زنجي إفريقي.

ذات صباح، اكتشف «سامبا» ما بين نباتات الغابة عرين لبؤة وشبلها:

في ذاك اليوم، كما في غيره من الأيام، سبق للأم اللبؤة أن انطلقت إلى صيد الظباء والجداء على بعد ثلاثة فراسخ من هناك، فما تعود إلى عرينها إلا مساء.

على أن الشبل قد اكتسب من القوة ما يجعله قادراً على سحق كل حيوان من فصيلة أخرى ومن العمر نفسه، لم يبد سوى شيءمن الدهشة والاستغراب. وحين شاهد «سامبا»، نهض أوكاد منتصباً على قوائمه الصدفاء [1] القصيرة المتربلة واعترى «سامبا» خشية من هذا القط العملاق ومن عينيه المتوهجتين المائلتين عند بداية بروز الأنف، ومن شاربيه الصغيرين بوبرهما القاسي على جانبي شدقيه.

يقول الاقدمون أن الانسان والحيوان كانايتحادثان ويتفاهمان. فسأل الشبل «سامبا»:

-من يمكن أن تكون، ياحيواناً أجرد الإهاب؟

-أنا إنسان إبن إنسان، وتمتلك عائلتنا هذا الحقل ونبتات قطنه.

-إنسان إبن إنسان! لقد علمتني أمي أن الانسان خطر على عرق الحيوان!

-سنعقد السلام فيما بيننا، يا «غاينديه» (الأسد) إبن «غاينديه»، إذا شئت السلام. وسنغدو صديقين مهما قدمت العداوة الناشبة ما بين أهالينا.

إنطلاقاً من ذاك الحين، أصبح الشبل وسامبا رفيقين في لعبهما. وطفق سامبا يلتقي الشبل عندما يحل ما بعد الظهيرة وتميل الشمس شيئاً فشيئاً إلى الغروب وراء قمم اشجار الغابة.

---

(١) أصدف: تكاد ركبتاه تتماسان.

إذاك كانت تُباشَر قفزات المرح وشقلباته خلال الادغال. وراح سامبا يعجب بالشبل الذي في طاقته، بقفزةواحدة، أن يتخطى عدة نشزاتٍ لقُرى النمل. بيد أن إبن الانسان يدرك ما يمتاز هو به من ألاعيب بهلوانية يعجز عنها أرباب القوائم الاربع: فكان ينتصب على راحتي يديه خلال حين من الزمن لا بأس به.

أحياناً ما كان سامبا يرجو الشبل أن يشيله على متن ظهره إلى مدخل مزرعة القطن.

ودرجت عادة سامبا على الانصراف عن رفيقه الشبل حينما تنبري قطرات المطر الصامتة تهبط قبيل الظلمات التي تخيم على عرين العائلة. ولم يدرك الشبل من هذا الانصراف الغريب إلا أن والدته اللبؤة ستعود عما قريب إلى عرينها وأنها لن تعفو عن صديقه الإنسان إبن الانسان.

علاوة على هذا، راحت اللبؤة تتذمر غالباً عند عودتها من أنها تشتم «رائحة لحم إنسان». ودأب الشبل على اتخاذ المزيد من الاحتياطات. فبعد انصراف سامبا إلي منزله كان صديقه الشبل يتوسل غصناً شائكاً غزير الأوراق لكي يطمس الآثار التي كانت خطوات صديقه تخلفها على الرمل.

مضى يومان دون أن يأتي الانسان ابن الانسان لزيارة خليله. وإذا بفرضيات وفيرة تتهافت على ذهن الشبل: فهل اعترى صديقه ملل من ألعابهما؟ ام هل انتابه مرض ما؟ أم كان غياب سامبا لأن الشبل «تفوح من شدقيه رائحة نتنة» كما سبق لسامبا أن أعرب عن هذا لصديقة الشبل؟ ... (آنئذ إمتعض الصديق من ابن الانسان وثارت بينهما مشاجرتهما الأولى).

عشية اليوم التالي، عادت اللبؤة الأم من صيدها حاملة معها «ساق إنسان ويده».

تفحص الشبل هذه الغنيمة وسكن روعه: فالعضوان لهما من الطول مقدار كبير ويكسيهما لحم إنسان له من العمر ما ينم على الشيخوخة، ومن المفاصل الدقيقة جداً ما يجعل من المستحيل أن يكون العضوان لصديقه سامبا. بيد أن الشبل لم يلمس ذاك اللحم. أما سبق له أن أقسم في ذاته، منذ عقد صداقته مع ابن الانسان، ألا يطعم لحم الانسان؟ ...

***

في الغداة، عاد سامبا لزيارة صديقه. وكان جسده يطأطىء تحت عبء حزن عميق الاغوار. وعقب كونه، منذ بضعةمن الايام، مفرط الحيوية، طفق إذاك ينطق بصوت متأتىء. وانساب من مقليته مسيلان من الدموع الغزيرة وهي تنزلق طوال جانبي أنفه ثم تتقطر حيناً على حافة شفته العليا الهدلاء ثم تتساقط منسحقة على جوفه الأسود. وخاطب سامبا صديقه الشبل:

-أيها الشبل صديقي! غابت أمي المسكينة عن منزلنا منذ أربعة أيام لكي تجلب قليلاً من الحطب ... ولكنها لم تعد بعد ... وقال أحد العمال في مزرعتنا أنه سمع، يوم ذهابها، ومن الجهة التي نحت إليها، زئيراً ينم في آن معاً عن غضب أسد وعن ارتياحه عندما يطيح بفريسته أرضاً.

-إن أريتك ذراع أمك، فهل تتعرف عليها، يا صديقي سامبا؟

-أجل! بكل سهولة.

جاب كلاهما محيط المزرعة حتى بلغا المكان الذي تتجمع فيه مياه الامطار، وحيث تسمق فيه نبتات القطن أكثر من غيرها، وهي تشيل على رؤوسها كنافج قطن لها المزيد من الامتلاء والعطاء.

ودأب كلاهما على سلوك الدرب التي تقودهما إلى دغل فيه من الاعشاب ما هو سامق وجاف حتى الانقصاف. وهناك في صميم الدغل وما بين جانبي شجرة «باؤوباب» أعقدين كان الشبل قد خبأ حصته من لحم الانسان.

تعرف سامبا على ذراع والدته التي تحمل تعويذة إفريقية يتذكرها بدقة. وراح يذرف الدموع الغزيرة وتعالى شهيق نحيبه من أعماق حناياه، فطفقت أضلاعه تتقبقب وتنبسط في تشنجات عشوائية.

إنبرى الشبل يهدىء روع صديقه بكل ما استطاع من لطف وحنان، وقال إنه يتحتم على ابن الانسان ألا يبكي مهما بهظ وقع الرزيئة عليه. ثم اردف قائلاً:

-هيا! إذهب واحتطب لي حطباً!

إنصرف سامبا وعند عودته شاهد الشبل منهمكاً في نقب حفرة لها من الطول ست أذرع ومن العرض ثلاث. فسأل صديقه الشبل:

-ماذا تصنع هنا؟

-عد سريعاً إلى كوخك، فستعلم ذلك فيما بعد.

دأب الشبل على حفر الحفرة خلال سبعة أيام. وقبل هبوط الليل، كان يسترها بحطب جاف تمويهاً لها. ولبث يحفر حتى نزع التراب عن اطراف جذور الاشجار المجاورة. ثم كدس فيها ما كان سامبا يحتطبه كل صباح وأشعل النار فيه.

ما أن اقترب المساء حتى أمسى الحطب جمراً متراكماً على بعضه البعض، على شاكلة سرير من النار يحمر مضفياً على تربة الاعماق المجاورة مسحة صهباء. وانبرى الشبل يضع على حواف الحفرة العليا أغصاناً من خيزران، صافاً القضبان على ثلاثة صفوف. وهذه الاغصان مرنه في خضارها وسريعة الانقصاف في يبسها.

ثم أضاف إليها اوراقاً خضراء وطبقة خفيفة من الرمل... وفي النهاية بسط عليها جميعاً حصيرة وعلى الحصيرة جلد جدي. ثم وضع على هذا الجهاز ذراع والدة سامبا خليله...

في ذاك المساء، لم تأت اللبؤة الأم إلا بغزال وشعرت بالسعادة حين بصرت من جديد لحم الانسان أمامها. فقالت لابنها الشبل:

-لم تأكل بعد حصتك من لحم الانسان؟

-تعرفين جيداً، يا أمي، أني لا أستسيغه ولذلك تركت لك حصتي.

-إليك إذن هذا الغزال واطعم! وعقب شبعك إجلب لي ما تبقى منه.

ومضت اللبؤة لتأخذ لحم الانسان الذي تركه ابنها الطائش معرضاً للفساد. آه! لو كان يعرف كم من الساعات المرهقة لا بد من أن تتحملها قابعة في المرصاد وساعية إلى كسب أودهما! سوف يأتي يوم يدرك فيه هذا الجهد، وسوف يحسن التصرف بمنتوج العناء في الصيد.

ما كادت اللبؤة الأم تقبع على جلد الجدي مُهَمْهِمَةً ما دار أخيراً في ذهنها حتى انهار بها مجمل جهاز الشرك.

ما كادت اللبؤة الأم تقبع على جلد الجدي مُهَمْهِمَةً ما دار أخيراً في ذهنها حتى انهار بها مجمل جهاز الشرك.

وفي حين أوجز مما ينبغي للتعبير عن كل هذا، إحترقت اللبؤة وتفحمت واندفنت.

دمل الشبلُ الحفرة باكياً. وغرس هناك نبتة «فِربِيُون» بسيطة ولكن معمرة فهي تغرس على القبور للتعرف عليها.

***

في غداة ذاك اليوم، قال الشبل لصديقه سامبا:

-انتقمت لأمك بقتل أمي. فعليك أن تدفن الآن أحزانك. وسوف نسكن المكان نفسه بما أنك يتيم مثلي.

هكذا، أمضى الصديقان مراهقتهما. وكان الشبل يتوغل سحراً في الدغل يترصد قرب الجدول الكبير. فهو يعلم أن الظهيرة سوف تحل، وأن الشمس والعطش سوف يطردان من الادغال إلى الماء الغزلان والظباء والجداء. إذاك يفاجئها وهي تغمس خطمها العطشان في مياه الجدول متنعمة بمتعة تنسيها بقية ما في العالم بأسره.

ثم يقوم الشبل وسامبا بإصلاح لحم الفريسة ولكل منهما حسب ذوقه وشهيته. ثم يعودان إلى العابهما وشقلباتهما طوال ما بعد الظهيرة.

ها هو الشبل قد كبر: وغدت مخالبه وأنيابه متينة قاطعة. ونما وبر طويل

على جانبي متنه. وانتصب الوبر جالساً تماماً ثم انحنى ساقطاً على كشحه وخصره. وراح الشبل يشعر أن رغبات تنمو في داخله مثيرة فيه القلق. فحين كان سامبا يقترب منه، تستحوذ عليه رغبات كالتي تعتريه عندما يبصر الجدي: فلم يعد لحم الانسان يثير اشمئزازه.

وانتهى به الأمر إلى أن يقول لصديقه:

-يا سامبا! هاأنذا قد اصبحت بالغاً راشداً، ولم يزل الانسان إنساناً، والأسد أسداً. فيترتب علي أن أعود إلى الغابة، وعليك أن تعود إلى القرية. لكني اقطع لك عهداً، يا صديقي سامبا، أنك لن تكون تعساً في حياتك. فكلما سمعت زئيري خلال الليل، حين لا تطأ قدم الانسان أديم الأرض، تعال إلي بسرعة. وسوف أقول لك كيف يكون في طاقتك أن تتفادى كل خطر وشيك. ومهما تسبب لك هذا من ازعاج، إهرع إلي، أو لا تفعل كما تريد، ولكن لا تقل أبداً: «أوه! لهذا الحيوان خطم نتن الرائحة!». وعاد سامبا إلى قومه.

وحل اليوم الذي توجب على سامبا أن يتجمل عبء الاحتفال «بالختان». إنه التقليد الذي يصير المراهق رجلاً. ويتحتم إنجازه بأبهة وشجاعة. وإن حدث للمراهق حينما تصرف وتحز المدية الحادة الصغيرة في جسده، أنه يرف بأهداب عينيه، فالأمر يشير إلى وهن قوته، فيلطخ سمعته بالعار. اما سامبا فسيتحلى بالشجاعة، ولكنه يتيم معدم من كل يسار أو مال...

في رحاب الساحة الكبيرة كانت تمتامات القرية توقع ببهجة أغاني الشبيبة:

ها أنا نظير للفيل!

وكل ما يصدمني ينهار ويُهدم!

على هذا المنوال، راح كل مراهق يرفع عقيرته مغنياً شعار ختانه.

اما سامبا، فقد انعزل في كوخه، تعساً ذليلاً بوطأة فقره، بينما انبرى رفاقه يتبارون: فمن بمقدوره أن يذبح المزيد من الثيران والكبوش، ومن في طاقته أن ينشد أروع شعار في القرية.

على حين بغتة، عندما أمست «تمتامات» الليل أوهن قرعاً وصدى، سمع القوم زئيراً ينطلق من نَحْر أسد فتي.

في الحال، التحق سامبا بصديقه الأسد الذي حباه بمئة ثور وبمئة خاروف وبمئة عنزة. وهذا ما أتاح لسامبا أن يُصيّر عيد ختانه عيداً شهيراً عالقاً بكل قلب وذاكرة.

***

حان اليوم الذي توخى فيه الملك أن يختار زوجاً لابنته الوحيدة. فأعلن أنه لن يقرنها إلا بمن يقدم له أسداً حياً.

وفي ليلة ذاك اليوم، استدعى الأسد صديقه سامبا متوسلاً بالإشارة المتفق عليها وخاطبه بقوله:

-غداً ستمضي إلى ضفة الخليج متسلحاً ببندقية ذات تلقيم خلب. وحين سأخرج إليك أطلق طلقة علي وسأتظاهر بأن رعدة الخوف قد انتابتني فتقودني إلى الملك «بطرف أذني».

وهذا ما جرى فعلاً. فاصبح سامبا صهر الملك.

***

انقضت ثلاث سنوات.

سبق لسامبا أن تسنّم العرش بعد وفاة حميه. وحين كان مضجعاً ذات ليلة على سريره وزوجته تمسد له أعضاء جسده، تخفيفاً عليه من عناء مهمات النهار، بغتة سمع القوم زئيراً ثلاثياً اهتزت له أركان الليل.

فصاح سامبا:

-أوه! هذا الحيوان النتن الشدقين!! ياله من رأي مزعج دفعه إلى إزعاجي في هذه الساعة من الليل!

لكنه نهض من مضجعه ومضى إلى الموعد المتفق عليه. فقال له الأسد:

-يا سامبا! أعلم أن جائحة حيوانية ستفتك خلال بضعة أيام بكافة ماشية ربعك. وها أنذا أسوق إليك هذا القطيع لكي أدخر لك مدخرات من اللحم المجفف. وأعرف أيضاً أنك تفوهت بإهانة وعدتني سابقاً بأنك لن تكررها!

كف الاسد عن الكلام برهة ثم استطرد بقوله جازماً:

-يا سامبا! إضربني بسيفك!

-لا! لا! أنت متأكد أنني لن أفعل.

-هيا اضربني بسيفك! هيا!

كذا ألح الأسد. فضربه سامبا بسيفه. فانبجس الدم وترشرش.

-هيا يا سامبا! إطعن جنبي بخنجرك!

وطعنه سامبا. فتدفق الدبم وترشرش.

-يا صديقي سامبا! هل ترى هذه الجراح التي بها جرحتني، إنها لا شيء بالنسبة إلي! فالجرح يلتئم. لكن الكلمة الجارحة لا شفاء لها. وداعاً يا صديقي! حين ستبصر شجرة «الباؤوباب» المنتصبة في وسط فنائك تذوي وتجف، إعلم آنذاك أن كلمتك الجارحة قد قتلتني!

منذ ذاك الحين، نشبت العداوة مجدداً بين الانسان والأسد ولا تزال...

الفهرس

٢٠٠٠ ط١/٥/٢٠٠٠

كانت الشمس فيما مضى صديقة القمر. وكانا متلازمين في حياتهما: ينهضان من المضجع نفسه صباحاً ويأخذان قسطاً من الراحة معاً في الليل، فينزلان في الكوخ نفسه. وكانت حكمتهما مشتركة بينهما وكذا جميع مقتنياتهما.

لكن ضياءهما لم يكن مشتركاً ولا متكافئاً. وذات حين قطعت الشمس وعداً لصديقها القمر بأن تقاسمه ضياءها الوهاج إن قبل الاقتران بها.

رضي البدر بذاك الشرط، واقترنا بالزواج وأنجبا ذرية عديدة كثيرة، ألا وهي آلاف النجوم والكواكب التي تشرف على متع بني الانسان ليلاً وتنير المسالك التي تسلكها أحلامهم وأمانيهم.

بيد أن الشمس لم تف بوعدها. ولذلك نشب الشجار بينهما وافترق الواحد منهما عن الآخر. فانقطعا عن التلازم في مساراتهما: فالواحد منهما يشرق والثاني يأفل ويغيب عن العيان. وأحدهما يجتذب الامطار والآخر ينجزها ويشتتها، والواحد منهما يحرق والثاني يرطب، وأحدهما يأوي مضجعاً تحت البحار، والآخر خلف التلال والجبال.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر

١٢٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٢٥٠ ل.س